يوسف القعيد

البيات الشتوي

الناشر

مكتبة مدبولي . القاهرة

البيات
الشتوي

البيات الشتوي

بقلم

يوسف القعيد

احكم بالعدل يا قاضى
قدامك مظاليم ..

● من موال شعبى ●

تقرير عن الحالة في السوالم

ساعة الاصيل فى مسجد سيدى الغريب .

يقف الشيخ محمود امام باب المســـــجد ، على الدرجتين الصـــغيرتين ، وفى كل يوم يدرك انهما تآكلتا ، وانه عند جمع المسانية القادمة ، سيبنى بدلا منهما ، غير انه فى كل عام كان يؤجل الموضوع كله .

ـ السنة الجاية تفرج .

الشيخ محمود يخرج ساعته القديمة ، يتحسسها بيـــده ، يقربها من عينه اليمنى حتى يلامس زجاج الســـاعة بقايا رموش العين ، يضعها فى جيب الصديرى الداخلى ، يدخـل الميضـــة ، يتوضأ ، يتمشى فى باحة المسجد ببطء ، عيناه تطالعان شـــيوخ البلد ، رجال كبار ، يجلسون فى صحن الجامع طول النهـار ، يحكون حكايا مبللة بالوجد عن ايام خير مضت ولن تعود ، وتخرج الـكلمات من أفواههم التى بلا اسنان ، هشـــة خافتة كالانين . انهم يأتون وقت الضحى ، يخلعون نعالهم القديمة ، التى كانت أحذية لأولادهم ، يضعونها تحتهم ، يسندون العصى التى يتوكأون عليهـــا على الحائط . يتقارب الشـــيوخ ، يبتسمون وقد رقق المرض من كل شىء فيهم ، يجمعون شـــمل الذكريات القديمة ، وتموت الرؤى المرتعشة على الشفاه ، وتتعلق فى العيـون دموع جفت منذ سنوات . انهم يترحمون على الذين ماتوا .

ـ سبقونا الى دار الخلود .

يتذكرون الاحيـــاء ، الذين اقعدهم المرض فى بيوتهم ، يتأملون حياتهم ، انهم قضوها يجرون . يلهثون ، يكرهون بعضهم البعض، يتعاركون على دور الميـــاه والرى والمحصول ، يكتبون الشـــكاوى فى السر ، لاولياء الله وأولى الامر فى البندر . غير انهم يدركون لآن . فى لحظة العصـــارى ، انهم جميعا مجبرون على الســـفر بمفردهم ، فى آخر الامر ، الى جهة غير معلومة .

ان الشيخ محمود يستعد للصعود فوق المئذنة ، كي يؤذن لصلاة المغرب ، انه ينظر الى المئذنة من باحة المسجد ، بناء قديم ، حائل اللون ، يشق الفراغ الازرق المغسول ، يطعن السماء الصافية ، يلتقى بها على البعد ، يتلامس معها ، ويصبح فى النهاية جزءا منها . من فوق المئذنة ، يشاهد الشيخ محمود ، مناظر تطالعه كل يوم ، مساحات لا نهائية من الخضرة ، وفى الحقول رجال واطفال ، يحلون البهائم ، يغتسلون ، يصلون ما فاتهم من فرائض اليوم ، استعدادا للعودة من الحقول . فى السماء الصافية ، طيور تستعد للهجرة نحو اعشاشها بعد يوم طويل . يحاول الشيخ محمود ، ان يرى اكثر من ذلك ، انه يشاهد بلادا بعيدة ، بقعا يختلط فيها البياض بالسواد وسط الحقول . تبدو له ترعة ساحل مرقص ، ترتفع على البعد ، حتى تلتقى بالافق ، وتكون قد تحولت الى مجرى صغير ، خط أزرق متموج كقناة فى أحد الحقول ، بقايا ظلال المئذنة تتكسر على الحارات والبيوت والحقول القريبة . فوق أسطح البيوت ، يتناثر الحطب الجاف ، وبعض البيوت خلا من الحطب ، فتبدو اسطحها رمادية اللون ، ومن مناور البيوت يخرج الدخان . الشيخ محمود يدرك انه لو كان فى الحوارى الآن ، لسمع صوت طشيش التقلية ، وشم رائحة السمن المحروق ، ولرأى الرجال على المصاطب ، وأمام دكاكين البقالة والاطفال يلعبون فى الحوارى . فى الحقول ، رجال تأخروا فى العودة بسبب أعمالهم . على الجسر يقف الشبان ، يدخنون ويتحدثون ، كلمات كسولة ، تتخللها فترات صمت طويلة ، وعلى الناحية الاخرى من الجسر ، مسافرون لم تحضر لهم سيارات . انهم يقفون وقد تعلقت عيونهم بمكان بعيد فى الافق ، حيث يتوه الجسر تماما بين الاشجار العالية ؛ انه أول مكان تظهر منه السيارات القادمة من كفر عوانه . تحت الشيخ محمود مباشرة ، باحة المسجد والميضة والدورة وطلمبة رفع المياه . ان الرجال يتوضأون ، يصلون ما فاتهم . وفى صحن الجامع ، مصباح قديم ناعس ، يروح ويجيء ، فتتحرك الظلال والاضواء مع حركته البطيئة ، فتكشف عن محتويات الجامع .

وعلى المدى البعيد ، كانت زرقة السماء غامقة ، وكانت هناك بعض النجوم القليلة بدا لمعانها خابيا . ان ليل الخريف البارد ، بلياله الطوال ؛ يرتفع الآن من الحارات والجسر والحقول

المنبسطة حتى اللانهاية . الشيخ محمود يخرج ساعته ، يقربها هذه المرة من عينيه اكثر من المرة السابقة ، يضعها في جيبه بسرعة ، يدور حول المئذنة ، تهب نسمة هواء خريفية فتداعب جلبابه ، يعدل وضع العمامة على رأسه الاصلع ، يرفع يده اليسرى ، ينحسر عنها الكم ، فتبدو رفيعة معروقة . يرفع يده اليمنى . يضعها على خده ، يغطي بها نصف فمه ، يفتح عينيه اللتين بلا رموش على آخرهما ، يستنشق هواء مبللا برائحة الماء والخضرة ، يفتح فمه على آخره ، تبدو عروق رقبته غليظة منتفخة
ــ الله اكبر ، الله أكبر .

على مدى سنوات طوال ، ولا احد يدري كم عددها ، ايام غير معلومة ، ساعات لا يحسبها أحد ، حدثت أشياء كثيرة ، احداث مدهشة ، حكايا لا تصدقها الآذان . ان هذه السنوات التى مرت ، لحظات بطيئة من الفراغ ، تسربت ومعها حياة الناس ، الميلاد ، معاناة لحظات العمر ، الشيخوخة والمرض ، ثم الموت فى النهاية . ويكتب الناس على وجه الايام والليالى قصص حياتهم ، حكايا أيامهم العجاف . يتعاقب الليل والنهار ، تدور دورة الخريف والشتاء ، ذلك ما كان ، وما هو كائن ، غير ان ما يحدث فى هذه اللحظة ، فى حياة كفور السوالم « الساعة الخامسة والدقيقة الاربعين من مساء يوم الاثنين الخامس من شهر اكتوبر سنة أربع وستين وتسعمائة وألف ، من بعد ميلاد السيد المسيح » . أمر غير عادى ، بل انه يحدث فى حياة البلد للمرة الاولى .

الناس تنظر للأمر بدهشة ، ويحاول كل منهم حساب الامور فى ذهنه ، كي يتوصل الى رأى فيما يحدث . وبمجرد أن يخدش شكل الحياة فى السوالم ، حادث ما ، وينفذ الى حياة الناس ، حتى تتباين وجهات نظرهم اليه ، يأتى المساء ، ويجتمعون على المصاطب ، أو على الجسر الكبير ، او فى باحة المسجد ، ويتناقشون فى الامر ، يقولون كلمات بسيطة ، تخرج من الافواه مطحونة ، متآكلة الحروف ، يدلى كل منهم برأيه ، ولا يتفقون على أمر ما فى النهاية . ان الكلمات ليست أهم الوسائل فى الاتصال بين الناس ، الصمت ، النظرات المنكسرة الزاخرة بالصبر والمرارة ، التعب والاجهاد المنسال على ملامح الوجوه . ربما كانت تشكل اتصالا روحيا بين الناس ، أكثر من الكلمات . تظلم الدنيا ، تبتلع عتمة المساء ، البيوت والترعة والاشجار

والجسر الكبير ، يعود الرجال الى بيوتهم ، فى حجراتهم الصغيرة ، يعيدون لزوجاتهم ، وأولادهم الصغار ، التعليق على ما يحدث . والرجل لا يحكى فحسب ، انه فى منزله ، وهنا توجد مملكته ، لذا فانه يحكى ما حدث ، ويعلق عليه ، ويتناوله بالمناقشة ، ثم يدلى برأيه النهائى فى الموضوع ، على انه الرأى الصحيح ، الذى لا يقبل مناقشته مع احد .

اليوم هو يوم الاثنين ، وفى ساعة الاصيل ، والرجال واقفون على الجسر ، يتحدثون فى أمور عامة ، توقفت سيارتان ، من سيارات الحكومة . على الطريق الزراعى . ثم اتجهتا الى الجسر ، ومنه الى السوالم ، دهش الناس ، ان السيارتين تتجهان الى الفضاء الذى يفصل بين السوالم بحرى والسوالم قبلى ، وهو ليس فضاء واسعا ، فحوله منازل من كل ناحية ، والسبب فى تركه فراغا ، ان فيه دائما نشع ، يصبح بركة مياه أيام الفيضان. مما ادى بأهالى البلد ، لجعله وقفا لمسجد سيدى الغريب .

ينزل من السيارتين رجال ، افندية ، قادمون من البنادر ، ينزلون أشياء كثيرة ، مناضد ، خيام ، حقائب . ويدور بين الناس الغرباء ، حديث ، ضحكات ، وفى محاجرهم تدور عيون مستطلعة ، جريئة . ان من ينظر الى البيوت المحيطة بالمنطقة التى يقف فيها الرجال الغرباء ، يجد ابواب البيوت والمناور الصغيرة واسطحها ، قد اصبحت مبطنة بالعيون الصغيرة المستطلعة . اطفال صغار ، نساء ، شيوخ مقعدون فى المنازل ، العيون تنظر ، وقد ران على الناس صمت مشحون ، مترع بالقلق والرغبة فى معرفة أمر هؤلاء الغرباء .

بعد قليل ، كان الاطفال والصبية ، قد اقتربوا من السيارتين والرجال الغرباء . رأوهم عن قرب ، استطاعوا أن يستمعوا الى كلماتهم ويرون ما معهم ، فأدرك احد الصبية الصغار ، حقيقة ما يجرى . القادمون يحفرون الارض ، ويدقون الاوتاد لنصب الخيام ، للسكنى فيها ، وبمجرد أن توصل ذهنه الى ذلك ، انصرف مسرعا ، كى ينقل الخبر الى أهالى البلد ، وعندما يهل على السوالم شخص غريب ، فان جميع أهالى البلد ، رغم ما يكون بينهم عادة من الخلافات ، يعتبرونه ضيفهم ، ويرحبون به ، ويفرحون لوجوده جميعا .

على الجسر ، أرسل الرجال فى طلب حب الدين سرحان ، كى

يسألونه عن الغرباء . وقبل أن يحضر حب الدين ، راح كل رجل يخمن من يكونون . قالوا : قد يكون الغرباء من مصلحة المساحة، أو من المركز ، أو من بنك التسليف الزراعى ، أو من وزارة الصحة العمومية . قال لهم حب ، بعد أن حضر ، انه يعتقد ان الذى حضر الليلة هو الباشمهندس .

ــ الباشمهندس مين ؟

ذكرهم حب الدين ، انه منذ ستة اشهر مضت ، حضر الى البلد ، شاب صغير ، يضع على عينيه نظارة طبية .

قال أحدهم :

ــ صحيح ، فيهم واحد بنضارة ، انا شفته بعينى .

ان هذا الشاب ، قد أخذ عينة من الارض الفضاء الصغيرة ، وعينة أخرى ، من نصف الفدان الذى يملكه وردانى . أخذ هذه العينات ، ثم سافر الى مصر ، ومن يومها لم يعد ، ونسى الناس بالتالى ، حكايته تماما .

ــ فاكرين والله .

رفع كل منهم يده الى جبهته ، ووضع السبابة بجوار اذنه اليمنى ، مؤكدا انه يتذكر ذلك ، وان الستة اشهر ، نصف السنة ، مرت كأنها فركة كعب قصيرة .

الرجال يستعيدون الآن حضور المهندس ، كان الوقت صباحا ، وكانت شمس ذلك اليوم زاهية . قياس الارض ، تحديد مكانين . أرض الوقف الخلاء ، أرض وردانى بحرى البلد ، اخذ عينة من المكانين ، حضور العمدة الى المهندس بنفسه ، سؤاله عن السبب فى اخذ العينات ، المهندس يقول له ، وهو منهمك فى عمله : هناك احتمال وجود بترول فى المنطقة ، تحليل العينات اجراء مبدئى ، ونتائجه ليست نهائية ، قد يعود أو لايعود الى البلد بعد ذلك ، العودة متوقفة على نتائج الدراسات التى ستجرى على هذه العينات يوميا ، سأل المهندس ، اسئلة كثيرة . عن السوالم والبلاد المحيطة بها ، عدد سكان البلد ، مساحة الارض التنظيمات السياسية ، متوسط دخل الفرد ، مستوى التعليم . وزار بعض الفلاحين فى بيوتهم ، ومكث بداخل البيوت طويلا ، وشاهد طعام الناس . وجلس أمام الكانون والفرن . ودخل غرف المعاش وشرب من الازيار . وفى المساء ، رحل المهندس عن البلد .

يقول الرجال ، ان حكاية المهندس ، ايامها . منذ نصف عام ، تحولت الى نكتة ، وبعد رحيـله ، فى الليـل ، فى عشة سلسبيله ، تناولوها بالحديث .

ـ قال بترول قال .

قال أحدهم :

ـ بترول يعنى جاز ، والجاز بنشـغل بيه الوابور واللمبه نمره عشرة .

ـ ياعم دا فيها اللى مكفيها .

وضـحكوا ، انهم يستلقون على ظهورهم من الضحك . وبين رشفات الشاى ، بدأوا يتكلمون ، تتمدد أصواتهم فى رهبة الليل. ومع دخان الجوزة ، بدأ بعضهم يغنى ، تجرح أصـواتهم الليـل بموال عتاب حزين . وقال لهم حب الدين : ان البترول هو الجاز الذى يشترونه من المعلم يعقوب ؛ بالـكابون ضمن التموين ، مع السكر والزيت . وانه رغم غلو ثمنه ؛ الا انه يخرج من الارض بكميات كبيرة . وعارضـه أحدهم ، قال ان الجاز يصنع فى السويس . وقال شاب ، كان يتعلم فى المدارس من قبل ، ان أول دول العالم انتاجا للبترول هى دولة الـكويت .

قالت سلسبيلة من خلف نصبة الشاى :

ـ آهى تخاريف ليل .

آخر الليل ، عاد الرجال الى بيوتهم ، وكانت البيوت والحارات والاشجار ، تنام فى الظلام كجنين مبهم ، لم تتحدد ملامحه بعد ؛ لمخلوق مقبل ، وكان السكون يمد رائحته على البلد .

ذهب الرجال الى حقولهم فى صـباح اليوم التالى ، وهناك ، بذروا فى رحم الارض ، ضبابا ومواسم وهمية واحلاما . ونسـوا حكاية المهندس والبترول خلال سوقية الحياة وتفاهتها المتجددة ، حيث تحنط الاحلام ويرسو الذبول ، ويعلو الصدأ روح الحياة ، ويؤجل كل شيء .

حب الدين يسـتأذن من الرجال ، انه يريد أن يذهب الى المهندس ، للسلام عليه والترحيب به ، والسـؤال عن الصـحة والحال وما فعلته به الايام .

ـ وتعرف لنا الخبر ايه ؟

تواعدوا على اللقاء فى عشة سلسبيله بعد صـلاة العشـاء . حب الدين يسير ناحية البلد ، شابكا يده اليمنى فى يده اليسرى

خلف ظهره . يسير ببطء ، ناظرا الى الارض تحت قدميه ، مفكرا فيما صارت اليه الحال . الرجال يقفون على الجسر . المساء يحل الآن بالسوالم ، وظلال الشمس اللينة الطويلة بهتت معالمها وذابت ، تهب النسمات الطرية فتصافح الوجوه ، ويقل الرجال الواقفون على الجسر ، يذهب بعضهم لصلاة المغرب . ويعود البعض الآخر الى منازلهم . لم يكن هناك حديث للناس ، سوى موضوع المهندس ، الخيام التى نصبت ، السيارتين ، ذكرى حضور المهندس الى البلد منذ ستة أشهر ، العينات ، الارض ، البترول ، ونسى كل فرد همومه الخاصة ، واشترك مع الآخرين فى هذا الموضوع الطارىء وقال أحد الرجال لزوجته ، وهما يتناولان طعام العشاء ، فى وسط داره :

ـ لا ، ولسه ياما حانشوف .

بعد العشاء ، عشة سلسبيلة ، وسلسبيلة مشغولة الآن بتجهيز العشة . تحضر الوابور ، البراد الكبير ، الاكواب ، الشاى ، السكر ، المعسل ، عشة سلسبيلة بجوار الجسر ، على الترعة ، ن مواجهتها ، فى الناحية الاخرى ، مصلى صغير ، دوران طينى منخفض ، فى التواء سكة الثعبان ، على شكل نصف دائرة ، فرش بقش أرز ، وعند بابه الصغير درجات من الحجر ، تبدو مغسولة دائما بمياه الترعة ، يتوضأ الرجال عليها قبل الصلاة . فى منتصف المصلى ، شجرة جميز عجوز ، يقول الرجال انها حضرت هوجة احمد عرابى المصرى . بجوار عشة سلسبيلة يوجد سبيل، ثلاثة أزيار دفن نصفها الاسفل فى الارض ، فوقها تكعيبة عنب تظللها « ويا بخت من سقا مسافر عطشان ساعة القيالة » .

عشة سلسبيلة تقوم مقام المقاهى التى يشاهدها الرجال فى البنادر ، غير انه لا يوجد فى العشة كراسى ولا مناضد ، ولا يحضر كل الرجال الى العشة ، وحتى الذين يحضرون اليها ، لايواظبون على الحضور . اثنان فقط ، لابد من وجودهما كل ليلة ، سلسبيلة ءبى الله وحب الدين سرحان ، وهما صاحبا العشة ، اما وجوه الرجال فتتغير كل ليلة .

يجلس الرجال فى دائرة ، او فى مجموعات صغيرة حسب الحال ، وتدور عليهم أكواب الشاى والجوزة حتى آخر السهرة . انهم يحضرون الى العشة كى يستريحوا من عناء العمل طول النهار . سلسبيلة تجلس خلف النصبة ، فى آخر العشة من الداخل ، اما حب الدين ، فانه يجلس فى منتصف الرجال ويقوم بتوزيع الطلبات عليهم .

– بقى وسلمت على الباشمهندس ؟

ينسى حب الدين أحيانا عمله ، ويجلس وسط الرجال ، يحكى لهم الحكايا ، الرجال ينصتون ، ويظل يحكى ، الى أن تذكره سلسبيلة بعمله ، فيقوم كى يوزع الطلبات ، وهو يحكى خلال ذلك أيضا . الرجال فى السوالم ، يحضرون الى العشة ، مدفوعين

الى ذلك برغبة فى ان تكتحل عيونهم بمرأى سلسبيله ، أو سماع حكايا حب الدين . السهر عند سلسبيله سفن من الورق ، يبحر فيها الرجال فى ليل السوالم . حب الدين يجلس الآن وسط الرجال ، يحكى حكاية المهندس . ذهب اليه ، سلم عليه .

ـ الحمد لله على السلامة يا باشمهندس .

يقسم حب الدين ، ان المهندس ما زال يذكره ، لا بشكله فقط ، بل باسمه ، وانه قال له : ازيك ياسى حب الدين . وساله عن البلد والعمدة ، واسم صاحب الارض ، التى آخذ منها العينة منذ ستة أشهر ، يقول حب الدين ، ان المهندس قد حضر هذه المرة لاقامة طويلة . وانه قد أجل زيارته للعمدة حتى صباح الغد ، وانه قد نصب ثلاث خيام فى أرض الوقف .

ـ وماعرفتش ايه الموضوع ؟

يقول حب الدين : الموضوع كله سيعرف فى الغد : لا داعى للاستعجال ، سيكون خيرا . قال لهم : انه مطمئن للمهندس ، فهو رجل لطيف ، يحب الناس ويسعى لمصلحتهم ، المهندس أكد له ، ان الايام القادمة ستحمل للسوالم كلها الخير ، خير من نوع جديد . لم يعلق الرجال اهمية على كلام حب الدين الاخير .

ـ ومنين ييجى الخير ؟

ـ الخير ايامه راحت ياعم .

يحكى لهم حب الدين ، شاهد المهندس ، يعلق غياراته الاخرى داخل الخيمة ، وان المهندس سأله عن كيفية الحصول على الطعام وسعره ، وان كان فى السوالم بيت من الممكن ان يستأجره ، وانه سأله عن اسم مأمور المركز ، ومعاون نقطة بوليس تكلا العنب . لم يفهم الرجال كلام حب الدين ، وبدأوا يفقدون اهتمامهم بالموضوع كله . كانوا يتصورون ان المهندس سيغادر البلد فى الصباح الباكر على الاكثر ، غير ان الموضوع لم يكن واضحا فى اذهانهم ، كانت الامور ضبابية وقلقة فى فهم كل منهم . الضبابية تكمن فى امر واحد ، ماذا يريد المهندس من بلدهم . كانت حكاية البترول والخير الذى ينتظر الجميع ، احلاما لم يكن هناك من يحلم بها . اقصى ما كان يحلم به أحدهم ، فى هذه الليلة ، هو ان يكون حسابه فى الجمعية التعاونية فى آخر العام بالعدل ، وان يتبقى له من ثمن المحصول ما يكسو به الاولاد ، او ان يمتد دور المياه يوما واحدا

أو أن ينجح ابنــه الذى يتعلم فى مدرســه المركز ، أو أن تلد جاموستـه عجلين فى بطن واحد .

حب الدين يقول لهم ، انه أحب المهندس ، ومن يدري . سم يكون أهله ، من الفلاحين مثلهم . الرجال يدخنون ، يمسك حب الدين غابة الجوزة ، يجلس وسطهم ، تدور الغابة بين الافواه : وكل منهم يمسك بطرفها قبل أن يدسها بين شـفتيه ، تتوهج الجمرات فى حجر الجوزة ، ويخرج الدخـان الازرق من الانوف والافواه كثيفا ، يتلون فى جو العشة ، فيملؤه بالظلال ، التى تحجب عن الرجال الضوء الخافت . ترتفع أيادى الرجال ، تمسح الظلال عن عيونهم ، يحدقون فى بعضهم ، يتأكد كل منهم ، ان الآخرين كما هم أمامه ، يصعد الدخان الى رءوسهم ، يشعرون بالدوخة . وتنفك عقـــدة اللسان . الـكلمات تقال الآن ، لـكنها تخرج كسولة ، كما فى حياة السوالم من الحزن اليومى المتجدد ، حيث يبدأ وينتهى كل شيء بعد صلاة العشاء . ويصـبح الذهاب الى الفراش أمرا له خطورته ، والجلوس فى عشـة سـلسبيله تكلف الـكثير . ظلام الليل يتوج اليوم كله بالحيرة . يوم مر كغيره من أيام العمر ، وقد يمر اليوم بلا عمل ، وبذلك يكون قد سقط من حساب الحياة .

ان فترات الصمت التى تتخلل حـديث الرجال قـد طالت ، وأصبحت الشفاه المزمومة لا يخرج منها سـوى حروف قليلة : الحديث يتناول كل ما فى حياة السوالم الصغيرة . الحديث يدور بين الرجال ، وسلسبيله تنظر الى الرجال بعيون ميتة ، من خلف النصبة ، ونادرا ما تتشارك فى الحديث معهم . حب الدين يتوسط الرجال ، وقد كف عن متابعة حكايته مع المهندس ، غير أنه كان يود أن يقول لهم ان المهندس قد وعده بالعمـل معه ، سواء فى السوالم أو فى بلاد أخرى ، وأنه خير له ان يترك البلد ، فحاله لا يسر أحدا من الناس . غير انه صمت ، جلس ويداه فى حجره : وسند الجوزة الى صفيحة المياه أمام سلسبيله . الحديث بطيء كتيار ترعة ساحل مرقص ، الذى ينساح تحت العشة مباشرة ، والـكلمات مسترخية كما تمضى لياليهم تحت سـماء منقوشـة بالنجوم اللامعة . مثقلة بضباب ليالى الخريف الباردة ، والحمل فى حديث الرجال متثاقلة كتثاقل مرور الحياة فى السوالم .

قبل انتصاف الليل ، قال وردانى ، وكانت تلك أول مرة يتكلم فيها ، منذ ان جلس فى العشة ، ان قلبه غير مستريح لحكاية المهندس ، وانه يقسم للرجال ، من الآن ، ان فى الموضوع شيئا ما ، فى غير مصلحة اهل البلد كلهم ، ان قلبه دليله ، وقلبه لا يخطئه ولا يكذب عليه .

- والله انا عينى الشمال بترف من يومين .

قال وردانى ، ان رف عينه الشمال دليل شؤم ، وانه لن يستريح الا بعد سفر المهندس وتركه البلد . وطلب وردانى من الله ان تمر هذه الايام على خير . فمن يدرى ماذا سيحدث للبلد .

- ومالكو محيرين نفسكو ليه ؟

بكره يرحل ، وترجع ريمه ..

اكمل احدهم حديث سلسبيله ..

- لعادتها القديمة ..

ضحكوا ، وتعالت الضحكات فى جو العشة ، طلبوا من سلسبيله دور شاى يختمون به السهرة . وخلال شرب الشاى ، قالوا لانفسهم ، أنه من المستحسن لهم أن يذهبوا الى المعلم يعقوب . يطلبون منه المشورة ، فهو اقدر منهم على فهم هذه الامور ، قال الآخرون ، لابد من فتح الكتاب ، لقراءة الغيب ، فلا يمكن السكوت على ما يحدث فى بلدهم ، وتمنى بعض الرجال ، لو تمر على بلدهم فى الصباح الباكر الفجرية ، تكشف لهم الاثر ، وتعرف ماسيكون. بعد شرب الدور الاخير . قام الرجال .

- تصبحوا على خير يا رجاله ..

تفرق الرجال فى حوارى السوالم . الليل ينتصف الآن . وفى ظلام الليل ، تبهت المعالم المألوفة ، وتبدو الناس كالاشباح . وتبدو السماء مرصعة بالنجوم . وقد تحجب النجوم غيمة منخفضة كأنها الوسادة فوق الارض ، وتظهر النجوم بين الحين والآخر ، كأنها تغمز غمزات متقطعة خلال الغيمة الرمادية . ويهب على الرجال هواء مشبع برطوبة ليلية . يصل الرجال الى بيوتهم . يتبولون فى الحوارى أمام أبواب البيوت ، يدخلون بيوتهم . وفى الزرائب ، يطمئنون على بهائمهم ، يضعون لها العلف فى المزاود ، وفى حجرات نومهم يخلعون ملابسهم ، ويرتدى الرجل منهم جلبابا قديما على اللحم ينام به . وفى حجرات نومهم ، يقضون اوقاتا

واعشة ، لحظات نادرة ، ينسون فيها كل الاشياء ، يتحسسون الاجساد البضة الناعمة ، يعيشــون لحظات فى حلاوة الشــهد ، يقولون كلمات ملساء ، يشربون رحيق نســـائهم ، يتحسسون بألسنتهم المشققة خدود رفيقات العمر فى رقة وحنـــان . انهم يبذرون فى الارحام أطفالا ، شوهتهم مرارة الايام وقسوتها ، وشكل الصبر ملامح وجوههم .

ذلك ما يحدث فى الليل ، ولــكنهم فى الصباح ...

فى الصباح ، قرر المهندس عصمت ، أن يزور العمدة فى منزله ، ارسل له من اخبره بذلك . فى العاشرة ، اتجاه عصمت الى دور العمدة . الطريق ، الشارع الرئيسى ، الحارات الضيقة ، كل شىء يؤكد معنى الجفاف ، ذبول وجوه الرجال الجالسين على المصاطب بدون عمل ، اختفاء الحطب من فوق السطوح ، أفرع الاشجار العارية ، الجرداء ، كأنها تصاوير الرعب ، تحت الاشجار ، الاوراق الجافة المتساقطة على الارض ، تذكر الناس ، فى كل لحظة ، ان السوالم ، تمر بأيام الخريف . عصمت يسير فى حوارى السوالم بمفرده ، واضعا يده اليمنى فى جيبه الايمن ، ويده اليسرى فى جيبه الايسر . انه يفكر فى مشروعه المقبل ، ويدرك انه وحيد ، وانه سيواجه مصيره هنا بمفرده ، انه يكاد يحدث نفسه ، غير انه يؤجل الموضوع لحين عودته الى الخيام ، وهناك سيدون ، يكتب ، ترتعش الكلمات وتلتوى الاحرف ، ومطلوب منه أن يدون الكثير .

عند الدوار ، كان العمدة وشيخ الغفر ، وحب الدين سرحان ، وبعض الرجال من أهالى البلد ، وبعض الغفر الذين ذبلت عيونهم من سهر الليالى .

ــ نورت الكفور يا باشمهندس .

ــ الله يخليك ياعمدة .

يتبادلان معا كلمات معاده ، تقال فى مثل هذه المواقف ، السؤال عن الصحة ، والحال ، والمزاج ، كلمات يقولها الناس ، عندما يلتقون لاول مرة ، انهم لم يعرفوا بعضهم البعض ، وهذه الكلمات لا تقرب ما بينهم ، ولا حتى تبدد وحشة الصمت ، ولكنها تقال تزحم مساحات الهواء بين الرجال ، تخرج من بين شفاه مزمومة ، وتلقى على وجوه يصيبها الخجل والارتباك .

عصمت يقول للعمدة ، ان التحاليل المبدئية ، لم تؤكد وجود البترول ، ولم تنف وجوده ، وان المسألة مسألة احتمال فقط . قال عصمت ، ان المتبع فى مثل هذه الحالات ان يتم حفر بئر

اختبارية ، قال عصمت بالحرف الواحد للعمدة ، ان هذه البئر صــــــغيرة محدودة ، لا تكلف الشركة كثيرا ، ومن خلال البئر يمكن التعرف على امكانية وجود البترول و كميته ، اى عمر البئر ودرجة جودته .

العمدة لايدرك حقيقة ما يقوله عصمت ، لقد تصور ان السبب فى ذلك الى كلام عادى ، غير ان الـكتب والمدارس . بعد ذلك انتقل عصمت الى كلام عادى ، غير ان العمدة لم يدرك يعنيه هل فهم ، أم لم يفهم ، لم يشعر العمدة الا بشعور واحد ، ان هذا الشاب الغريب يجب مقاومته ، لقد ادرك العمدة ، فى الثوانى الاولى ، ان هناك شيئا ما يموت فيه ، يذبل قبل الاوان ، وهذا الاحســـاس ناتج من انه أمام شيء جديد تماما ، مدهش ، غير عادى ، ممثل فى هذا الشاب الصغير ، الجالس امامه ، يحدثه عن البئر والبترول والتحليلات ، يقول كل هـــذا بكلمات رائعة ، وان لم يكن قد فهمها .

قال عصمت ، انه قد حضر للعمدة ، للتعرف عليه ، لا يهمه موضوع البترول ، بقدر ما يهمه معرفة الرجال . انه يطلب من العمدة أن يعاونه . انه يريد قطعة ارض ، النصف فدان الموجود بحرى البلد ، حيث ان احتمال وجود البترول فيه أكثر ، سيؤجره من صاحبه بشكل مؤقت. وان ثبت وجود البترول فيه ، ستؤجره الشركة بأى ثمن يطلبه . قال ايضا ، انه يريد أن يعاونه الرجال فى العمليات المبدئية فى المشروع بالاجر ، حتى يصــل الى نتيجة ما ، وانه يطلب منزلا للاقامة فيه . فذلك، أفضل من الحياة فى الخيام ، وأنه يطلب غفيرا لحراسة المعدات والخيام والسيارتين. قال عصمت ، أنه يمد يده للعمدة ، كى يعاونه فى المشروع ، دون اللجوء الى الرســـــميات . وانه مطمئن لنتائج المشروع ، قال عصمت ، وهو ينظر الى الحقول ، من خلال النافذة البحرية ، ان نجاح المشروع ، يعنى أن يتغير شكل الحياة فى السوالم ، لسنوات طوال قادمة .

لم يتكلم العمـــدة ، امتدت بينهما فترة صمت ، وكان يتناهى اليهما نهيق حمـــار ، وثغاء حيوانات ، ونداءات خافتة تأتى من الحقول البعيدة ، وصوت رياح خريفية تهب من الحقول الواسعة.

ــ قلت ايه ياعمدة ؟

ــ هيه ، أصل الموضوع .

يقول العمدة ، ان الموضوع خطير ، وانه لابد له من الرجوع الى رؤسائه .

ـ لازم المركز يعرف .

أفهمه العمـدة بكلمات بطيئة ، ان المركز ومجلس القرية فى شبشت الانعام ، والنقطة الثابتة فى تكلا العنب ، لابد وأن تعرف الموضوع ، وأنه سيرسل فى طلب التعليمات من هـذه الجهات . صمت العمدة ، قام من مكانه ، وقف ، تمشى ، حاول أن يبتسم ، وان يقترب من المهنـدس ، جلس مرة أخرى ، وضـع يديه فى حجره ، استراح فى جلسته ، وقال المهنـدس ، انه سيتعاون معه ، وانه يصعب عليه من الآن أى تأخير قد يعترض الامور، قال العمدة بسرعة ، كمن تذكر شيئا ، ان للأهالى رأيها فى الموضوع ، ولا بد من الرجوع اليهم ، قبل اتخاذ اى اجراء ، أما من ناحية وجود منزل خال ، فهذا خارج عن ارادته ، فلا يوجد فى البـلد كلها ، منزل واحد خال ، وان الخيام قد تكون أصلح من البيوت أما من ناحية التعاون ، ومد اليد ، وحسن النية ..

ـ احنا أهل يا باشمهندس .

قال كلاما بعد ذلك ، لم يميزه عصمت ، وكانت طيور الصباح تملأ الفضاء الازرق ، تشق السماء طائرة فى فرح . ان البلد ، يقول العمدة ، فى الحقيقة ، عبارة عن بلدين . السوالم بحرى ، والسوالم قبلى . وانه من المفروض ان يكون للسوالم بحرى عمدة آخر ، غير انه يوكل نائبا له هناك . وانه مسئول عن كل شيء هنا وهناك .

قال العمدة ، ان هذه الايام تختلف عن ايام زمان . فى هـــذه الايام ، يوجد الاتحاد الاشتراكى العربى « أشـــار الى انه الامين العام ، وان الناس هى التى انتخبته وأصرت على ذلك » ، يوجد ايضا ، مجلس القرية ، والنقطة الثابتة ، والعمـدة . أما أيام زمان ، تنهد العمدة ، رفع يده اليمنى ملوحا بها . لم يكمل .

ـ عموما ، احنا هنا ، تحت امرك .

يقف المهندس ، تستريح نظراته على البيوت الترابية التى بدت له ، من خلال النافذة ، يمد يده للعمدة ، يصافحه ، يؤكد له انه سيعتمد عليه بشكل رئيسى . يقول له العمدة ، انه سيكون ذراعه اليمنى ، وانه لا يطلب منه ، سوى ان يسلمها لله سبحانه وتعالى ، وأن يضع فى بطنه بطيخه صيفى .

ـ حد يوصل الباشمهندس يا أولاد ..

فى الطريق ، كان عصمت ، وكان التعب والاجهاد ، والاحساس المحذر بالخوف على اول طريق الوصول . همس عصمت لنفسه ، ان المسألة ، ليست الخوف أو الشجاعة ، كان فى نفسه احساس ما ، ربما لا يقدر على التعبير عنه فى كلمات ، لم يكن يشعر بالاطمئنان ، أدرك انه لم يصل الى ما ينتويه العمدة . ان كلمات العمدة ، وتعابير الوجه ، ولمحات العيون ، والبسمات المرسومة بعناية على الشفاه ، والضحكة الخافتة ، ان كل هذا ، لا يعكس ما فى نفس العمدة . عصمت يتذكر الآن ، بعين خياله ، ملامح العمدة الحادة ، عينيه الصفيرتين ، شعره الابيض ، صدره العريض ، ملابسه ، جلسته ، نظرته من خلال النافذة على البيوت والحقول والناس ، حديثه .

***

فى الدوار ، جلس العمدة بمفرده ، طلب دور شاى ، وطلب ألا يدخل عليه احد . وقف ، سار فى دواره ، وقف بجوار النافذة ، أمسك بحديدها ، وراح يستنشق بملء رئتيه هواء الخريف الجاف ، الذى يحمل له رائحة الارض الشراقى . العمدة يحاول ان يفكر فى موضوع المهندس ، الذى فرض نفسه على حياة البلد ، وهو من البداية يدرك ان الامور بدات تفلت من يده . هذا الطارق الجديد ، المهندس الشاب ، المبتسم دائما فى صفاء ومودة ، الارض الحكومة ، البلد ، الاهالى . العمدية ليست منصبا ، بل هى كل حياته ، كانت حياة آبائه هنا ، ولا بد أن يكون فى نفس المكان ميراث ابنائه . والطريق من حجرة نومه ، حتى كنبته فى الدوار ، سكة فى القلب ، يقطعها مرتين أو ثلاثا كل يوم ، لم يفهم العمدة الامور جيدا ، غير انه استشعر الخطر من مجرد وجود المهندس فى السوالم ، احس انه مندوب اتى قبل الاوان ، لايام لم تعشها السوالم بعد . ومن يدرى ؟

اشارة : من عمدة السوالم ، الى نقطة بوليس تكلا العنب الثابتة ، ومجلس قرية ششت الانعام ، ومركز ايتاى البارود . حضر الينا اليوم ، مهندس من مصر ، واقام خيامه بالناحية ، وقال انه ، حاضر طرفنا للبحث عن البترول ، وقال ان معه التصاريح اللازمة لذلك . رجاء افادتنا ، على وجه السرعة ، عما

يتبع نحوه ، واقبلوا التحية . مبلغ الاشارة ، امضاء . التاريخ ، رقم الصادر .

العمدة ، رغم انه يفك الخط ، ويقرأ الجريدة ، ان اتى بهـا أحد من الضهرية ، فان كل المسائل فى السوالم مرتبة أمامه ، فى الزمان والمـكان ، وجميع مشاكل البلد ، تجد عنده الحل دونما أى مفاجآت ، كل الامور ، تجرى بعمليات حسابية دقيقة . واهل السوالم كلهم ، يتصورون انه يطل على البلد من مكان مرتفع . كان عند العمدة وعى بسيط يضبط به مجرى الامور ، غير انه لم يكن يعرف ما فى الطبيعة البشرية من التردد والاقدام ، الخوف والشجاعة ، القـدرة على كسر كافة القواعد المتعـارف عليها ، العنف ، الخروج عن المـألوف . وعندما كانت تسد كافة الطرق فى وجوه الناس ، فان نشاطهم البشرى ، كان يتحول الى مسارات أخرى . العمدة يريد أن يصرف كل الامور فى مملـكته بنفسه ، غير أن الحياة فى عفويتها ، فى حضورها الدائم ، فى تواجدها بعبلها وقضها وقضيضها ، كانت تكسر أى نظام ، تجعله تخطيطا مجردا من كل محتوى . وعند ذلك كان العمدة ، يقر ، بينه وبين نفسه دونما كلمات ، بهزيمته ، أمام ذلك الشىء الذى لا يعرف له اسما ولا حتى شكلا محددا .

حاشية : الاهالى طرفنا مستاءون جدا من حضور المهندس ، ويقولون لبعضهم البعض ، ان حكاية المهندس لن تنتهى على خير .

الوقت هو وقت الضـحى ، والحاج على الدفراوى ، عمـدة السوالم ، يجلس فى دواره ، وهو يدرك ، انه أمام حادث جديد ، ويدرك أيضا ، ان ما سيقوم به ، لن يجدى شيئا ، وان السوالم الناس والحوارى والبيوت والاشجار والبهائم ، بل والارض من تحتها والسماء من فوقها ، ستفاجئه بشىء لم يقم له أى حساب من قبل .

ملحوظة : المعلومات الواردة فى الحاشية ، لم يقلها لنا أحـد صراحة ، ولـكننا عرفناها بطريقتنا الخاصة .

***

عصمت فى طريق عودته من دوار العمدة ، يسير خلفه خفـير نظامى ، حاول عصمت أن يسير ببطء كى يحاذيه الخفير ، غير ان الخفير أبطأ من سيره هو الآخر ، وعندما تأكد عصمت من عدم

جدوى المحاولة ، توقف تماما ، واستدار الى الخفير ، عند استدارته ، رفع الخفير يده بالتحية فى خوف . ابتسم عصمت ، انه لايريد سوى أن يكلم الخفير ، تنحنح ، ابتسم ، حاول أن يبدد وحشة الصمت ، غير ان ملامح الخفير كانت تنطق بالبلادة . سأله ان كانت الجرائد تصل الى السوالم ، قال له : انها لا تصل الا صدفة ، حاول أن يعرف منه عدد السكان ، واسم رئيس مجلس قرية ششت الانعام ، الرجل لم يكن يعرف الكثير، عند الخيام ، تركه الخفير ، بعد أن حياه ، وسأله ان كان يطلب أى خدمات ، وعاد الى دوار العمدة .

عصمت يقف امام الخيام ، ويمسح الفضاء بنظراته ، ارض فضاء يطفو على سطحها النشع ، فيها اشجار نخل وجميزة كبيرة يبدو أنها عاقر ، المنطقة التى اقيمت فيها الخيام ، مساحة من الارض ، مغطاة بطبقة جيرية بيضاء ، وعلى حدودها ، تنام بيوت ترابية مبعثرة غير منتظمة ، انه يقف متجها ناحية الشرق ، على يمينه ، السوالم قبلى ، وعلى يساره ، السوالم بحرى ، وامامه وخلفه بيوت صغيرة ، تداخلت فى بعضها البعض ، وعلى مرمى البصر امامه ، زاد النشع ، فتحول الى بركة صغيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الداكنة ، سماء خريفية شاحبة ، كنست الرياح السحب منها ، فبدت مغسولة صافية ، وعكست مياه الترعة فروع الاشجار العارية . احيانا ، كانت تنزل بطة صغيرة فى الترعة ، فيثير نزولها تموجات فى المياه ، فتتكسر صور الاشياء ، تطول الاشجار ، تتموج السماء فى ليونة ، تقصر البيوت ، تتكسر اشكالها الخارجية على صفحة المياه .

عصمت يتقدم الى الخيام ، زملاؤه جالسون ، يتمتعون بشمس الخريف ، الموشاة بذكريات الصيف الماضى . ظله واضح على الارض خلفه ، وهو يتقدم ببطء الى الخيام . وعلى البعد ، تحدق العيون الصغيرة فيهم . عصمت يخلع نظارته ، يمسح زجاجها ، يمسكها بيده ، يمسح عينيه بمنديل أبيض ، يفركهما ، يحدق فى قرص الشمس بدون نظارة .

فى الخيمة ، جلس صامتا ، شرب الشاى ، استراح قليلا، جلس على مكتبه المتنقل الصغير ، اخرج ورقة بيضاء ، أمسك بقلمه بين أصابعه ، ادرك ان الحال ليست على ما يرام ، وانه خائف ،

وأن الشجاعة مسألة نظرية ، جلس كي يكتب تقريره اليومي عما تم انجازه من خطوات المشروع .

السوالم ، بحيرة ، في . تقرير للعرض على السيد . مقدم من المهندس . المشرف على مشروع .. وفي صباح الغد ، سيضعه في مظروف مغلق . سري وعاجل جدا . يرسل الى المقر الرئيسي للشركة في مصر

معلومات مبدئية : فى الزمان القديم ، كانت البلد ، عبارة عن عدد غير معلوم من الكفور ، قيل عشرين كفرا ، وقيل اقل ، وقيل اكثر ، الله أعلم ورسوله . كان اسمها ، كفور السوالم ، وبمرور الزمان ، ومروره يفعل دائما بالحياة والناس كل شىء ، تحولت الكفور الى تجمعين ، سمى احدهما ، وهو الذى الى ناحية الجنوب ، السوالم قبلى ، وسمى الآخر ، وهو الذى الى ناحية الشمال ، السوالم بحرى ، واصبح من المتعارف عليه ، ان لكل منهما حدودا فاصلة ، ولكل من البلدين أرضه وعمدته ، وجمعيته التعاونية . غير ان المدرسة الابتدائية كانت واحدة . لا يوجد فى السوالم سوى عمدة واحد ، الا أن لكل بلد منهما شيخ خفر وخفراء مستقلين عن البلد الآخر ، ولكل بلد منهما حجرة تليفون ، شرقى السوالم مباشرة ، ترعة ساحل مرقص ، وهى ترعة كبيرة ، شرقى الترعة ، طريق زراعى واسع ، شرقى الطريق الزراعى ، بلدة اشليمه ، يربط السوالم بالطريق الزراعى واشليمه جسر عريض . غربى السوالم ، طريق صغير ، يتسع لمرور سيارة بالكاد ، يوصلها بششت الانعام ، والطريق الزراعى ، يوصل السوالم ، جنوبا بدميسنا وكفر عوانه ونكلا العنب . وشمالا بالضهرية والتوفيقية ، حيث الطريق السريع .

يقول اهالى البلد ، ان هناك «شيخ قديم» ، سيدنا الغريب، قد كتب كتابا كبيرا ، سماه « مدونة تاريخ السوالم » عاش حياته كلها للعبادة والصلاة ، ولمحاولة معرفة كل شىء عن البلد ، ملأ عينيه بالبيوت والاشجار والناس ، وشنف أذنيه بكل ما يقال ، قرأ الكتب ، حادث الناس ، سمع وقرأ الكثير . يقول المسنون من اهالى البلد ، ان سيدنا الغريب ، كان يبدو للناس فى آخر ايامه ، مهلهل القلب والجسد واللب ، ساهما مفكرا ، مدونا كل ما يراه . يختم الاهالى حكاياتهم ، بالاسف لضياع الكتاب ، وطلب الرحمة لسيدنا الغريب حيث يرقد الآن ، ويحاول كل منهم أن يتكهن بما فى ذلك الكتاب العظيم .

سيدنا الغريب ، يذكر المسنون هذا ، كان يتغنى فى خلوته ، يرتفع صوته الحلو ، يجرح صدر الليل ، تبعثره نسمات الهواء ، تتناقله الاسماع . انصت يا قلبى ، وانع الارض التى نشأت فيها ، لقد اصبحت البلاد حزينة ، فلا من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف الدمع عليها ، فأية حال تلك التى عليها البلاد . انصت يا قلبى ، وانع الارض التى نشأت فيها .

يقول الناس : يرحمه الله .

الصورة العامة : ترعة كبيرة ، تنعكس على صفحة مياهها الزرقاء الصافية ، بيوت ترابية متناثرة ، بدون نظام ، وبين البيوت ، حارات صغيرة ، تصعد مرتفعة بالتدريج الى قلب البلد، وسط البيوت ، تتناثر أشجار جميز وتوت ونخيل مرتفع ، من يقترب من الترعة وتكون المياه مستوية السطح ، يستطيع أن يشاهد بعض البيوت ، التى تخرج على المألوف ، بيوت مطلية بألوان زاهية ، طليت فى مناسبات يذكرها الناس ، حج ، زواج ، شراء ارض ، وعلى هذه الالوان ، رسومات صغيرة ، سفن ، جمال ، ست الحسن والجمال ، الشاطر حسن ، أبو زيد الهلالى، الزناتى خليفة ، يرسمها لهم رجل مبيضاتى ، يأتون به من ايتاى البارود ، من اجل ذلك خصيصا . بعض البيوت ، مبنية من دورين ، ويقول الناس عنها ، انها مبنية بالمسلح . فى هذه البيوت ، أبراج حمام صغيرة . وخلف الصورة ، اعمدة واسلاك تليفونات . وفى ركن من الصورة ، مبنى يبدو فوق جميع البيوت ، كأنه يطل عليها ، انه صهريج المياه ، الذى يمد حنفيات البلد ، الموجودة فى الحارات والشوارع ، بالمياه النقية ، للشرب فقط . فى منتصف الصورة ، فضاء صغير ، يفصل البلدين ، انها ارض الوقف ، التى لايملكها احد ، بجوار ارض الوقف ، تبدو فى الصورة مئذنة عالية ، مبنى أصفر قاتم ، مطفى اللون . تلك هى الصورة العامة . وعندما تنزل فى مياه الترعة ، ساقين رائعتين لامرأة تملأ جرتها ، أو رجل يعوم عابرا الترعة ، فان تموجات المياه ، وانكساراتها ، تعجن البيوت والصهريج والمئذنة والاشجار . البلد ، تكون شكلا جديدا ، بعدا آخر أمام العيون ، المرئيات تعود الى شكلها الاول ، بعد أن تهدأ مياه الترعة . تنساح المياه متجهة ناحية الجنوب فى بطء مهاجرة فى الزمان أبدا . وتبدو الصورة ، البيوت والحوارى والناس ، مغسولة بالحنين . نظيفة ، ملفوفة

بالشهد ، أحلى من قطر الندى .

خلفية الصـــــــورة : اراض زراعية . مساحات لا نهائية من الخضرة ، وسطها طرق ومسارب ومدقات ترابية اللون ، أشجار عالية ، مدارات «سواقى» فى الشمال طريق صغير ، يرتفع حتى يصل شُشت الانعام ، وسط الحقول الواسعة ، رجال نائمون ومواش تأكل فى مزاود صـــغيرة ، اخصاص من الحطب الجاف ، نصبت وسط الحقول ، للمبيت فيها وقت جنى المحصول ، بيوت قليلة بناها فلاحون تركوا البلد ، لسبب أو لآخر ، وفضلوا الحياة فى الحقول الواسعة . جنوبى الصورة كوم مرتفع ، تظهر منه عيدان الحلفاء النامية ، لونها أخضر ، خضرة رصاصية ، يتناثر التراب عليهـــا . وسط الحلفاء شـــواهد قبور ، وفى الركن الايمن دوار مرتفع ، مدفن عائلة الدفراوى ، باقى القبور تتناثر على الـكوم كله ، فى غير نظام ، ثمة طريق مهمل ، غير مطروق ، يصل المدافن بالبلد .

عن الالوان : اللون الرمادى ، لون تراب الارض ، ومعظـــم البيوت يمتزج بلون أخضر رصاصى غامق ، يلتقيان معا عند خط الافق الغربى ، بلون أزرق ، صـــافى الزرقة ، اون السماء . فى الوسط الوان اخرى ، اصـــفر باهت ، احمر وابيض ، غير انها لا تشكل خروجا على المـــألوف من الالوان العامة للصورة .

يدون تحت الصورة ما يلى : الناس هنا طيبون يملـكون شيئا ما ، قدرة خاصة ، انهم عندما يضعون اقدامهم المشـــققة على الارض الشراقى ، ويشقون بطنها بسن المحراث ، فان الارض تبوح لهم بسرها ، ومن رحم الارض ، ينتزعون السر ، كل رجل يملك فى داخله بذرة ما ، احســـاس معين ، يدهش الارض ، يجعلهـــا تصرخ دافعة ما فى رحمها الى الناس . تكتب لـكم من احد منازل السوالم ، المنزل يقف على رأس الشارع الرئيسى كالحارس الليلى اليقظ ، الشارع يمتد قاسما السوالم الى نصفين كالنهر الـكبير ، وعلى شاطئيه ، تنبت الحارات الضيقة المرتفعة على الجانبين ، مثل العروق على ورقة شجرة التوت ، وفى ارتفـــاع الحارات ، تتكور البيوت الطينية ، ومن جوفها ، تطـــــل العتمة والبرودة والانكماش والانطواء . وفوق الاسطح ، الحطب وصوامع التخزين والنساء والاطفال والشيوخ . وفى ساعة العصارى ، تدور العيون فى المحاجر ، تمسح الحارات والحقول والسماء الخريفية الصافية

من اجل هؤلاء وعنهم . نثبت فى أوراق زماننا هذه الكلمات

فى السوالم صمت ليلى ملىء بالمرارة والانكسار. رجال مكسورو القلوب ، يلعبون السيجة وقت الغروب ، ويشربون الشاى المر ويدخنون المعسل فى عشة سلسبيله على الله . هنا رجال يتكلمون فى السياسة . ولا يأكلون اللحم الا فى المواسم والاعياد ، وينامون على الارض ، يربون المواشى والدجاج والطيور كى يبيعونها يوم السوق من كل أسبوع . ويبيعون البيض واللبن والسمن. الرجال هنا . يحملون فى جيوب الصديرى ، محافظ خالية من النقود . فيها ايصالات مكتوبة ، موقعة منهم ، بطلب سلفة من الجمعية التعاونية ، لم يحصلوا عليها بعد ، ومعلق فيها أختامهم الصفراء الصدئة .

فى السوالم ، أبناء ليل ، شبان بلا عمل ، يسرقون ويقتلون ، ويحلمون بفتح بيوت لهم ، وبالتوبة ، لا يظهرون بالنهار، ويملأون الليالى بالخوف والقهر والرعب ، يجرون فى الحقول ، تدوس اقدامهم فى قلوب الرجال ، وأهالى السوالم يشفقون عليهم ، رغم كل ما يحدث منهم فى الليالى الطوال ، ويحاولون أن يجدوا لهم العذر ..

فى السوالم ، سوق واحدة ، تقام يوم الخميس فى الشارع الرئيسى وفوق الجسر ، يتخفف الناس فيها مما عندهم بالبيع . فى يوم السوق ، يذهب الكثيرون ، يلفون السوق ، يملأون قلوبهم بالرغبة فى كل ما يباع ، اليد قصيرة والعين بصيرة ، يعودون كما هبوا ، جيوبهم خالية ، وصدورهم قد فاض بها الصبر ، يعزون انفسهم بأن يقولوا انهم اما حضروا للبحث عن طلب لم يجدوه فى كل انحاء السوق، واما انهم حضروا للفرجة فقط

والصمت أكثر من الكلمات فى افواه الرجال . قاموس حياتهم شحيح . فقير . نادر المفردات ، الحوار يبدأ بالصمت ، صمت جياش زاخر بالاسى . الصبر صبر ايوبى ، انه ليس صبرا ، بل نوع من الخضوع للعالم الخارجى والناس والاشياء . فى صناديق النساء القديمة . ايصالات بمبالغ اقترضها الرجال بالربا من اغنياء البلد ، فى انتظار جنى المحصول . فى الصناديق عقود زواج قديمة ، شهادات ميلاد الابناء الصغار ، صور باهتة المعالم لافراد من الاسرة ، تركوا البلد . وسافروا الى البنادر القريبة . هنا أرض خصبة ، سماء صافية ، وهمسات راجفة فى القاعات

الواطئة ، ويقظات حارقة فى الليالى الشتوية الناعسة . فى قيعان انحارات ، وهنا فى السوالم ، آمال ملساء ، ناعمة ، تنسجها الشفاه ، وترسمها العيون . بأن النهارات الرائعة ، لابد وأن تأتى الى السوالم ، مع مجىء الربيع القادم .

الرجال ينامون ، يتمددون على ظهورهم ، يطالعهم فى نومتهم السقف والخشب والبوص والسناج الاسود الذى يغطى الكل . الرجال يفكرون وهم نيام ، فى الذهاب فى صباح الغد ، الى من يكتب لهم شكاوى موجهة الى جهات متعددة ، وفى قيعان محافظهم انجلدية الحائلة اللون ، أوراق دمغة اشتروها فى ساعات رخاء نادرة ، وحفظوها من أجل هذه الشكاوى ، انهم يفكرون فيمن ستكتب لهم الشكاوى ، وستكتب ضد من : العمدة ، شيخ البلد ، شيخ الخفر ، معاون الجمعية التعاونية ، أمين شونة بنك التسليف الزراعى فى كفر عوانه ، مقاول الترحيلة ، ناظر المدرسة ، معاون البوستة ، يحركون السنتهم فى أفواههم ، يدركون انهم قد اصيبوا بالخرس . فيقررون الذهاب صباحا الى فتحى سالم . وهناك ، يصفون له ، بكلمات منكسرة ، ما آلت اليه الحال ، ويجلسون على الارض . بجوار مكتبه ، يطلبون منه أن يحشى الشكوى بكلمتين من عنده ، يفلون الحديد ، ينصت فتحى سالم الى كلامهم كله ، وهو صامت ، ثم يشمر أكمامه . ويحرك شفتيه وينظر ناحية السقف ويكتب .

فى المسجد ، يصلى الشيخ محمود بالناس . ويخطب يوم الجمعة ، ويجلس فى مقام سيدى الغريب ، يفتح الكتاب ، يقرأ الغيب ، يكتب الوصفات البلدية للمرضى ، وصفات بسيطة ورخيصة ، وعندما ينزل بالناس الكرب والضيق ، فانهم يذهبون اليه .

ـ والنبى ياسيدنا .

ينذرون النذور ، ينفذون ما يطلبه منهم أملا فى الشفاء . عباد الله ، يا ريحة الدنيا ، يا أهل هذا الزمان ، لقد رأيت ، ليلة الامس فى المنام ، رؤيا عجيبة يا تراب الارض ، وملح السماء ، تعالوا نمزق بالكلمات آلام هذه الايام ، استمعوا الى يا أبنائى ، فى ساعة العصارى ، يذهب اليه الرجال ، يحكون له احلامهم ، ما رأوه فى المنام بالليالى ، كى فسرها لهم .

ـ شوف ياسيدى ، اللحمه فى المنام خير .

فى السوالم . سكر . امرأة مجروحة القلب والجسد . تملأ الليالى بالدموع . تخطو ساعة الغروب فى الحوارى . فوق الجسد اللدن ملابس مبلولة بالحنين . تجففها نظرات الرجال . ألف ألف نظرة تنزلق فوق أسباب الظهر . وتستقر فى الردفين . انها راضية بما قسم لها . اللهفة والحزن والحنين والجنون والعزاء : انه هنا . فى حوارى السوالم وبيوتها وحقولها وناسها . بحر كبير. بحر الخلاص . بحر يغسل آلام الليل والزمان وذكرى عطفة باب الوداع وعصمت والشاب المنتحر .

تمر بالسوالم أحيانا غجرية ، امرأة سمراء ، طويلة القد ، متينة البنيان . مصبوغة الشعر واليدين والقدمين بالحناء . مزدانة الوجه بالوشم الاخضر . الست محروسة . تقرأ الودع الرجال . تجلس. يلتفون حولها فى نصف دائرة . وفى المنتصف . تفرش الرمل . وفوقه الزلط . يدفع لها الرجال قروشا ممسوحة المعالم .
— وشوش الدكر .

يذكر الرجل اسم ابيه . يدوس على الحروف ببطء . يكمل الرجل بخجل ريفى اسم أمه . تتكلم الغجرية . تستخرج لهم من رحم الغيب أحلاما كثيرة .
— قدامك نتايه وبتشاغلك . وعايزاك .
— هبه فين بس ؟

تتحدث الغجرية . عن أيام عصيبة قادمة . وعن مخلص . نبى جديد . سيظهر فى البر . يجمع الشمل . وينشر العدل . تتحدث الست محروسة عن الوقاية من عين الحسود والستر . وسكة السلامة وسكة الندامة والسفر الى بلاد بعيدة . والعودة من هناك بكل ما يشتهى الانسان . وزيارة قريبة يقوم بها للبلد أناس طيبون . يغيرون حياة السوالم .

فى السوالم . رجال طيبون . يصلون ويصومون . ويزكون عن النفس والاولاد والارض والمال . يطيعون الله ورسوله وأولى الامر. ويحلمون بيوم يأتى فى مستقبل عمرهم . يستطيعون فيه الذهاب الى بلاد الحجاز ؛ وهناك يمسكون بحديد الشباك . ويهتفون من اعماق القلوب ؛ اجرنا يارسول الله .

فى السوالم . أغنياء قليلون . وفقراء كثيرون ؛ ظالمون ومظلومون. رجال يملكون مساحات من الارض . ورءوس من الماشية . وبيوت

نظيفة ورجال لا يملكون سوى اجسادهم وقلوبهم الفارغة . وهنا ايضا ، قصص حب ، حكايا يقولها . الرجال فى الحقول ، أحلام منحوتة من جدب ايامهم ، وسفرات نادرة الى البلاد القريبة وسهرات قليلة ، لحظات نادرة مختلسة من عمر الزمان .

نعتذر نحن الموقعين على هذا التقرير ، عما سنقوله الآن . لايوجد فى السوالم ، قبلي او بحرى أو اشليمه أو دميسنا ، دكتور واحد ، او مستشفى ، او حتى ممرضة ، لا توجد مدرسة اعدادية ، ولا سلك كهرباء ، لايوجد تليفون ، سوى تليفون العمدة ، وهو تليفون اميرى ، لايوجد وابور حرث ولا سيارة ، لا تصل الى هنا جريدة صباحية ، تحمل اخبار العالم وما يحدث فيه .

مرة اخرى . نعتذر .

ارقام واحصائيات هامة : فى السوالم ، قبلي وبحرى ، خمسة عشر الف نسمة ، ويتبع زمامها حوالى خمسة آلاف فدان . فى السوالم ، مسجد واحد ، هو مسجد سيدى الغريب ، وولى آخر من أوليــاء الله الصالحين ، لم يبن له مسجد بعد . فى السوالم ، «سواقى» كثيرة ، بناها الناس بالمشاركة. هنا ، طنابير، خلايا نحل ، ابراج حمام ، اشجار جازورين وصفصاف ونخيل ، للسوالم اربعة طرق توصلها بالعالم الخارجى ، بها شارع رئيسي واحــد ، دكاكين للترزية البلدى ، بقالون ، أهمها دكان المعلم يعقوب ، تجار حبوب ، جزماتية ، حلاقون ، سمكرية ، جزارون. أما باقي ما يحتاجه البلد ، فيجده الناس فى يوم السوق من كل أسبوع .

بقايا كتابات اثرية ، وجدت على الواح قديمة ، بجوار ساقية مهجورة :

« ان المبصر قد غشى بصره ، والمستمع قد صم ، وذلك الذى يجب ان يكون مرشدا ، اصبح مضللا » .

« كنت اتكلم فى قاعة العدل ، بفم فصيح غير هياب » .

« وقد طفح كيل عذابى ، وفاض بحر آلامى ، وهو ذا يتدفق من فمي ، أنينا وشكوى » .

اما الفلاح فحسابه مستمر « اى ان صاحب الارض يطالبه دائما بتأدية ما عليه من ديون » الى الابد ، وصوته أعلى من صوت

آبو « دائما يشكو » . وهو كذلك ، اكثر تعبا مما يمكن التحدث به ، وحالته كحالة الذى يعيش بين الاسود، وهو فىغالب الاوقات مريض. وعندما يعود الى بيته فىالغروب، فانالمشى يكون قد مزقه اربا « اى ان طول الطريق بجهده اجهادا كبيرا ، فوق ما يلاقى من التعب خلال اليوم » .

السفر في الليل

السوالم بحيرة ..

الاثنين ٥ اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

كانت السيارة تسير بنا على الطريق الزراعى - مصر اسكندريه الاشجار واعمدة التليفونات والبيوت والمزروعات تجرى فى سرعة الى الخلف ، أسلاك التليفونات تبدو مشدودة . تسترخى وسط الاعمدة . تقف عليها الطيور التى لم تهاجر بعد ؛ ناحية الجنوب . يدور خط الافق البعيد ، بخضرته الباهتـة ، فى نصف دائرة . مركزها السيارة ، تجرى النباتات المرتعشة الى الخلف . بجوار الطريق ، رياح صغير ، به ميـاه راكدة ، تجمعت بها قاذورات الحياة اليومية ، حطب ، جثث ، حيوانات طافية ميتة : نباتات مهوشه ، نساء يغسلن ملابس أولادهن ، بهائم مربوطة بجوارالرياح

عند التوفيقية ، توقفت السيـارة ، انعطفت فى طريق جانبى منرب ، متجها ناحية الجنوب ، يرتفع الطريق مبتعدا حتى الافق البعيد ، يتحول فى نهاية الامر ، الى نقطة ترابية ، تتوه وسـط الاشجار . على الطريق الزراعى ، التراب والمطبات والفلاحين فى حقولهم . قلل السائق من سرعته ، غربى الطريق ، ترعة سـاحل مرقص ، وعلى الشاطىء الآخر من الترعة ، كان ينعكس على مياه الترعة ، نساء يملأن الجرار ، ويغسلن الاطباق والاوانى. النساء فى لحظة مرور السيارة عليهن ، يخفين مفاتنهن البيضاء بملابسهن يدرن الوجوه الى الناحية الاخرى ، يتهامسن بكلمات لينة. رفعت عينى ، فى الحقول البعيدة ، الرصـاصـية اللون ، الخالية من الخضرة الزاهية . كان هناك فلاح ، مقوس الظهر ، يبدو العين صغيرا ، يغمس يديه فى الطين ، بحثا عن شيء ما فى الارض تحت قدميه .

خلال سيرنا ، مررنا بكنيسـة الضهرية ، ثم ظهر لنـا مئـذنة مسجد ، ومبنى حكومى ، وبرج حمام ، وأسلاك تليفون ، وصهريج

مياه ، عرفت انها الضهرية ، اكبر قرى الناحية . المباني تقترب ببطء ، وبعد مرورنا بالضهرية ، البيوت المتناثرة ، والعزب الصغيرة ، تبدو متباعدة ، ضئيلة ، وسط الحقول الواسعة . السوالم واشليمه ، تقتربان ، الطريق يقبل علينا ، حيث تتهادى السيارة عليه. عند الجسر، نصبة جزار، ومصلى صغير، وشجرة صفصاف تحتها دكة وبجوارها مبنى ، حيث ينتظر المسافرون السيارات .

الغروب ، نسمات الخريف ، تهب علينا مشبعة برائحة المساء والجفاف والجدب . السيارة تجرى ، وعيناى تسرحان على الطريق ، الطريق يتلوى أمامنا ، ثم يستقيم ، يقبل على السيارة فى سرعة هاجمة ، تعبره ، يرتمي الى الخلف ، دائخا ، مسترخيا ، بليدا . المشروع ، هو أول عمل أقوم به بعد التخرج ، أفكر فى كل شيء دفعة واحدة ، لا أستطيع ان اثبت فى ذهنى شيئا محددا ، الامور متداخلة ومختلطة وقد فقدت أشكالها الحقيقية . لحظات قليلة من عمر الانسان ، يشعر فيها ان حياته لا تخضع لأى منطق ، بل قد يشعر بأن ما يعيشه ، شيء غريب ونادر ، ويبدو العمر كله حلما قديما ، يغشوه الضباب . الفساتين القصيرة مساحات اللحم الابيض ، السيقان والافخاذ ، البسمات التى تقطر صفاء ومودة ، الاحلام والرؤى المستقطرة من أعماق الحرمان اليومى ، استقبال الحياة فى قرية صغيرة ، نائية ، بعيدة ، منسية شمال اسوان ، البلاد الحارة نهارا ، الرطوبة الثلجية طوال الليل ، الليالى الدافئة فى عمق الشتاء ، الحياة مع العقارب والثعابين فى حجرة واحدة ، الدماء الحارة النافرة فى العروق ، الجلد الاسمر المحروق من الشمس ، الجلد فوق العظم ، والعظام أشواك ، والاشواك طريق نقطعه كل يوم ، ذهابا وعودة الى بلادنا الحارة . السفر شمالا ، الهجرة مع مياه النيل ، الترجرج مع ارضنا النازلة نحو الشمال ، تلاوة صلاة الاستسقاء خلال السفرة الاولى وفى بلاد الشمال ، البرد والهواء الشتوى وموجات البحر العالية.

شوارع الاسكندرية الليلية المغسولة بالحنين ، البخار الخارج من الافواه مع الكلمات . كانت الموجة طولها ستة أمتار طوال ليلة امس . الحياة مع اسرة غريبة ، السكنى بمفردى فى الحجرات الصغيرة المؤجرة ، التكلم منفردا معظم الوقت ، اليقظة الحارقة فى ليالى الاسكندرية الباردة . وضعت قلبى ، الرؤى المرتجفة ،

الاحساسات الراعشة ، فى خطاب ازرق معطر، ارسلته الى هناك ، الى قريتى . قلت فيـه كلاما عن الحزن الليـلى ، المستقبـل ، المذاكرة ، الرغبات المعششة فى الاعماق ، الصـمت والـكلام ، الخوف والشـجاعة ، عانقت فيه التوق والهمس واللهفة والحزن والجنون . قلت ان فى الاعماق رؤى مريضة ، أحلاما مهوشـة ، فكره لم تتحدد بعد عن القهر والموت . اخبرت أبى ، ان السعادة والايام الخضراء التى لم نعشها بعد ، هناك ، حيث كنـوز الملك سليمان ، موضوعة فى صندوق ذهبى . والصـنـدوق فى أعماق سابع بحر تحت الارض . قلت اننى بعد التخرج سأصنع سفينة من ورق الاحلام . أملأ شراعها بالوهم . أبحر بها بعيدا ، وهناك سأبحث عن كنوز الملك سليمان . الاسرة الصدئة . الضحك ثم الضحك بلا سبب واضح فى الطرقات الخالية ليـلا ، الحيطـان الـكالحة ، الاجساد المتكورة الصفراء ، حسابات الربح والخسارة البيع و لشراء . الحوالة البريدية أول الشهر ، التردد على مكتب البريد أكثر من مرة للسؤال عنها . ادفعوا للسيـد/مبـلغ وقدره مليم . جنيه فقط . أقدم لك الباشـمهندس عصمت فهمى النجعاوى ، أهلا يا افندم . تشرفنا ، انا سعيد بمعرفتك الليلة ، خلينا نشوفك بعد كده .

الشـــوارع المبطنة بالناس ليلا ، العيون المتطلعة من داخل السيارات المغلقة ، النوافذ والشرفات ، الشفاه المثقلة بالطـلاء . الرموش لسوداء الطويلة ، أهلا سـاوى . تعرفى يامدموازيل . يتحول الليل الى أغنية عن الهوان والقهر . السهر حتى الصباح . الليـل متاهة متجددة ، وأول قطرة ضوء بحر الخلاص ، النوم والراحة والاستيقاظ فى الصباح والعظام مدشدشة ، والرأس مثقل بالصداع ، العيون المتعبة ، حولها هالات من السواد الازرق. قال أبى : ان نجاحك نجاح لنا كلنا . رأيت الذين لايملـكون ، والذين ينامون دون عشاء ، والذين لم يبق فى حياتهم سوى الاحلام وحديث النفس ولهفة ما بعد الاوان . فقلت لنفسى ، ان بلدنا تأكل أبناءها ، أقسمت لنفسي ذات ليلة ، اننى لن اعود الى قريتى الصغيرة ، الا ومعى الشهادة ، وقررت لصديقى ، ان التعليم والاسـتذكار والنجاح ، هو عصمتنا الوحيدة تجاه الفقر الذى خلفناه وراءنا . قال أبى فى احدى رسائله الىّ انه صبح مهددا ببيع قطعة أرض. قال أخى الاكبر الذى لم يكمل تعليمه ، بسبب ظروف خاصـة

بالعائلة ، انه لم يتمكن احد من العائلة ، من ان يخوض معركة ما ، وانهم يعيشون فى دائرة الانحناء ، وان رءوسهم تقترب من الارض، يوما بعد يوم ، وان أقدامهم قد التصقت بالارض ، أكثر من أى يوم مضى . قال أخى : ما من معركة ربحها أحد ، بل ما من احد قدر له يا عصمت أن يخوض معركة ما . التنزه فى التذكارات المنسية ، محاولة الغزل من جذب الايام أشياء بسيطة وساذجة . التخرج ، الفرح بالنجاح ، الحصول على بكالوريوس الهندسة . مبروك . يصل ويسلم ليد السيد الوالد . البحث عن وظيفة ، القيام برحلة يومية ، بلا نقطة ابتداء وبلا هدف فى الوصول الى نقطة انتهاء ، السؤال والجواب ، قراءة جريدة الصباح فى ثلاث ساعات ، التعليم بالقلم الاحمر فى أكثر من مكان فى الجريدة ، كتابة خطابات رقيقة مهذبة ، ايماء الى الاعلان المنشور فى جريدة . العدد . الصادرة بتاريخ . فى الصفحة رقم . العمود رقم .

بشأن طلب وظيفة . يسرنى أن أقدم لكم هذه البيانات ، الرحيل الى القاهرة ، جمع الحقائب والذكريات ، الاخفاقات الصغيرة ، الاحلام التى لن تتحقق أبدا ، الانتظار ، محاولة تمزيق لحظات الانتظار بالاحلام والكلمات والتسكع ، قراءة صفحة الوفيات ، متابعة ما يجرى فى البلد باهتمام بارد ، العثور على عمل مناسب فى احدى الشركات ، ارتداء ملابس نظيفة ومكواه ، السير فى الشارع فى السابعة والربع صباحا ، المقابلات ، الجلوس على مكتب ايديال فى الدور العاشر فى احدى عمارات القاهرة العالية « ولا ينقصنا الآن سوى مشاهدة رؤياكم الكريمة » ذات صباح ، أعطانى رئيس قسم المتابعة ، خطوات احد مشروعات الشركة فى محافظة البحيرة ، كان المشروع لم ينته بشكل نهائى .

كان مؤشرا عليه « للدراسة والمتابعة واتخاذ المناسب من الاجراءات ، وعرض » . من خلال دراساتى للخرائط البترولية ، وتقرير لجنة المشروع السابق ، توصلت الى نتيجة مبدئية ، انه من المحتمل وجود بترول على بعد معين من مكان المشروع السابق. المشروع السابق كان فى منطقة حوش عيسى ، محافظة البحيرة . كانت اللجنة المشرفة على المشروع ، قد تركت خرائط لمصيدة بترولية احتمالية ، ومجموعة أخرى من الاستنتاجات . رحت أدرس المشروع بعناية ، كان الفراغ والملل قد اكلا ذهنى ، رحت اقرأ الوصف الخارجى للمنطقة . لم يكن هناك نضح زيتى ، أو

مظهر غازى ، وهما أولى علامات وجود البترول ، وقلت لنفسى ، ان الظروف التركيبية لطبيعة الارض ، دليل اكثر على وجود بئر اقتصادية ، بحثت فى التقرير ، عن مسير تاريخى لتكوين طبقات المنطقة ، فتذكرت ان انسب اماكن لتكوين البترول ، هى الخلجان البحرية الضحلة حيث يكثر ترسب المواد العضوية تحت ظروف غير هوائية ، فلا تتأكسد فى مثل هذه الخلجان ، المحمية الفقيرة فى الاوكسجين ، ونتوقع بذلك ، أن تتكون صخور المصيدة البترولية النموذجية ، ويتكون البترول على شكل مصايد ، انتهيت من دراساتى الى نتيجة هامة ، لو ثبت وجود منطقة مائية واسعة فى هذه الناحية فى قديم العصور ، فاحتمال وجود البترول قائم خلال كافة دراساتى ، التى تمت بعد ذلك ، تأكدت من أمر واحد بشكل مبدئى ، احتمال وجود بترول فى بلدة اسمها السوالم ، فى مكانين بالسوالم . اخذت خرائطى ، عرضت كافة الخطوات والنتائج على الشركة .

صراحة ، فرحت بعد هذه الاكتشافات المبدئية ، وتحمست للمشروع ، قررت أن أبدأ بعد زيارتى الاولى للسوالم ، وأنا فى الطريق الى القاهرة ، تصورت شيئا ما ، احساسا بسيطا وساذجا ولكنه جعلنى اهتم بالمشروع . تصورت ان الناس فى السوالم ودميسنا واشليمه والضهرية وششت الانعام ، موتى ، غير انهم يتحركون ، يروحون ويجيئون ، يضحكون ويبكون ، انهم راضخون مستسلمون للسماء العالية ، والارض السمراء والترعة والطريق الزراعى ، وما يقوله الراديو وما يفعله الخفير وشيخ الخفر ، وصوت السيارة التى تعبر بلدهم بسرعة ، والطائرة التى تشق الفضاء متجهة ناحية الجنوب وقت اذان الفجر ، لما يشيعه الناس القادمون من البنادر البعيدة من اشاعات عما آلت اليه الحال . قلت لنفسى : هؤلاء الناس فى انتظار حدوث معجزة ما ، تهبط من السماء ، أو تخرج من جوف الارض ، أو تأتى من البنادر البعيدة النائية ، الناس تعيش ، تمر بها الايام والليالى والشهور والسنوات الطوال ، فى انتظار حدوث هذه المعجزة .

تمثلت فى خاطرى ما يقولونه عن سيدى الغريب ، وكتابه الذى ضاع ، كما يضيع عمر الرجال هنا ، فى انتظارهم لظهور نبى مخلص جديد ، يظهر فى البلاد .

فى الصباح ، فى السادسة والنصف صباحا ، صحوت من نومى ،

خرجت من أعماق سريرى ، ذهبت الى دورة المياه ، وقفت فى الحمام ، المياه تنزلق على جسدى فى كسل . خرجت . ارتديت ملابسى ، وقفت أمام المرآة . لم اتناول افطارى . كان فى اعماقى نوع من الفناء الذى لم أجربه من قبل، اعددت حقيبتى ، وضعت فيها غيارات داخلية ، كتبا ، مراجع علمية ، دواوين شعر بين اسطرها فضضت بكارة الاحلام الاولى ، ورقا أبيض ، خرائط بترولية ، أدوات هندسية ، رسومات ، مذكرات قديمة ، تأكدت اننى اغلقت النوافذ والابواب ، وصنبور المياه ، ونزلت .

فى الشارع العريض ، بين ضجيج السيارات ، رحت اتغنى بمقطع من اغنية حب قديمة ، وقلت لنفسى : اننى فى مكان ما . ربما لا وجود له على خريطة مصر . سأبدأ تجربتى الاولى ، مع اناس لا اعرفهم . فى مكتب المدير سلمت عليه ، شربت الشاى الدافىء ، متعت نفسى بمرئيات بالغة الفخامة ، وعزيت نفسى عما ينتظرنى فى السوالم . قال لى : انه يقدر فى ، اننى اتجهت الى الريف ، وانه يتمنى لى التوفيق فى مستقبلى . اكد انه سيساعدنى كابن له ، أو كأخ صغير ، قال الرجل ، وهو يلقى نظرة على اسطح البيوت المتناثرة ، واجزاء الشوارع التى تبدو منها ، انه لو عاد الى شبابه ، مع استحالة حدوث هذا ، وبدأ من جديد ، لما فعل غير ما فعلت ، همس ان الشيخوخة هى اسوا ما فى حياة الانسان ، بل أسوأ من الموت نفسه ، وانه لا يخفى على حسده لى . قال الرجل بتأثر بالغ : ان ما سأقوم به . تجربة عظيمة فى حد ذاتها ، واننى بعد عودتى بالفشل أو بالنجاح ، سواء قدر لى أن أصنع شيئا بهذه البلدة ، أو ان اكسر أمام الواقع ، فان التجربة رائعة وجميلة ، بل وهامة .

ـ شوف يا عصمت ، اللى يعيش ياما يشوف ..

ـ واللى يلف يشوف اكتر ..

قالوا لى قديما : من يسافر يعش الف حياة مرة واحدة ، وكانت ايامها هجرتى الاولى . ونحن فى الطريق ، تحت اقدام القاهرة ، وكان الوقت ظهرا ، استدرت ، نظرت الى المنازل العالية ، المصانع ، المآذن ، قباب الكنائس ، القاهرة تدور حول نفسها فى حركة بطيئة ، استقرت الاشياء فى نفسى . بدا لى اننى أودع عهدا كاملا من حياتى ، لا ادرى لم تذكرت أهلى، قريتنا الصغيرة فى اقصى الجنوب ، تذكرت أبى ، رحت أستحضر صورته

بعين خيالى : امى . اخوتى . أخى الاكبر الذى لم يكمل تعليمه وتفلسف كثيرا ، قطع الارض التى بيعت فى السنة المهائسة ، انتزعت من قوت وسمعة العائلة : تحولت الارض ، التراب الاسمر الداكن : الى حوالات بريدية . اسوان . صادر فى ، مسجل تحت رقم .. حوالة بريدية رقم .. اذا لم يصل فى ظرف ثلاثة أيام رد الى الثانى .. على العنوان الانى .. أدركت اننى لم أر والدى ، منذ ثلاث سنوات . عشت مرة أخرى : لذة السفر بالقطار ليلا : النوم على المقاعد الخشبية ، فرحة لقاء الاهل والاحباب ، الحزن المعلق فى اماقى العيون عند الفراق . السيارة تمر بى على الضهرية الآن « هنا الضهرية وحصتها » . اقتربت من السوالم . ومن هناك : سأرسل تقريرا الى الشركة ، بكل ما قمت به ، وبعد ذلك ، سأكتب خطابا الى الاهل .

ليلتى الاولى : غيرت ملابسى ، تخففت من جلدى الخارجى ، أحسست بحريتى فى ملابس النوم ، تمددت على الفراش الخشن ، ارتطمت نظراتى بسقف الخيمة ، رحت أحصى الثقوب الموجودة به ، حاولت ان أرى نجوم الليل من خلالها . لفت نظرى الصمت ان الصمت لا يتحدد هنا بانعدام الاصوات ، والسكون الشامل ، انه احساس قريب من الصلاة ، النجوى الخافتة ، حديث النفس . هبت نسمة هواء . دخلت الخيمة . كان الهواء مشبعا برطوبة الليل . وكان الليل فى الخارج ، جسما بلا صوت ، فتذكرت ان الليل ، فى الزمان القديم . كان وقت اتخاذ القرارات التى لا تنفذ بعد ذلك أبدا . قررت ان ابدا بتدوين مذكراتى ، كما كنت افعل من قبل وان ابدا خطوات مشروعى من صباح الغد .

يقف الرجال على الجسر ، من تحتهم يصعد بخار أبيض اللون من الترعة . بداية الليل.. من السوالم واشليمه تنبعث أنوار خافتة اذن المغرب ، وترك الجسر من يواظب على الصلاة فى ميعادها . الفرض بفرضه ، بقى بعض الرجال يتحدثون ، الجسر من الاماكن المحببة الى الرجال ، الشبان منهم على وجه الخصوص . وعلى الجسر ، قد يتقابل شبان السوالم ، مع شبان من اشليمه وقت العصارى . أما الرجال الكبار ، فانهم يفضلون الجلوس أمام دكان المعلم يعقوب ، يشربون الشـــاى ، ويتكلمون عن الحياة والموت ، المرض والشفاء الذى يتحول فى حديثهم الى امل مستحيل التحقيق . شخص واحد ، كان يجلس هذا المساء على الجسر ، غير انه لم يتكلم ، انه ورداني . كان يجلس على سور الجسر وخلفه ، كانت مياه الترعة تلمع فى الظلام ، ان ورداني بعد أن اكتشف اكتشـــافه الخاص به ، لن يتراجع عنه ، خانه أهل السوالم ، تخلوا عنه ، تركوه ينكسر بمفرده ، ويسلم أرضـه ، ويعيش من الغد كما النساء . فتحى سالم يقف وسط الرجال ، يسأل عن المهندس ويقول للرجال بعبارات ممطوطة ، انه سيكتب ما حدث فى البلد ، فى تقريره الاسبوعى الذى يرفعه كل أسـبوع للجنة المركز ، السكوت على ما يحدث جريمة ، السـوالم بلدهم جميعا ، وكل منهم مسئول بشكل او بآخر عما يحدث . قال انه سيثير هذا الموضوع فى اجتماع الاتحاد القادم مع الامين العـام ، غير انه عاود السؤال عن المهندس ، تساءل بمرارة : كيف يقول العمدة ، ان المهندس هو الحكومة ذاتها ، فتحى سـالم يقرر فى نهاية حديثه الغامض ، وهو يلوح بالجريدة فى تسليم مر ، بأن فى هذا الموضوع سرا ما ، غير انه لابد وأن يعرف هذا السر .

ـــ ياعم ولا سر ولا حاجه .

يتضاءل فتحى سالم أمام الرجال . وكل ما يعرفه . وتضحى الجريدة ورقة لا قيمة لها . تذوب المسـافة التى تفصل فتحى سالم عن الناس . يقرر بينه وبين نفسـه ، انه فى الصباح الباكر

سيذهب الى المهندس ، يتعرف عليه ، يبحث معه الموضوع ، ومن يدريني ، فقد يكون فى الموضوع مصلحة ما للبلد . منذ اكثر من سنه ، قلت للرجال ، على هذا الجسر ، وفى مثل هذا الوقت ، سأضع حياتى فى خدمتكم يا أهل البلد ، وكنت صادقا فيما قلته ولكن أين أنا ، المستقبل العريض ، الرد على الشامتين، عضوية مجلس الامة ، المرتب ، المنزل ، الارض ، الزوجة ، الوظيفة التى اصبحت الآن حلما صدئا . فتحى سالم ، يهوم بعيدا عن الرجال، يسافر على اجنحة الخيال والآمال الكاذبة .

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الظلام قد حل ، انه المساء ، الرجال يحاولون أن يعرفوا القادم ، كان الصوت غريبا عليهم ، أدركوا هذا منذ البداية . الجسر ، ليس بناء من الاسمنت والحديد والطوب ، انه جزء منهم ، من حبات القلوب وماء العيون ، ومن يدوس على هذه السكة الحبيبة الى الرجال ، فهو معروف لهم ، انهم يشمون رائحة الغربة فى الصوت القادم .

ـ اتفضل .

يقف الرجال ، ينفضون ملابسهم ، يركبون مداساتهم ، يعتدل الذين كانوا يستندون الى السور ، يقتربون ، زجاج نظارة يلمع فى الظلام ، أفندى طويل ، معه رجل يلبس نفس ملابسهم ، المهندس ، ومعه حب الدين سرحان . يمد لهم يده ، تستريح الاكف فى بعضها ، يقولون كلمات موشاة بحب الاستطلاع .

ـ فتحى افندى سالم .

ـ المهندس عصمت فهمى النجعاوى .

يمد فتحى سالم يده بتردد ظاهر ، يشعر ان يده مجذوذة الاصابع ، تلتقى اليدان ، وبين الكفين والاصابع ، كانت تكمن آثار القهر .

ـ تشرفنا يا افندم .

يجلس عصمت على السور ، يجمع شمل الرجال حوله ، يأتى اليهم رجال آخرون ، كانوا متناثرين فى أماكن أخرى على الجسر ، يكونون حلقة صغيرة حول المهندس ، يمسك فتحى سالم بجريدته بعصبية . اخيرا يأتى الامتحان قبل موعده . فى صمت اللقاء الاول بين الرجال والمهندس ، انتزع وردانى نفسه ، وقف ، نفض

جلبابه بعناية من تراب الجسر ، شمل الجالسين بنظرة ميتة ، كان يود ان يقرا نظرات الذين خانوه . غير ان اعينهم كانت معلقة بالمهندس .

ــ ازيكو يارجالة .

ــ أهلا يا باشمهندس .

ــ والله وحشتونى ، بعوده الايام .

قال حب الدين :

ــ دا كان عيش وملح يا باشمهندس .

يبتعد وردانى عنهم ، يقول لهم ، وهو يسير مبتعدا عنهم :

ــ طيب .. السلامو عليكو انا بقى .

يرد عليه أكثر من رجل ، فيضيق صدره ، يكثر عدد الرجال حول المهندس ، يجلسون ، يجلس حب الدين بجوار المهندس ، يحميه بنظراته ، انه يلبد له تحت باطه ، كما يقول أهالى البلد. لكنه الصمت ثقيل على الجميع ، والليل الريفى حولهم . مكعبات الظلام الثقيلة ، وللظلام ، الف الف عين ترى ، الف الف أذن تسمع ، والبترول ، مرفأ الامان ، قطرة الماء فى صحراء الظمأ . فى الايادى سجائر لف رفيعة ، تشتعل وتنطفىء ، يرميها الرجال على الجسر . وفى القاع تحتهم ، كان يتساوى كل شىء ، الصمت والظلام ، الحب والكراهية ، الفرح والاسى ، المهندس وفتحى سالم .

ــ اسمعوا يا جماعة ..

تخرج الكلمات من فم المهندس ، موشاة بالغامض والمجهول ، تسرع الكلمات ، تنزلق على اللسان ساخنة ، فيكثر البخار الخارج من فمه ، يستعمل يده ، يتوقف أحيانا ، تكون هناك صعوبة فى التعبير عما يريد قوله ، يخبط على سور الجسر بكاوة يده ، يجهد نفسه فى البحث عن التعابير ، لابد وأن تكون كلماته واضحة لهم . انه يريد أن يوصل اليهم الاحساس الراعش بداخله ، ان يهزهم ، أن يدرك الرجال على الجسر باختصار ، معنى ما يحدث الآن فى بلدهم ، يعرفونه بشكل واضح دونما اشاعات .

ــ شوفوا يا رجالة .

يقترب منه الرجال ، يضع بعضهم يده بجوار اذنه اليمنى ، تصل اليهم الكلمات ، تسقط العبارات فوق حبات القلوب .

ـ باختصار . حا يحصل تحول كبير فى حياتكم .

الرجال يتذكرون الآن ان حياتهم عجفاء . يتذوقون من جديد معنى الفقر . يتذكر الرجال ، ان هناك احلاما كثيرة ، فى حياتهم . تخلوا عنها . بعد ان أدركوا استحالة تحقيقها . وقال كل منهم لنفسه ، انه لم يعش حياته كما كان يريد ، وانه مظلوم ، وانه لو مات الليلة أو الغد ، لمات مظلوما ، والظلم مر المذاق . ان المواجع والجراح القـــديمة ، التى ما زالت طرية ، نبشت الآن بحديث المهندس ، واستيقظت الآلام فى نفوســـهم . وفى قيعان عقولهم ، استقرت معانى كلمات المهندس ، مجردة ، غريبة عنهم . معزولة عن باقى مكونات حياتهم . انها تصـــل اليهم ككلمات الراديو ، والفاظ الافندية ، وتطفو على السطح ، تعوم ، تصطدم بالاحزان الدافئة ، وترقرق فى نفوسهم رؤى مستقطره من الليل ، والترعة والحقول الفسيحة .

ـ كل اللى باطلبه منكم ..

يقول المهندس :

ـ انكم تحطوا ايديكم فى ايديه ، واحنا حانغير كل حاجة فى البلد .

طرقعات شباشب النساء على بلاط الجسر ، غبار فضى يلف البلد والحقول ، خرير الميـــاه يترقرق تحت الجسر هادئا ، يستقر الظلام الليلى فى قيعان الحارات والبيوت والحقول والترعة وقلوب الرجال . وفى الصدور ، الهمسات المرتجفة ، الكلمات المعلقة على الشفاة ، البسمات المترددة الخجول . الرجال ، يمرغون عقولهم البسيطة على أرض الجسر ، يرتعشون ، يهيمون مع كلمات المهندس ، فى العالم الكثير الذى لم يعرفونه بعد ، وسيقوم الرجال برحلتهم الاخيرة ، دون أن يعلموا الكثير ، ويدور شىء ما فى عقولهم ، يتكور ، تتحدد ملامحه ، ويرتفع من داخل النفوس صدأ ، غبار شفيف ، دخان أزرق ، رائحة احتــــراق . وتجوس فى قلوب الرجال ، يد المهندس ولســـانه ، تدهمها ، تفتتها ، وتسح فى الاعماق من الرجال ، نقاط دم حمراء قانية .

ـ انا أثق فيكم الى ابعد الحدود ، أرجوكم ان تبادلونى نفس الشعور .

الرجال يعيشون ، عواطف النـــاس وهى تتحول الى الشكل الآخر ، حيث يذوب الاسى مع مرور الايام ، وتبهت حلاوة الافراح

وشكلها ، ويتبخر الغضب فى الصدور . الرجال يشعرون ان هذا المهندس الشاب ، شىء جديد بالنسبة لبلدهم . الرجال يستمعون الى كلام المهندس ، والظلام قد حل ، وهم يواجهون انفسهم للمرة الاولى عارية من الفة الحياة اليومية . الارض ، العمدة ، بنك التسليف الزراعى ، الخفير ، المدرسة ، الشيخ محمود والجامع ، الحقول البعيدة ، المواشى ، اجهزة الراديو ، العالم الكبير . انهم يحاولون أن يفهموا ما يقوله المهندس ، والمهندس يقول لهم كلمات تسقط على جدار الاذن الخارجى ، حلوة شهية ، المجتمع الصناعى ، المرتب أول كل شهر ، المسكن النظيف ، التأمين الصحى ، الشوارع الواسعة ، المساكن الشعبية ، دور السينما ، الملاهى . كلمات المهندس أجنحة يطيرون بها فى الليل الهادىء فوق البلد . يتذكر الرجال ، دونما سبب واضح ، اقرباءهم ، ابناء السوالم الذين ضاقت بهم الحياة فهاجروا ، حملوا متاعهم وسافروا . ويوم السفر ، ارتفعت الايادى تقول وداعا ، وعادوا بعد سنين ، يحشرون أجسادهم التى امتلأت فجأة ، فى حال نظيفة ، ويلفون حول سواعدهم الخشنة ساعات تضىء فى الليل، لقد حلق بعضهم شاربه ، ووضع البعض الآخر نظارة فوق عينيه ، مثل نظارة المهندس . وقال البعض ، بعد أن حلف بتربة من مات ومقام سيدنا الغريب ، ان ثمن النظارة خمسة عشر جنيها بالتمام والكمال .

حلم الرجال بحياة البنادر ، وانتشر فى صدورهم تصور لها . الشوارع المضاءة ، المقاهى المزدحمة بالرجال ، السيارات ، النساء الرائعة ، المحال المزدحمة ، العمارات العالية ، الاشجار المطلية بألوان زاهية ، النقود الكثيرة فى الايادى . يقول لهم المهندس كلاما عن العدل والانصاف ، والحاكم والمحكوم ، يقول لهم ، ان ما يطلبونه ممكن التحقيق ، وانه مطمئن الى مشروعه ، وان الايام القريبة القادمة ، التى تقع خلف الافق ، تحمل لهم الخير ، وان عليهم جميعا أن يستعدوا من الآن للحياة المقبلة ، وان يودعوا الحياة التى يعيشونها الآن .

بعد فترة صمت ، راح المهندس ، يصف شكل حياتهم ، بعد سنتين من هذه اللحظة ، ويعدد أسماء الوظائف ، ويقترح اسما جديدا لبلدهم ، ويحاول أن يحدد مكان المصنع والمساكن ومكان دار السينما والمسرح ونقابة العمال والميدان العام والحديقة

الواسعة . المهندس يتكلم . وهو مشتعل بحرارة داخليـة . انه يرتفع . ويرتفع . يحاول ان يطل من جلسـته ، رغم الظلام . على الايام القادمة .

ــ اللى حا يحصل هنا يا رجالة ، حايكون معجزة . فاهمين . انا باكرر كلامى للمرة العاشرة ، معجزة ، واصر . على ان اللى حا يحصل معجزة نادرة .

ينظر الرجال ناحيـة فتحى سالم ، وبعضهم قد استراح فى جلسته ، ووضع يده على خده . ان نسمة هواء ليلية تهب على الرجال ، فتغسـل الهواء من كل الاكاذيب ، وتستريح الكلمات فى النفوس ، تستقر فى الاعماق، آخذة أشكالا مبهمة داخل الرجال.

ــ شوف يا باشمهندس ، كلامك دا احنا عارفينه كله ..

تخرج الكلمات من فم فتحى سالم ، كلمات تعمد هو أن تكون غريبة ونادرة الاستعمال . قال كلاما كثيرا ، لم يدر السبب فى قوله ، كان يشعر ان فكيه يتحركان ، يتقابلان ، يبتعدان فى بطء وبحركة آلية ، يطحنان الكلمات طحنا قبل أن تخرج من فمه . يقول فتحى سالم ، انه لا يتحدث عن نفسـه ، ولكنه يتحدث بلسان الرجال البسطاء أهـل بلده ، وان تلك هى مسئوليته الخاصة ، وانه لن يتنازل عن هذه المسئولية . ويقول عن نفسه كلاما فى شكل الليل .

ــ دى بلدنا احنا ، ولازم نقول راينا فى كل حاجة هنا .

فتحى سالم يكمل حديثه ، والمهندس يوافقه على ما يقوله ، ان ما يفعله انما هو لمصلحة البلد ، وهو مسـتعد فى نهاية الامر للحساب . وانه يطلب من الناس النصيحة والمشاركة ، فهو فى عمر ابنائهم .

يقف المهندس ، فيقف الرجال من حوله ، يصافحهم ، يطلب منهم الدعاء له بالتوفيق ، بعد كل صلاة .

ــ عن اذنكو يا جماعة ..

يذوب المهندس ومعه حب الدين فى الظلام . الرجال يفيقون من سكر الكلمات ، لقد اصبحوا جزءا من الليل ، يبدون ثملين مثله ، وملامح وجوههم تسيل ليونة .

بعد ذهاب المهنـدس ، تكلم فتحى سالم كثيرا ، استمع اليه الرجال ، غير ان قلوبهم كانت مع المهندس . واسترخت الكلمات ،

واستطالت مساحات الصمت فى كلام الرجال ، وكان لهواء الليلى يحمل للرجال موالا حزينا . فى الموال ، حديث عن البسالة وعتاب على الايام والليالى ، يقوم الرجال ، فيكتشفون ان ملابسهم مبتلة بطل الليل .

ـ تصبحوا على خير ..

يتواعد الرجال على لقاء جديد على الجسر او فى عشة سلسبيله

ـ وانتم من أهل الخير ..

يسير الرجال فى الحوارى ، يدركون ، خلال السير ، ان الجنون معناه الوحيد ، ان يديروا ظهورهم لهذه المعجزة . لم يكن هناك ما يستحق الابقاء عليه فى بلدهم . لقد تحولت شفقتهم على ورداني وارضه ، الى نوع من الحسد له ، لقد تمنى كل منهم ، ان يكون هذا النصف فدان من نصيبه هو . فتحى سالم يسير بمفرده متجها الى داره ، شابكا يديه خلف ظهره ، واضعا الجريدة بين أصابع يديه ، مفكرا فى كل ما يحدث . انه يقرر ، ان هناك أمرا ما لابد من ادراكه ، لابد من فهمه والامساك به ، يرفض ان يعترف بهزيمته ، انه يعيش من جديد ، أيامه فى مدرسة انصارى سمك الاعدادية بالضهرية ، ويقول لنفسه ، انه يكره هذا المهندس ، وتتناثر الاحلام ، تتعرى ، وتبدو له الحياة بشكل كالح انوجه . اخترق الحوارى ، صعد معها ، ثم بدأ فى النزول مرة أخرى . اسلمته الحارة الى الشارع الرئيسى للبلد . وفى الشارع الرئيسى ، بدأ سيره متجها الى الناحية القبلية . فى حجرته الصغيرة ، خلع جلبابه ، علقه على مسمار فى حائط حجرة نومه ، ارتدى جلبابا قديما ، نام على جنبه الايمن ، فرد قدميه على آخرهما . تذكر كل ما تحمله له جريدة الصباح ، وكل ما سيحدث فى البلد ، فأدرك انه ضئيل . اغمض عينيه ، شبك يديه ، وضعهما فوق صدره . صفت الامور فى ذهنه ، تناهى اليه ، صوت حركة متأنيه يأتى من الشجرة العجوز ، الواقفة أمام باب منزلهم ، حركة تدل على الارتياح ، وتتناسب مع عمر الشجرة العجوز . فتحى سالم يشعر ان هناك نسمة هواء خفيفة ، تهب من ناحية الجنوب .

ووسط هذا الصفاء الليلى ، كان فتحى سالم يدرك ، ان أيامه مليئة بالجراح .

جميع المخاوف تتحقق فى نهاية الامر .
وردانى يشعر ان الحكاية قد سارت على غير ما يجب ، المهندس هو الحكومة . هكذا فهم وردانى ، ولا بد من تسليم الارض ، انصف فدان بكامله فى الصباح ، فخير له أن يستلمه بنفسه ، بدلا من ان يؤخذ غصبا عنه .
ـ أنا كان قلبى حاسس من الاول .
يتذكر وردانى ، انه عند حضور المهندس للسوالم ، أول مرة ، رفت عيناه ، وانه من يومها ، وهو غير مستريح للموضوع كله .
وردانى ، رغم ما حدث ، لم يقر بهزيمته ، لا يتصور انه سيترك ارضه للغرباء تواجه الرجال ، يفعلون بها ما يشاءون .
فى دوار العمدة جلس على المصطبة ينتظر حضوره . وعندما دخل عليه العمدة ، وقف ، سلم عليه ، سأله عن الحال ، طلب له طول العمر والصحة والعافية ، قال له : انت والد الجميع ، والدنا كلنا ، وليس لنا أحد غيرك . ومن لنا نذهب اليه ، اذا حدث لأى منا حادث . وقف العمدة ، طلب منه بحروف متآكلة ، أن يخلى ارضه ويسلمها للمهندس . قال له العمدة ، انه ليس فى مقدوره أن يفعل له أى شىء ، وان الامور أكبر مما يتصور أهالى البلد .
ـ حتى انت يابا الحاج ..
قال وردانى : مستحيل ، الارض ليست مؤجرة وهو يضع يده عليها . نزع الملكية ممنوع . العمدة لم يتركه يكمل حديثه ، أفهمه ان الحكومة تريد هذا ، لايوجد فى السوالم أو ، المركز ، من يستطيع الوقوف فى وجه المهندس ، خير لوردانى ان يسلمها برضاه . والمصيبة قد حلت بالبلد كلها ، وليست بوردانى بمفرده .
ـ بس ياحضرة العمدة ..
ـ ولا بس ولا حاجة ..
لم يكمل ، قال له العمدة : ارادة ربنا ، قضاء أخف من قضاء ، وانه يقدر ظروفه ، وسيحاول أن يستأجر له ارضا بدلا منها .
قال له : الله الذى خلقه ، وخلق أولاده ، وفتح لهم فى منتصف

وجوههم افواها واسعة ، تأكل الزلط ، لا يمكن ان ينسى هذه الافواه ، مهما قل الخير . العمدة يطلب من ورداني ، ومن اهالى البلد ، ومن امام المسجد ، أن يدعوا الله فى كل وقت من الاوقات أن تنتهى هذه المصيبة على خير .

ـ خلاص يا ورداني ، بكره الصبح تسلم .

ـ حاضر ياحضرة العمدة ، امرك ..

ـ لنا رب اسمه الكريم ..

يذكر ورداني ، انه عندما قال له حب الدين ، منذ يومين ، ان ارضه قد تؤجر منه للشركة ، انه سعل ، شق صدره سعال جاف ، وأسرع ، أحضر ورقة بيضاء وبصق عليها ، كان البصاق ابيض اللون فاطمأنت نفسه . انه الآن ، وهو يقف أمام العمدة ، يشعر برغبة فى السعال ، صدره يهبط ، والقفص الخارجي له يكاد ينكسر، وضلوعه يشقها الم حاد، الرغبة فى السعال تعاوده ، كتمها فى نفسه ، رفع يده ، وضعها على فمه ، وراح يستمع الى حديث العمدة عن التسليم والاذعان والاعتماد على الله .

ورداني يخرج من دوار العمدة ، يقف أمام الدوار . الوقت هو المساء ، وأمام عينيه ، يتسلم الخفر البنادق الميزر الصدئة . هدوء ساعة الغسق المبتل بالنعاس يلف البلد بداخله . سار فى حوارى البلد ، كان يفكر ، ان كان فى باطن ارضه بئر بترول فعلا ، فهى ارض خائنة . انها أرضه ، يزرعها منذ سنوات لايعرف عددها ، ويدرك انه لا يوجد شيء ما فى باطنها . فى باطن الارض طين أسمر وخصوبة ، وجذور نباتات عالية ، وسر لاسرار الذى لن تبوح به لاحد فى يوم من الايام .

ورداني يسير ، يحمل عناد الريف وقلقه وصبره فى أعماقه ، وهو يضع كرامته فوق جبهته مثل طاقيته التى يلبسها . ورداني يشعر ، لاول مرة فى حياته ، انه بمفرده . وأن السوالم كلها قد تخلت عنه ، ورغم التصميم والعناد ، فهو يشعر بشعور غامض يضطرب فى نفسه ، انه ذلك الشعور الذى يضطرب فى نفوس المؤمنين بالقضاء ، والقدر المكتوب ، القدر الذى لا حيلة لاحد فى رده ، والذى لا نستطيع منه فكاكا .

عليه بمفرده ، أن يفكر ، ان يحال الامور الهشة فى ذهنه ، ما يحدث له ، لم يسبق أن حدث من قبل ، عقله يدور ، فى اشياء قد تكون بعيدة عن الموضوع الرئيسى ، يتمهل فى سيره ، يلف

يديه خلف ظهره ، يمسك بهما ذيل جلبابه ، يحني راسه ، يتفرس في الارض من تحته ، لا يلقى السلام على الرجال ، يتفادى في سيره روث البهائم ، ونقر المياه وكميات التراب التى تملأ الحارات. يصل منزله ، يقف على الباب ، تطالعه خدوة حمار قديمة ، بصلة جافة ، قطعة من شجرة صبار يابسة ، لا يذكر متى علقها . يدخل منزله .

ـ فيه ايه يا وردانى ؟ ..

لايرد ، يدخل على أولاده ، يجلس بينهم ، تضع زوجته الطبلية امامه ، يجلس حوله أولاده الاربعة ، تحضر زوجته الطعام ، طعام كل ليلة . وفى بعض الليالى ، وما اقلها ، يكون هنا فى البيت طبيخ ، شيء ما ارسله هو من الحقل . ملوخية أو بامية ، وفى أيام نادرة ، قد يكون هنا دجاج ، أو لحم اشتراه من الجزار ، وقد يحدث احيانا ، أن يعود من الحقل ، فيجد زوجته قد ذبحت دجاجة أو أرانب ، وفى هذه المناسبات ، فان وردانى يدرك سبب الوليمة ، إن شوطة مرض ، فتك بالدجاج فقامت زوجته بسرعة وارسلت فى طلب الشيخ محمود ، او المعلم سيد الجزار ، كى يذبح لها ما أمكن انقاذه من الموت .

وردانى يجلس على الطبلية ، يمضغ خبز أيامه الجافة . وفى كل مساء ، توضع الارغفة أمامه على الطبلية ، ارغفة سمراء صغيرة ، محروقة من المنتصف ، وخلال الاكل ، تختفى الارغفة بسرعة ، لدرجة أن ورداني اعتقد ، ان هناك أيادى غير ايادى أولاده ، تأكل معه ، وعندما سأل الشيخ محمود عن السر ، حوقل وبسمل ، وقرأ آيات من كتاب الله الكريم .

ـ أيوه ياسيدى ، هيه المسألة دى فيها قولان ؟ ..

قال له : انه جائز ان تكون هناك أرواح هائمة على وجهها ، مسافرة فى الزمان أبدا ، باذن منه سبحانه وتعالى ، انهم أبناء الرياح ، زادها هو طعام الناس اينما وجدوه ، انها ترانا ، ولكننا لحكمة من الله لا نراها ، بل لقد أوصاه الشيخ محمود ، هامسا ، انه لو وقعت منه ، خلال الاكل ، على الارض ، لقمه وغموس ، فلا بد أن يتركه كما هو لاخواننا فى الله ، سكان الارض .

وردانى لايكلم أولاده ، ويقسم لزوجته ، بالطلاق ثلاثة ، شافعى ومالكى وابى حنيفة ، انه يجرى عليها وعلى نفسه وعلى أولاده الاربعة ، واناس آخرين لايعرفهم أحد ما ، وربنا يقدره على هذا

الحمل الثقيل . من بعدها ، حرص ورداني كل ليلة ، خاصة في الليالي الكريمة ، أن يترك على الطبلية مكانا خاليا لهم ، أبناء وأولاد الارض ، كي يجلسوا فيه ، يأكلون معه ، ويباركون الحقل والمنزل والمواشي ومستقبل الاولاد الصغار . ورداني يحتوي زوجته وأولاده بنظرة حانية ، مسترخية ، ويواصل ببطء ، ودونما رغبة مضغ طعامه .

ــ ويمكن يكونوا زعلوا من حاجة ..

قالها ورداني لنفسه ، ثم قال على الفور :

ــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

كان الشيخ محمود قد افهمه ، ان يرد السلام كاملا ، كلما تذكرهم ، انهم اخواننا في محبة الله ، ومعنى أن يردوا على الخاطر ، انهم يمرون علينا في نفس اللحظة ، وانهم القوا تحية الاسلام ، ولا بد من الرد عليهم . عند هذا الحد ، استراح ورداني ، قرر أن يسأل الشيخ محمود ما يراه ، بعد صلاة العشاء في مسجد سيدي الغريب .

قال ورداني .

ــ مطلوب مني أسلم الارض ، ما اقدرش على الحكومة من ناحية ، وما اقدرش اعيش من غير الارض من ناحية ثانية ، البلد خانتني ، الحكاية بقت مرة خالص يامولانا . في الدار خمسة عايزين يأكلوا ويلبسوا . وبكره الصبح لازم ..

طرح المسألة على الشيخ محمود ، طلب منه أن يدله بما يراه صالحا . صمت الشيخ محمود ، وراح ورداني ينظر الى شفتيه المزمومتين ، ووجهه الذي لا ينطلق بأي شيء ، بعيون مشربة بالاسى والخوف المبهم من المجهول .

ــ ويخلق ما لا تعلمون .

ردد الشيخ محمود ، آيات من القرآن ، نطقها ببطء ، ويده تدور مع حبات المسبحة ، غير انه لم يقل أي شيء عن المهندس والارض . فجأة ، قام الشيخ محمود ، ترك ورداني في صحن الجامع ، دخل مقام سيدي الغريب ، وغاب فيه . وقف ورداني محتارا في صحن الجامع ، ثم ركب مداسه وخرج . في الطريق ، فتح له الظلام صدره الرحيب ، فغاب فيه .

ورداني ممدد على ظهره ، ينظر الى سقف الحجرة الواطيء ، يفكر في حقله ، الحديد المغروس في الارض ، يحده من الجهات

الاربع ، اثنا عشر قيراطا من الارض ، فى الحوض البحرى، القناة الصغيرة التي ترويه ، تقسم الحقل نصفين ، بحريها ستة قراريط وقبليها ستة قراريط . الساقية التى بناها هناك ، مشتركا مع اصحاب الارض الآخرين ، والرى منها بالدور ، حسب نظام متفق عليه فيما بينهم ، شجرة التوت ، ظلالها المتاكلة الاطراف ساعة القيلولة ، ظلال القمر الراقدة تحت اقدام الشجر طول الليل ، رائحة الارض بعد اختمارها بالمياه ، الشقوق الواسعة فيها عندما تكون شراقى . فكر وردانى فى صورة حقله ساعة الغسق، عندما تذوب ملامحه وسط غبشة المساء الرمادية ، فتبهت معالمه ، وتتلاشى حدوده ، وتتحول خضرته الزاهية ، الى خضرة رصاصية داكنة اللون .

فى مستشفى المركز ، كتب له الطبيب روشتة العلاج ، قال له ان هذا الدواء ثمنه خمسة جنيهات ، وعليه أن يكرره ، لمدة سنة على الاقل ، مع الراحة التامة فى السرير ، ونظام معين فى الاكل ، صدر دجاجة فى الغداء ، شوربة خضار فى العشاء ، لبن حليب وبيض فى الفطار ، وسيأتيه الشفاء باذن الله ، اما الحجز فى المستشفى فلن يأتى بنتيجة . اخذ وردانى الروشتة من الطبيب شكره . قال : انه سيحضر العلاج ، وسينفذ تعليماته ، وخرج من المستشفى . دارت كلمات الطبيب فى ذهنه ، فضحك ، تذكر انه كان يسمع فى أيام الشباب الاولى، «مغنى قديم»، يتحدث عن رجل مريض ، يشكو طول الليل ، انه عليل ، دواؤه موجود فى كل مكان تحت رموش عين الحبيب ، فى بلاد قريبة ، غير ان الطبيب لم يأمر بصرفه له ، فتحسر على ايام زمان السخية فى كل شىء .

وردانى فى نومته يحاول ان يتصور ما سيحدث لارضه فى الصباح. المهندس نزع الارض منه ، الحفر، قلب باطن الارض علها تجود بالسر ، تسليم الارض ، الارض والعرض ، زوجته واولاده. استدار على جنبه الايمن ، شبك يديه ووضعهما تحت راسه ، وتنهد ، لقد شعر بضيق فى صدره .

ـ صدرى حاينقفل بابت ، وحاتبقى ليلة سودا .

وردانى يخاف أن تأتيه الازمة ، فيوقظ زوجته واولاده ، ويطلب منها حبة دواء ، فتقوم وفى عينيها بقايا نوم، وتحضر جلابيتها السوداء، من فوق المسمار ، ومن جيبها الداخلى تفك منديلها ، تخرج من داخله قروشا قليلة ، باعت بها بيضا فى سوق الخميس ، ثم

تخرج ، وهى تفرك عينيها ، وفوق راســها لمبة جاز ، وفى يدها قروش تحرص عليها اكثر من حرصها على الحياة ، كى توقظ المعلم معقوب من نومه ، تشترى منه حبة دواء لا اسم لها ، حبه واحده لا تعرف لها شكلا ، المهم انها تريح وردانى وتفتح صدره .

وردانى يفرد قدميه على آخرهما ، تصطدمان بعدة الشاى فى آخر الحجرة ، ثنى أصابع قدميه ، قال لنفسه :

ــ بكره يحلها من لا يغفل ولا ينام ..

وكانت عيناه تلمعان فى ظلام الحجرة ..

يجد الرجال فى الحقول والنباتات والبلد ، وفى انفسهم ، صراحه الاشياء الاولى ، ورغم ان الحياة بالنسبة لهم يوما واحدا ، يجترونه ويعيشونه بلا نهاية ، فان عيونهم المتعبة ، تعجن الاتساع الحقولى وزرقة السماء ، وخضرة النباتات بنظراتها ، وترصد التغييرات التى تطرأ على جلد الطبيعة ، ويبدو للعيون أحيانا ، ان التغييرات التى تحدث ، انما هى وعد غير مكتوب بسعادة جديدة ، فداء عن الصبر الطويل ، وتبقى العيون والآذان والقلوب ، تسجل ما يحدث . شهر اكتوبر من كل عام .

١ ــ انخفاض مستوى المياه فى ترعة ساحل سرقص ، ثم جفافها ويبدو القاع عاريا ، مليئا برمم الحيوانات الميتة ، والنباتات الصغيرة وقد تراكمت عليها القاذورات والسمك الميت . وعندما يشاهد اهل السوالم منظر الترعة بعد الجفاف ، يموت فى نفوسهم كل عام شكل الترعة الممتلئة بالمياه ، وجمالها فى الليل .

٢ ــ قصر النهار ، يتحول الى ومضة قصيرة ، فركة كعب ، تعبر الشمس السماء الواسعة فى لمح البصر ، وتطول مساحة الليل ، فيضحى وعدا بسهرات طويلة ، تحكى فيها الحكايا ، وتهمس النساء فى الصباح ، وهن يملأن الجرار من الحمام ، بما حدث فى الليلة السابقة ، وتتغنى امرأة منهن بجمال ليل الشتاء وطوله .

٣ ــ تساقط الاوراق من فوق الاشجار ، تاركة الفروع عارية مذكرة الانسان بدورالحياة ، الخصب والخضرة والنماء ثم الذبول . وعلى الارض ، تحت الاشجار ، تتناثر الاوراق الجافة ، فتغطى مساحات الظل .

٤ ــ هجرة الطيور . ان الطيور فى مثل هذه الايام ، من كل عام ، تهاجر الى مواطنها الشتوية . الانسان يبقى مرتبطا بالارض والبيوت ، مسجلا تحول الحياة والارض ، مع قدوم الشتاء ، وباحثا عن بوادر الربيع قبل الاوان .

انه الخريف ، خريف هذا العام يحمل معه شيئا لم يروه من قبل .

الخيام المنصوبة فى أرض الوقف . ما ان يمر احـد من اهالى البـلد على أرض الوقف ، حتى يتوقف امام الخيام ، يحاول ان يقترب منهـا ، لا يعـاود السير فى طريقـه ، الا بعـد أن يرى أى شيء من داخـل الخيـام . أهالى البـلد ، يشـاهدون فى الخيـام دلائل وجود حيـاة ، غسيـل منشور على حبال ، مياه مدلوقة على الارض ، فوقها فقاعات صابون ، أعقاب سجائر وبقايا عيدان كبريت محترق ، أوراق ممزقة ، وفى لحظة الفسق، كانوا يشمون رائحة السمن المحروق ، وكانوا يسمعون صـوت طشيش التقلية ، ومن خلال منـافذ الخيام ، كان يخرج دخان ازرق ، دائرة اهتمام الناس مركزة فى الخيام بمن فيها من الناس. وما يحدث بداخلها ، يقسم الـكل على ان احـــدا من أهالى السوالم ، لم يدخل الخيام ، ويقول الناس ، ان حب الدين يوصل المهندس حتى باب الخيمة ، هو الآخر لم يدخلها . المهندس هو موضوع اهتمام النـاس ، مرتبطـا به البترول والحياة الجديدة والامانى والوعود . وقد يهمل الناس موضوع المهندس ، عند مرور بعضهم على الخيام ، يتذكر الموضوع كله ، وما سـمعه عنه . وتطفو على سطح نفسه ، احلامه الخاصة وامانيه . ذهب الرجال ذات مساء الى الشيخ محمود ، كان فى صحن الجامع ، جالسـا كما تعودوا أن يروه منذ أن ولدوا ، ويعتقد الـكل انهم سيموتون ويتركونه كما هو ؛ فى نفس المـكان ، ونفس الجلسـة ، والمسبحة فى يده . ان أحداثا هامة تحدث للسوالم تزلزل أركانها ، تؤثر على من فيها ، تهز أعتى الرجال ، انها تصـل الشيخ محمود . ذهبوا اليه ، حملوا حيرتهم وتساؤلاتهم ، جلسوا حوله ، نصف دائرة ، حكوا له ما حدث ، تكلم أبو السعود ، أوجز أحيـانا ، توقف امام بعض الامور طويلا ، وكان الرجال يوافقونه على كل ما يحكيه .

ــ آدى الحكاية ياسيدنا ، من طقطق ، لسلامو عليكم .

اكمل بعضهم ، بكلمات بسيطة ، ما لم يقله ابو السـعود ، اعتذروا بأنه لا أحد فيهم يستطيع الـكلام مثل ابو السـعود ، ولـكنهم أكملوا ما قاله . تكامل الموضوع أمام الشـيخ محمود ، صمت ، دارت حبـات المسبحة فى صعود وهبوط بين اصـابع الشيخ ، راح الـكل ينظر الى شفتيه .

ــ واطيعوا الله ، واطيعوا الرسول ، واولى الامر منكم .

افهمه أحدهم ان ما يطلبونه هو مشورته .

ــ صدق الله العظيم .

انهم لايطلبون منه ، أن يقرأ الغيب ، او يحاول معرفة ماسيحدث البلد ، قال ابو السعود أن حياة البلد كلها ، تتوقف على هذا الموضوع ، ان هذا الرجل ، وأشار الى ورداني ، صاحب الارض والبئر ، انه صاحب اكبر اسهم فى الشركة . اما أنا ، وأشار الى نفسه ، أنا ابو السعود ، منادى البلد ، وقارىء الكف ، وحامل اخبار الرجال والنساء ، سأكون رئيس العنابر الداخلية فى الشركة . للوم هو المدير العام ، مدير شئون العاملين بالشركة . حب الدين ، نائب رئيس مجلس الادارة . الادارة العمومية ، التى لايعرف أحد أين سيكون مكانها ، مصر أو ايتاى البارود ، أو السوالم . فتحى سالم عضو مجلس الادارة المنتدب ، سأقدم تقريرا كل يوم ، عن سير الامور فى العنابر الداخلية ، قال ابو السعود ، انه ضمن مشروعاتهم ، أن يبنوا مسجدا كبيرا ، من دورين ، دور للرجال وهو الارضى ، والدور الثانى للنساء ، العمل فى هذا المسجد سيكون بمرتب كبير ، وسيبطل العمل بالمسائية ، وسيضاء المسجد بالنور بدلا من الفانوس القديم ، ستكون صلاة الفجر بلا متاعب الظلام . صمت الرجال ، فى العيون وهج رائع ، احساس طازج ، أعادوا السؤال على الشيخ محمود . وبعد فترة صمت ، قال لهم الشيخ محمود :

ــ لا يعلم الغيب الا الله .

شعر الرجال انهم عاجزون عن الفهم ، وبأنه تفصلهم عما يقولونه مسافات طويلة ، سنوات لا نهاية لها ، يبتلعون فيها الاميال الطوال ، بحثا عن أرض جديدة . قام الرجال . فى مقام سيدى الغريب ، مروا بأيديهم على سترة المقام الخضراء ، قبلوا أياديهم ، مسحوا بانفهم على وجوههم ، كان على السترة الخضراء كلام مكتوب باللون الابيض ، الرجال لا يعرفون القراءة أو الكتابة ، غير انهم يعرفون ان المدون على هذه السترة ، هو : الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وامام المقام ، فى حضرة سيدنا الغريب ، تذكر كل منهم امنياته ، عاشها من جديد ، أطل من خلالها على ايامه القادمة . وفى صحن الجامع ، كانت تصرخ فى وجوههم ، كتابات قديمة ، على الجدران ، حروف متآكلة ، تتحدث عن الذى لن يحضر ابدا والذى يأتى ولايأتى ، وعن البر والتقوى ، والخوف والشجاعة ، وماقاله الخضر لموسى ، من انه لن يطيق معه صبرا ،

وفى كثر من موضع . كان هناك كلام عن الصبر .

فى الشارع الرئيسى . شعروا بالاستخفاف ، بأنهم يطيرون فى الافق البعيد . ومن خلال الصمت . بدأوا يضحكون ، ضحكات موشاة بالسرور المفاجىء . انهم ينادون انفسهم بوظائفهم الجديدة ، واهالى البلد ينظرون اليهم ، ويقول البعض . انهم اصابهم مس وان المهندس ضحك عليهم .

ــ لا حول ولا قوة الا بالله .

قالوا : آخر زمن ، السوالم سترى ما هو اكثر ، طالما ان المهندس يعيش فيها . الرجال يسيرون فى الشوارع ، يقولون النكات ، يفرقع بعضهم بأصابعه فى الهواء تعبيرا عن السرور ، تخرج من افواههم ضحكات صافية ، مكتملة الخلقة . لقد اكتشفوا ان الامور أصبحت لا تطاق ، ودوام الحال من المحال ، استمرارهم يعنى أن يموت الكل ، المهندس أتى فى الوقت المناسب ، واكتشفوا انهم كانوا سذجا ، اقد رضوا بما قسم لهم فى الايام الماضية ، وتساءل كل منهم : كيف كانت تسير الأمور من قبل ، واستعدوا لتقبل التغيير الجديد فى حياتهم .

على الجسر ، فى المساء جلسوا ، لعبوا السيجة ، تكلموا ، أسكرتهم الكلمات . فتمايلت الرءوس ، وتحركت الالسن فى الافواه بصعوبة ، وارتفعت الايادى بتثاقل . قال حب الدين ، انه سيذهب الى دمنهور فى الاسبوع القادم ، ومن السوق العامة ، سيشترى قماش بدلة ، انه يفضل اللون الرمادى او الازرق ، على ان يكون القماش سادة ، فهو لن يرتدى الجلباب بعد اليوم ، الجلباب لا يصلح الا للنوم او الجلوس فى المنزل فى الامسيات . حب الدين يقول لهم : انه لا يتصور كيف كان يرضى من قبل بلبس الجلباب . قال وردانى : لن ابيع الارض للشركة مهما حدث ، سأظل مالكها الوحيد ، وسيأخذ نسبة من ثمن البترول ، وبالنقود ، سيفعل كل ما يتمناه ، يبنى بيتا ، يفتح مشروعا كبيرا ، يشترى سيارة ، فلا أحد يضمن ما تأتى به الايام .

ــ الموضوع دا من اختصاص القضاء ، تؤجر او تبيع ، فيه جهات مختصة .

المتحدث هو حب الدين ، وردانى ثار ، هاج وماج ، وسخر من مسألة التخصصات (وان لم يكن قد فهمها) . المسألة واضحة ، الارض أرضه وهو حر فيها ، توقف وردانى ، نبه الجميع الى

حقيقة ، يجب الا ينساها احد، لقد سلم الارض بمزاجه للمهندس، وكان يملك ألا يسلمها ، وبذلك يتوقف المتروع ، ولـكنه تنازل عن ارضه فى سبيل مصلحة البلد . انه يذيع سرا فى هذه اللحظة ، لم يكن يحب أن يقوله ، الرجال ليسوا غرباء ، قال له العمـدة يومها ، انه حر ، الارض ارضه ، وله أن يفعل ما يراه . قاطعـه للوم ، طلب من حب الدين أن يبحث له عن شـاب متعلم ، كى يعمل معه فى مكتبه الجديد ، ظروف العمل تغيرت ، سيفتح مكتبا فى منزله بصفة مؤقتة ، فالشركة ستبنى له مكتبا فخما ، يقول للوم : انه شاهد مكان مكتبه بالامس على الخارطة مع المهندس .

انهم يجلسون ، قالوا لانفسهم ، ان شمل الحياة يجتمع من جديد فى السوالم ، سيعود الرجال الذين رحلوا لضيق ذات اليد، أو لعدم وجود عمل ، قال أبو السعود انه لن يمر على البلد ، فى حواريها الصغيرة الملتوية ، وينادى بصوته الحيانى : « ياعباد الله ، الحاضر يعلن الغايب » لن يجتمع حوله الصبية والاطفال ، ويتكاثر الصغار حوله كلما مر بحارة جديدة ، سيكتب ما يريد ابلاغه للناس ، على ورق أبيض ، ينطلق به صبية ، أو يعلق على لوحة فى مكان عام ، كى يقرأه الناس .

ــ ما هى كل النـاس ، حتى النسوان ، لازم يعرفوا القراية والـكتابة ، امال حا نفضل كدا على طول . مش ممكن ، المهندس قال كدا .

ــ امال ياعم ، والله وشفنا أيام حلوة .

وردانى يتصور ان أرضه قد باحت بسرها لرجل سواه ، انه المهندس عصمت ، يبتسم وردانى ، لا يصـدق . سـيذهب الى ارضه ، سينام هناك ، وفى الليـــل ، مستودع الاسرار والرؤى والاحلام ، سيعرف السر .

ــ والنبى دى الاشيا بقت معدن ..

همس لنفسه : انه يتذكر الايام الماضية ، كان يجلس فى عشة سلسبيلة ، الرجال من حوله يطلبون أدوار الشـاى الثقيـلة ، يدخنون المعسل ، غير ان وردانى كان يدور فى عقله شيء آخر : حساباته ، ما عليه ، ما معه ، النقود التى ينتظر الحصول عليها ، بعد شهر أو شهرين . فى اللحظة التى يأخذ فيها كوب الشاى ، أو يدس غابة الجوزة بين شـفتيه ، يدرك معنى ذلك بالنسـبة

لمصروفه ، قوت عيـاله ، ويدرك ان ذلك كثير ، ولـكن ما باليد حيله ..

الرجال يجلسون على الجسر، والليل قد حل ، انهم يرون مناظر لن يروها ويسمعون أمورا لن يسمعوها ، ويملـكون مكانا واسعا فى سماء الله العالية ، يفعلون فيه ما يشاءون ، دونما خوف. كان الليل مقبلا بالاشواق ، الليـل يطوى بداخله الحوارى والبيوت والناس ، زارعا فى النفوس الاحلام والامانى .

قال لهم فتحى سالم : ان هذه الحكاية ، قد حدثت من قبل ، فى السوالم ، فى قديم الزمان ، منذ مائة سنة ، قراها فى الكتب ، أبدى الرجال دهشتهم ، انصتوا اليه ، الحكاية لم تكن حكاية بئر بترول ، كانت حكاية أخرى عن السوالم . قاطعه احدهم ، البئر والمهندس والبترول ليست حكاية ، انها حقيقة ، المهندس ليس حدوته تحكيها العجائز فى ليالى الشتاء المستطيلة الوجه الممطوطة اللحظات ، هو حياتهم ، وجودهم . قال فتحى سالم ، انه يطلب الفرصة فقط كى يتكلم ، ولا يجب أن يقاطعه احد . سكت الجميع فى السوالم ، غنوه حزينة ، تغنيها الصـبايا وقت الحصاد ، فى اتساع الحقول ، تحدى احداهن ، فتاة صغيرة وجميلة ، تسمى نفسها سلسبيله ، وترد عليها الباقيات ، يطلبون فيها من الشاطر حسن ، أن يركب حصانه ، ويجهز الزاد ، فهو على سـفر قد يطول ، وزاد المسافر ، خياله وعقله وقلبه المفعم جسارة ، ست الحسن والجمال ، محبوسة فى قصر ، فوق صـخرة ، الصخرة العالية ، بين مساحتين من الصحراء ، بحار لا نهائية من الرمال ، خرج الشاطر حسن ، سافر ، غير انه لم يعد ، انتظره الرجال والصغار والنسوة ، تعلقت خيـوط نظراتهم بخط الافق ، ولم يطالعهم وجهه الجميل أبدا ، دفنوا حكايته فى حبـات القلوب ، قال فتحى سالم ، ست الحسن والجمال هى السوالم نفسها ، الشاطر حسن ، كان أحلى ابنائها ، وانه كان مطلوب منه أن ينقذ بلده ، من خطر ما ، لا تذكره الاغنيـة القديمة ، وان الشـاطر حسن لم يعد من الصحراء الواسعة ، وقد يكون هناك حتى الآن، السوالم ما زالت حزينة عليه ، وهى تعيـش على أمل أن يعود اليها ، قال فتحى سالم ، انه لا يعرف لم ذكر هذه الحكاية ، وقال انه يفضل أن تنتظر ست الحسن والجمال عودة الشاطر حسن، انها ورجلها ، الفرح خيانة له حيث هو الآن ، الخيانة يا أهل

السوالم مرة المذاق على اطراف الالسن . قال فتحى : ان كلمات الاغنية مكتوبة على الجدار الداخلى لبئر المياه المهجور . خلف جامع سيدى الغريب ، وهى مكتوبة بدم الشاطر حسن ، وبخط كوفى جميل ، وانه قراها فى صباه ، قال : اننا يجب أن ننتظر ، وان ندون كل ما يحدث لنا ، على نفس الجدار الداخـلى ، فنحن لا نعلم ما قد يحدث بعد ذلك . كبس على الرجال صمت غريب ، هل يعود الشاطر حسن ذات مسـاء . رجل كبير . عمـلاق ، تساءل احدهم . هل ورد ذكر لهذه الحكاية فى الكتاب الذى الفه سـيدنا الغريب ، لم يجب عليه أحد ، قال فتحى سـالم : ان الشاطر حسن الذى تنتظره السوالم كلها ، شـاب كبير ، مفتول العضلات . طول خطوته الف الف فدان ، تدوس قدمه على الارض فتهزها ، يرفع قامته فتنطح السماء ، رد حب الدين ، قال : ان الشاطر حسن ، هو النبى الذى تحدث عنه مولانا ، فى آخر صفحات كتابه ، وانه لابد وان يحضر ، وانه لن يحزنه أن يعود فيجد بلده على احسن حال ، الصمت يحوم فى الظلام ، وحب الدين يواصل كلامه ، الكلمات لا تقال بنفس الاندفاع الاول . الرجال فقـدوا حماسهم ، وانشغلت الاذهان بما قاله فتحى سالم ، قال حب الدين لنفسه : ان عشته ستتحول الى كازينو ، مراهنات الرجال فى اللعب ، ستكون على أشياء كبيرة ، وقد يلعب الرجال الورق على الجسر ، وامامهم اكوام من النقود ذات الرائحة المحببة ، لن يطلب الرجل منهم كوب شاى واحـد على الحساب شكك . قال حب الدين للرجال : انه يجب على كل أعزب أن يتزوج بعد عمـل البئر ، وعلى كل رجـل متزوج ، أن يتزوج مرة أخرى امراة جديدة ، قال عن نفسه : انه سيتزوج بعد أسبوعين على الاكثر ، وانه لن يناسب الا أحد العمد ، وقد يتزوج مرة ثانية أو ثالثة على سنة الله ورسوله والمؤمنين .

ــ بس لما الباشمهندس يتجوز الاول ..

ــ بصحيح ..

قالوا : ان ليلة فرحه ، ستكون ليلة ولا كل الليالى . الرجال أيامها ، لن يعرفوا ، كيف ينفقون النقود . قال حب الدين ، انه سيزفه فى بيته الجديد ، سيخطب له احلى بنات الناحية كلها ، وانه سيـشعل السيجارة الاولى فى السهرة ، من ورقة بعشرة جنيهات كاملة . هبت عليهم نسـمة هواء باردة ، وارتفع بخار

خريفى ابيض من الترعة تحتهم ، ذكرهم بأن الليل قد حل منذ وقت مضى ، قام الرجال ، وقبل ان يتركوا الجسر ، اشار لهم حب الدين ، أن يقتربوا منه ، كونوا دائرة صغيرة ، وهم وقوف لم يكن يبدو سوى بياض العيون يدور فى سرعة ، احسوا بدفء انفاسهم ، ينزلق على الوجوه ، همس حب الدين لهم ، بصوت منخفض :

ـ كلام فى سركم ..

قال لهم : انه بعد افتتاح المشروع ، سيعاد انتخاب اعضاء لاتحاد الاشتراكي . وفى هذه الحالة ، سيتغير اكثر أعضائه ، انهم لن يخافوا أحدا بعد ذلك . كل الامور ستتغير ، ان عمل العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر سيبطل . سيكون هنا ، مركز بوليس فيه ضابط كبير ورؤساء لقطاعات المدينة ، ستكون هنا مؤسسة للكهرباء ومرفق للمياه ومكتب للبريد وفروع لكل البنوك ومحطة خطوط اتوبيسات تصل السوالم بكل البلاد ، ومكتب تلغراف وتليفونات ، وستمتد خطوط القطارات حتى البلد . ونواد ومقاه نظيفة . قال لهم حب الدين : على كل منهم ، ان يشترى عفريته زرقاء جديدة ، بدله للشغل فى المصنع، وأن يستخرج بطاقة شخصية أو عائلية ، مع استخراج شهادة ميلاد وتجهيز شهادة تأدية الخدمة العسكرية او الاعفاء النهائى منها ، وبطاقة عضوية الاتحاد الاشتراكى وأن تكون الاشتراكات مسددة حتى آخر شهر ، والفيش والتشبيه . أحس الرجال ان وجودهم الذى لم يكن محددا من قبل ، سيتم حصره فى اوراق بيضاء ، مكتوب فيها معلومات غريبة ، من جهات بعيدة ، تحدد كل بيانات حياتهم . انهم يدركون ان كل شيء هنا ، كان محسوبا دون أن يدرى أحد ، قال لهم حب الدين : ان البلد بلدهم ، وانهم أولى الناس بالعمل فى هذا المشروع . قال لهم : ان عصمت افندى ، سيساعدهم بنفسه ، وفى كل الجهات ، فى سبيل الحصول على الاوراق المطلوبة . هذا الكلام ، قال حب الدين ، لا يصح ان يعرفه أحد غيرهم ، حتى ولا زوجاتهم فى المنازل .

أحس الرجال بدوار فى رءوسهم ، طعم الحياة يتغير فى مذاق كل منهم ، والتغيير الذى يوشك أن يحدث لهم ، نادر الحدوث . تواعدوا على اللقاء ، بعد صلاة العشاء فى عشة سكر، ثم تفرقوا . حب الدين يسير فى حوارى البلد ، طريقه الى خيام الغرباء ،

يفكر فى سيره البطىء فى سلسبيله ، يدرك انها آخر ما تبقى له . شعر بشوق جارف لها ، أحس بالحنين الى بسمتها الصافية ، فكر فى ان يغير طريقه ويعود اليها ، قال لنفسه : ان الله قد جزاهم خيرا على صبرهم الطويل ، وقال ان وجه سلسبيله ، كان خيرا على السوالم كلها . الهواء يداعب وجه حب الدين وهو يسير فى حوارى السوالم ، انه يشعر برغبة فى الفناء ، ويجيش فى وجدانه موال قديم ، يترنم به ، لكن لنفسه .

ــ محبكم داب ، وانتم لم دريتوا بيه ..
والنار بترعى فؤاده ، وانتم لم دريتوا بيه ..

ان قدمه تدوس على الارض ، وترتفع عنها ، بحركة آلية ، وهو يسير ببطء فى حوارى السوالم . ان عينيه ، تكتسبان رؤية جديدة ، لمشاهد بالفة القدم ، انه يملأ عينيه من كل شىء ، ومما ادهشه ، انه عندما قابل المهندس ، سلم عليه بحرارة ، ورحب به وقال له المهندس ، وهو يضع يده على كتفه فى ود وحنان :

ــ أهلا بنائب المدير العام ..

مفتتح : امرأة لينة العود ، مفروودة القوام ، مثل عود الـ.رو ، الذى زرع ونبت فى أيام الرخاء ، فى حلاوة الشهد ؛ تنام رموشها الطويلة على العيون الواسعة ، تزد د العيون اتساعا فى الليـل ، وتحضن الشفة السفلى ، أختها العليا فى وسن هامس ؛ مكونتين معا دائرة صغيرة ، فى حجم وحمرة حبات النبق . اليد والذراع فى بياض القشدة ، تتحرك انيدان خلف النصبة ، بخفة ومهارة ؛ نبتعد الرموش السوداء ، عن العيـون المفنجلة ؛ فتنظر ناحيـة الرجال ، فتبذر فيهم جميعا ، وعودا مبهمة ، رؤى ضـبابية غامضة ، حنينا وسهادا ورغبة .

سلسبيله امرأة بلا رجل ، وكل امرأة بلا رجل فى السوالم ، فهى امرأة متاحة . يقول الشبان . ان من له زند رجل . وذراع ذكر مغطى بالشعر ، وفى جيب الصديرى لداخلى ، الذى ينـام على صدره العريض مال ، فهو قادر على أن يتحسس بيده حلاوة الشهد ، ويغرس أصابعه فى ليونة الجسد الابيض ودفئه . وعندئذ قد يرى عن قرب اتساع العيون ؛ وقد يكحل عينيه بســواد الرموش التى تغطى فدان ارض ؛ وقد يرى بياض الجسد يضىء ويشع فى حجرة ضيقة ، مطعونة بمساحات الظلام الليلى .

يجلس الرجال فى عشة سلسبيله ؛ يتربع فى وسطهم حب الدين ، امامه الطبلية المستديرة الواطئة ، التى يلعب عليها الرجال الورق احيانا . سكر من معالم المكان ، تتصدر العشة ؛ تصطدم عينـا الداخل ، بحلاوتها خلال دخوله . فتحى سالم يجلس وسطهم ، وحضوره أمر نادر الحدوث ، ولعل السبب الوحيد فى حضورد ، حديث الامس وما قاله المهندس ، فتحى سالم قلق فى جلسته ، ويبدو انه غير مقتنع بحضوره الى العشة ، ورغم هذا ؛ فهو مكره على الجلوس ، ومن يدرى فقد تمتد الجلسة الى ما هو اكثر من هذا ، انه ينزلق ، والهاوية ممتدة أمامه الى ما لانهاية ؛ والتوقف اصعب من الاستمرار فى لانحدار . فتحى سالم صامت ؛ لايتكلم يتحسس جبهته واذنيه وفتحتى منخاريه ، يحدق فى الرجال ،

ويتعمد الا ينظر ناحية سكر . ويقول لنفسه . ان لكل امر من امور الحياة جانبه الجميل . ويكتشف الان . ان سلسبيله رائعة ، ويحسد حب الدين . ويستريح فى جلسته . ويمنح الرجال اذنيه . الرجال يتكلمون فى كل الامور دفعة واحـــدة . ومع الحديث ، يستيقظ فى نفوس الرجال ، الآلام والخطا والجراح . الحديث ينفض عن القلوب الصدأ و لغبار . انهم يغزلون من قحط امامهم وجدب الحياة من حولهم ، حكايا تبلغ حد الروعة ، ووسط الحديث كانت اعينهم مربوطة بمكان ما . فى الافق المعتم وسط الظلام . ان أحدا منهم لا يستطيع احتواء شعوره الداخلى . أو يتذوق مذاقه. وسيظل هذا الشعور سره الخاص به ، دون كتشاف بالنسبـة لأى منهم .

الرجال ، الجالسون فى عشة سلسبيله . تبدء قدرتهم الوحيدة فى ان يحلموا ، أن يرسموا بعيون الخيال . أشياء . أحبناها فى نفوسهم المهندس . تدور الجوزة بينهم . يخرج الدخان الازرق من افواههم وانوفهم ، يختلط ببخار أكواب الشاى الدافئة . يكونان معا ، سحابات من الغبار الشفيف فى جو العشة . وفى الخارج يذوب وسط الليل الناعس .

ـ وحدوه ..

ـ لا اله الا الله ..

الرجال ينظرون الى بعضهم ، كأنهم يرون انفسهم للمرة الاولى. تنغرس كلماتهم فى جو العشة ، فترسم امام عيونهم اشــكالا ، صورا ، بلادا ، تحيل أحلامهم الى واقع محدد . لقــد تباعدت المسافة بينهم وبين السوالم ، وشعر الرجال ان حبــال الالفـة والمودة بينهم وبين البلد قد تقطعت . لن تعود الحياة الى ما كانت عليه من قبل . كانت الامور قد ساءت ، وأضحى كل رجل . فى الصباح ، يشعر بأن كل شيء قد غدا ثقيلا ، الحياة ، الحوارى ، البلد ، لقمة العيش ، نظرات الآخرين ، سماء الله العالية .

ـ اما يا اولاد لو طلع الـكلام ده صح ..

تشتعل الـكلمات ، تندفع فى سباق بينهم ، ولا تستطيع الاذن ان تميز شيئا وسط سيل الـكلمات المتدفق . الرجال يحلمون بسوالم أخرى ، لايوجد فيها عمد ، وبرجال لا يقضون حاجاتهم فى الصباح ، على شاطىء الترعة ، وبليل لا يبدأ فى السادسة مساء ، ويستمر حتى السادسة من صباح اليوم التالى ، ولا يرتبط الليل

فى أذهانهم بالظلام والصمت ، انهم يحلمون بسماء مغسولة بالشهد والحنين ، تعبرها طائرات كثيرة . وقد يكون هناك مطار كبير . الطائرات لن تذكرهم بعد ذلك بالحرمان ، ولكن لتربطهم بالدنيا الواسعة . وقد تختفى اختامهم ، تلك القطع النحاسية الصفراء المربوطة بالدوبارة فى محافظهم الفارغة . وقد تبنى النقود ، تلك القطع الفضية اللامعة ، والاوراق الخضراء ذات الرائحة المحببة ، فى الايادى فترة اطول ، حتى تدفئها ، وقد تعرق الايادى على النقود من الفرح ، وقد لا يخافون شيخ الخفر ، وشيخ البلد ومقاول الانفار ومعاون الزراعة .

سلسبيلة تهيم خلف النصبة ، وتقوم بعمل كل ليلة ، انها تغنى بصوت لا يسمعه سواها ، كلمات سمعتها فى الزمان القديم ، فى احدى القاعات الضيقة الحمراء ، الفاقعة الحمار ، فى شارع محمد على ، فى مصر أم الدنيا ، الكلمات التى تترنم بها ، مربوطة حول القلب ، كحجاب لا يفارقه . ترددها دون أن تفهم معناها :

ـ آه منك يا زمن السفر والترحال ..

حب الدين : قلت لنفسى ، يا مركب العمر ، ان جاكى العدل حلى ، واقعد على دفتك ، وآخد بايدين خلى ، وعدنى المهندس بالعمل . قال اننى خامة جيدة ، واننى سأجد نفسى فى العمل معه عندما سمعته ، لم ادرك معنى ما يقول . غير اننى فى الليل . والليل يخفى حقائق الاشياء ، بدات ادرك معنى كلمات المهندس . اننى احبه ، وفى كل ليلة ، بعد أن تخلو العشة تماما ، أصبح بمفردى فى مواجهة سلسبيلة ، نجلس معا فى مواجهة بعضنا ، نتحاسب ، نضع نقودنا فى منتصف الطبلية ، أقيد الحسابات ، اقول لنفسى : يارب سترك ، والنبى يارب . اننى لا اخاف سوى شماتة الناس ، لم اكن اطلب الكثير . قال لى المهندس : سأعمل معه ، ملاحظا لتشغيل الانفار ، على ان اراقبهم فى العمل ، صرف الاجور سيكون كل خمسة عشر يوما ، أو كل اسبوع . زى ما انتو عايزين . قال انه سيعطينى أعلى أجر فى الناحية . قال ان المعجزة ستحدث هنا ، سنرى بأنفسنا الكثير . مال على المهندس همس بكلام حلو عن مستقبل السوالم ، أذكر انه قال ، كلمات رائعة ، كانت فى عينيه غنوه مقيدة ، عبارات حبيسة تريد أن تنطلق ، أن تعربد فى الهواء ، فركت يدى فى بعضهما ، احمر وجهى « احنا تحت امرك يا باشمهندس » وكنت صادقا فيما قلت

اشعر اننى وجدت شيئا ما ، وقد اقضى بقية العمر مستريحا ، كنت افكر فى ترك السوالم من قبل ، كانت الحال قد ضاقت بى ، كان الفراغ وضيق ذات اليد وبيع الارض قد دفعنى الى حافة اليأس ، سرت مع المهندس حتى الخيام ، تركته هناك ، وما كنت اود ، أن افارقه لحظة واحدة ، كنت حريصا عليه كما الحياة ، « تصبح على خير يا باشمهندس » عدت ، فى طريق عودتى ، كان فى نفسى شعور خبيث ، نوع من التشفى فى العمدة وشيخ الخفر والخفر والمعلم يعقوب ، كنت اتشفى فى كل من يقبض ماهية أول الشهر ، كل الذين لا يطلبون من الله سوى أن يدوم الحال ، رحت امنى نفسى بالايام القادمة ، ابى يرحمه الله ، تنبأ بما حدث من قبل ، الفجرية التى مرت بالسوالم فى الربيع الماضى ، جلست فى وسطنا ، كنت اجلس على الجسر ، أخذت اثرى ، وشوشت الدكر ، رميت بياضى ، قالت لى : يأتيك رزق كثير بعد عمر طويل ، اطلبه من الله ، سألتها عن العمر الطويل ، قالت سنه واحده أو اكثر ، رفعت يدى نحو السماء الربيعية الزرقاء ، قلت يارب . اوزع الشاى على الناس ، أتحرك بين الرجال ، وقد بدأ جو العشة مثقلا بالانفاس والدخان ، اتخيل نفسى ، العفريتة الزرقاء . الحذاء اللامع ، اليد الناعمة ، حب الدين سرحان رئيس قسم . بشركة ، الزواج . العشيقة ثم الزوجة ، يصل ويسلم ليد السيد ، العمل فى النهار ، استعادة الارض التى بيعت للمعلم يعقوب ، القيراط الخامس والعشرين ، لابد وأن أقول ، اننى لا أتصور كيف كانت الايام ستمر بدون المهندس ، النوم حتى العاشرة الاستيقاظ ، الافطار ، التدخين ، النوم مرة أخرى ، الصحو ثم النوم ، ولا شيء غير هذا ..

فتحى سالم : اخوانى ، أهالى السوالم الكرام ، رشحت نفسى نيابة عنكم ، أملى فيكم ، انتخبوا الفلاح المثقف ، فتحى سالم ، رمزه المفتاح ، كانت ليلة جريحة ، لم أنم حتى الفجر ، بدا لى الصباح متعبا ، قمت من نومى ، تناولت افطارى بفم غير فمى ، ذهبت الى دوار العمدة ، لا أدرى لم ذهبت الى العمدة بالذات ، تحدثنا فى كل الموضوعات ، سألنى عن أخبار البلد ، واخبار اعضاء الاتحاد ، واخبار الجمعية التعاونية ، والمدرسة ، طلب منى أن أصبر . بعد أيام، سيكون الامر فى لجنة الاتحاد ، دربا حول كل الموضوعات ، الا الموضوع الرئيسى ، المهندس والبترول ، لم

اسنانه . ولم يشأ الحديث عنه . كلانا يدرك ، اننا لم نلتق فى هذا الصباح المتعب . لا من أجل ذلك الموضوع ، راحت الدقائق تمتد بين الكلمات . لم نجد ما نقوله . حضر الى العمدة ضيوف من بلاد بعيدة ، قمنا ، سلمنا ، رحبنا بهم . سألونا عن الصحة والحال ، أحسست ان وجودى اصبح بلا جدوى ، قمت ، سلمت استأذنت من العمدة ..

ــ ما انت قاعد ياسى فتحى ..

ــ أصل ورانا شغل ..

ــ طيب ياخويا ، خطوة عزيزة .

فى الطريق . وكنت بمفردى ، رحت أفتش فى نفسى عن احساس واحد . اعرف به موقف العمدة مما يحدث ، كان وجهه فى هذا الصباح . اخرس ، مسطحا لاينطق، قال لى : ان الظروف صعبة . لقد فعل ما قدر عليه ، نحن عاجزون . مات والدى ، بعده تركت المدرسة . ورحبت بالفراغ و لتسكع ، ونزهات الليل، فى حوارى السوالم . وقلت لنفسى ، ذات مساء ، فليكن مايكون، نلأحاول الحصول على شىء ما من معجزة المهندس ، لقد استطاع حب الدين أن يتسلل اليه ، ان حب الدين اكبر منى.كنت اقول له من قبل : ياعمى حب الدين ، الحال تغيرت ، دائما يسبقنى حب الدين . مكتوب على أن أكون تابعه ، أو بعده او مقلدا له فى كل ما يقوم به . مجرد وجود حب الدين فى السوالم نار دائمة الوقيد . تكوى القلب والجنب والعين ، كان من المفروض على أن اكتب رأيى فيما يحدث فى التقرير الاسبوعى الذى ارفعه الى مكتب المركز . كل تأخيرة وفيها خيرة . دائما كنت احافظ على المواعيد . وأخدم التعليمات ، عن خوف لا عن اقتناع ، غير انى فى نهاية الامر لم احصل على شىء . عندما وصلت الى منزلى ، ادركت ان الحال فى السوالم امر من اى وقت مضى ، واننى لم ادرك هذا الا بعد حضور المهندس . فى المساء ذهبت الى عشة سلسبيلة ، وضعت على الشفتين ابتسامة باهتة .

ــ مساء الخير يا رجالة ..

ــ مين ؟ سى فتحى ، يا نيلة بيضة ، أهلا وسهلا ..

كان المساء قد حل ، وطار طائر الشوق ، شق فضاء السماء الكاذب ، حاملا الحنين للأهل والاحباب . جلست بين الرجال، فى يدى جريدة قديمة ، دائما قديمة ، حاولت أن أتصنع الاستماع

الى الراديو ، احسست بالارتباك ، كنت مزهوا بهزيمتى ، أقول لحب الدين كلاما ، تنزلق عباراته من طرف اللســـان ، دون أن تترك اثرا فى النفس ، حب الدين يدرك معنى كلماتى ، كرهنا بعضنا لحد الموت ، وقلنا لبعضنا البعض ذات مســـاء ، دونما عذاب الـكلمات ، ان بضاعتنا واحدة ، واهل السـوالم الطيبون ، اما ان يشتروا منى أو منك انت . وقلنا يومها ، هذا الـكلام صحيح لم تكن لنا حيلة . قلت لنفسى : كل ما حولى يشير الى أسفل ، الى قيعان الاشياء ، لا امل ، اجلس ، أتفرس فى الوجوه ، تستقر نظراتى على وجنتى سلسبيلة ، تستريح عينـاى لجمالهـا ، فى الصدر والقلب هذيان ، شعور من فاته كل شىء ، من استيقظ ذات صباح فوجد ان الارباح قد تم توزيعها ، بالعدل أو بالظلم ، المهم ان الذين وزعوها ، نسوه ، ولا أمل فى تصـحيح الامور . أكره المهندس لحد الموت ، ولـكنى أدرك ، انه اتى ليوقظ الاحلام المؤجلة منذ سنوات . قالت لى أمى بعد الظهر : ان البيت فى حاجة انى كيلتين حب ، فكرت طويلا ، قلت لها : حاضر ، كل الامور حا تتصلح ان شاء الله . لبست عدة الشـــــغل ، الساعة ، الجلباب المـكوى ، الحذاء اللامع ، الشراب الـكاوتشوك ، امسكت بالجريدة القديمة ، وخرجت . قال الرجال ، احســن تشتغل شغلانه ، قلت : هى أيام التسكع ، ان زمن النزوح والترحال لم يجئ بعد ، وقلت لسلسبيلة : يوم أن حضرت الى بلدنا ، وهى تخطو فى الشارع الرئيسى ، فتوقظ الرؤى والاحلام ورعشـــــة الليل ، وتنفض الغبار عن العيون والصدأ عن القلوب ، قلت لها : يا أرض احرسى ما عليكى ، فتوقفت ، استدارت ، نظرت الى ، انغرست نظراتها فى لحمى ، ومضت فى طريقها ، فكرهت الخديعة والفشل والآمال المؤجلة . وعندما حضر المهندس الى بلدتنا ، قلت لنفسى ، وكانت ديوك الفجر قد بدأت تؤذن : خيرا ، ليكن امتحانى الاخير ، وبعدها مرحى يا زمن النزوح .

أبو السعود : لم يرسل المهندس فى طلبى ، يبدو انه لايعرف انه يوجد فى السوالم شـخص اسمه أبو الســعود ، واسم أبيه أبو السعود ، واسم جده أبو السعود ، آباؤه واجـداده سـموا العائلة باسم واحد ، قد يحتاجنى المهندس ذات يوم ، يطلب منى أن ابلغ الناس ما يريد ابلاغه لهم ، وعندئذ سـأدور فى الحوارى ساعة الغروب : يا عباد الله ، يا أهالى البلد ، لن تكون المناداة عن

ماعز تاهت فى طريق العودة من الحقل ، أو طفل صغير ، ضل الطريق الى بيته ، أو عن موعد الترحيلة الى جناكليس ، سكون المناداة ، بكلام حلو ، كلام المهندس ، لا أفهم لم يكره العمدة المهندس ، لم يقف ضده ، لو صح كلام المهندس ، لاصبحت الحال غير الحال ، ولودعنا أيام الجوع والعرى . الشيخ محمود يعطل على رزقى ، ولم يعد أمامى سوى أن أدور فى الحوارى وانادى . ومن قبل ، فى الزمان القديم ، قيل ان والدى ، كان يغسل الموتى ويكفنهم ، ويقرأ القرآن فى المآتم وايام الخميس وذكرى الاربعين ومن صغرى وانا امنى نفسى بالكثير ، بعد وفاة والدى ، لم اجد لنفسى ، سوى أن امر فى الحوارى . قلت : يوم أن يطلبنى المهندس ، سأطلب منه اغلى ثمن ، ان النقود فى يده ، مثل حبات الارز ، قيل لى : ان اسهل ما عنده ، أن يعطى نقودا ، لن أتنازل عن مليم ، ان فاصلنى ، واعتقد انه لا يعرف الفصال ، سأقول له : بين البائع والمشترى ، يفتح الله ، سأتركه وامشى ولن أعود اليه ، ولن اسكت عليه . فى صباح اليوم ، ذهبت الى الخيام ، سلمت ورحبت وعرضت خدماتى ، وقلت : أنا ابو السعود ، الذى يعرف كل ما خفى ، ضحكت امام الغرباء ، انا ابو السعود ابو السعود ، ابو السعود ، ابو السعود ، أبو السعود . أمتلك مائة الف عين ومائة الف اذن ، لا شىء يحدث فى السوالم الا وعرفته ، اتحداكم ياضيوف بلدنا ، ان كان هناك ما لاأعرفه ، وودت أن أشتم فى الشيخ محمود ، اجلت ذلك الى ما بعد . أثناء وقوفى ، لمحنى وردانى أتحدث مع الغرباء ، اسرع فى سيره نحو دوار العمدة ، هذا لا يهم ، عند الغرباء سأجد الحماية ولقمة العيش والراحة والستر ، على استعداد لافعل ما يطلبه الغرباء ، فرح الغرباء بحديثى ، قالوا : دمى خفيف وروحى لطيفه ، وندموا على الايام التى مضت دون أن يعرفونى ، قلت لهم : خدامكم يا بهوات ، دا احنا اهل . توقفت ، رحت انظر الى الجالسين أمامى ، جلست على الارض ، تربعت ، رفعت يدى ، فانحسر كم جلبابى عن ذراعى المغطاة بالشعر ، بربشت عيناى فى الشمس ، رفعت كف يدى اليمنى ، صنعت منه شمسية ، تغطى عينى ، حتى أستطيع أن انظر الى الافندية الغرباء . تفحصتهم واحداً واحدا .

ــ امال فين الباشمهندس عصمت ؟

ــ دا مش موجود ، وجاى بالليل ..

ـ كدا ، طيب عن اذنكو بقى ياجماعة ..

للوم : سمعت ، ان المهندس ، سيحتاج انفار للعمـل معه : موعد الترحيله قرب . بعد أيام قليلة ، يحضر المعلم من أبىالمطامير، ومندوب المحافظة من دمنهور ، الفصال ، الاتفاق ، قراءة الفاتحة دفع العربون ، تحديد موعد السفر ، تنـــــاول طعام الغداء فى المندره ، ارسال من يشترى زجاجات البيرة من الضهرية ، لوح الثلج الذى يقطر برودة وسط الحر ، الدخان الخارج من النوافذ والأبواب . سمعت ان المهندس سيدفع أعلى أجر فى الناحية ، المال معه كثير ، تلك نقطة اتفقنا عليها جميعا رغم كل خلافاتنا القديمة والجديدة ، رايت المهندس من قبل ، غير اننـا لم نتبـادل كلمة واحدة . سأل المهندس عنك . يا معلم للوم ، قلت لمحدثى ، ذلك من مصلحته هو ، وقلت لنفسي فى غيظ : لو حدث وأجر له مقاول غيرى انفارا ، لحرقت الخيمة ، وقتلت المهندس فى خبء الليالى وصمت الحقول ، والنقود قادرة على عمل المعجزات ، كل ما يعجز عنه القلب واللسان . بعد لقائى الاول مع المهندس ، عرفت انه من السهل الضحك عليه ، انه من عيال البنـادر . قالت لى امى المريضة ، عندما شكوت لها سوء الحال : وحكيت لها ما حـدث اخيرا للسوالم ، قالت : لماذا انظر الى الموضوع بخوف ، قد يكون الموضوع خيرا ، ذكرتنى بما سبق أن فعلناه مع الافندى القادم من المحافظة ، ومقاول أبى المطامير ، قلت لنفسى : أن المهندس فرصة لمزيد من الغنى ، وبعدها سأشترى السوالم بمن فيهـا ، وأبنى لنفسىقصرا عاليا ، أطل منهعلىالسوالم . فى العمل، قد تخطف عين المهندس فتاة صغيرة ، يسأل عنها ، يتابعها ، يطلب منى أن تحضر كل يوم ، وفى يوم ما ، لا احضرها ، فيسألعنها المهندس ، لا أرد عليه ، غير انى سأقرأ فى عينيه اللهفة ، وأعرف كل شىء ، وذات مساء ، ونحن عائدون من مكان العمل الى البلد ، يقترب منى المهندس ، يمسك بى من ذراعى اليمنى : « باقول لك ايه يا حضرة المقاول . انت طبعا ابن بلد وسيد من يفهم » . أعرف هـذه اللحظة جيدا ، وسيكون كل ما قبلها انتظارا لحدوثها ، الخجل فى العيون ، الشفاه المشققة ، التردد على ملامح الوجوه ، ابتسم له : اتكلم « احنا اخوات يابيه » يطلب منى ان تذهب البنت الى الخيام بالليل ، ويقسم لى : مؤكدا القسم بيده ، وبرحمة اغلى ما له فى الحياة ، انها ستذهب للعمل فقط ، تزداد ابتسامنى اتساعا ،

وفع ، غمزت لسنارة ، أرفع يدى ، أربت على كتفه « بس كدا . غالى والطلب رخيص ، يا أمير يا ابن الامرا » . الباقى على أنا ، سأضع المهندس فى جيب الصديرى الداخلى ، وتكون الليالى مترعة بالسرور ، الدخان ، الجوزة ، أحلى البنات فى حجرتى الداخلية ، وفى الخارج ، دعوات أمى . فى المرات السابقة ، كانوا مقاولين صغارا ، هذه المرة ، لا أصدق نفسى . وجود المهندس ، وعد صادق بالامان ، وعد بأن أخرس الاسنة ، وأن يقف كل عند حده ، وأن تموت ذكرى الصراف واليمين الباطل وليالى المركز والتحقيق وطرحة أمى المرقعة والعمل فى الحقول الواسعة كل يوم ، عند الآخرين ، وان تدفن الى الابد ، عبارة من أين لك كل هذا ، والشبهات ، وكلام الناس . ومن يدرينى ، قد أصبح أحد مالكى الاراضى ، وقد أناسب عائلة الحاج منصور ابو الليل من الضهرية ، أو عائلة المنيسى من دميسنا ، أو عائلة الدفراوى هنا فى السوالم .

سلسبيلة على الله ، والله لو سعدنى زمانى لأسكنك يا مصر ، وأزرع لى فيكى جنينه ووسط الجنينه قصر . انتم صابكم ايه يا أهل السوالم ، الله ، قال لى حب الدين ، وهو يهزنى : ان ربنا فرجها اخيرا على أهل السوالم : لم أرد عليه ، قلت لنفسى : ليبق المهندس فى السوالم طويلا ، وجوده معناه : ان تروج الحال فى العشة كل ليلة ، أن تخرج القروش الدافئة من كثرة حفظها فى الجيوب ، وتوضع على أنصبة ، دون أن يدرى الرجال كيف يحدث هذا . ها هو فتحى سالم بنفسه ، جالس ، رغم كل ما كان يقوله علينا . كل ليله من الليالى ستحمل لنا وجوها جديدة . قال لى حب الدين : ان عشتنا ستتحول الى كازينو ، سأكون صاحبته . كلمات حب الدين توقظ الاحلام التى أماتها الإنتظار والتردد « كازينو عمال شركة السوالم الكبرى » كوب الشاى قرشان ، كركديه : قرش ونصف ، المثلجات بكافة انواعها : ثلاثة قروش : يضاف الى الاسعار ١٠ ٪ خدمة : لن يكون هناك شكك . شكك ايه ، قال حب الدين ، دى الفلوس حا تنقى اكثر من الهم على القلب . الشوارع ستضاء : حتى الصباح . والناس لن تنام قبل الثانية صباحا ، سينشغل كل بحاله ؛ لن ينظر أحد الى الآخر فى الشوارع ، محلات ، منى فاتورة ، بقالة ، سينما ، مقاه ، مطاعم ، مكاتب ، اتوبيسات ، العمارات العالية ، النزهة ساعة

العصارى ، التنزه فى الحدائق ، وقد انتهى ذات مساء بعصمت ، عصمت دون سواه . الرجال أصابهم هوس ، كل هذا لم يحدث الا بعد حضور المهندس ، يتحدثون ، تعلو أصواتهم ، تخفت ، يصمتون ، يعودون الى المهندس ، دائما المهندس ، لم أره حتى الآن ، لايهمنى . عدم حضور المهندس الى العشة ، اهانة لى ، غضبت ، شتمته أكثر من مرة ، قلت : انه لابد وان به عاهة ، قد اكتشف ذلك . لم اهتم به . حاولت أن أتخيل صورته ، وان كنت لا أعرف اسمه ، كل الناس لا تقول سوى المهندس . يقول لى حب الدين ، فى لحظات الصفاء : انت يابت وشك خير على السوالم كلها . لا أصدقه ، سوف يكون اسمى المعلمة ، معلمة المعلمات ، سلسبيلة ، سكر ، سوسو ، عطيات ، سلسبيلة على الله مصر ، شارع محمد على ، السوالم بحيرة ، الترام القديم ، كركرة سيره فى الشـــــارع ، الاهتزاز الذى يصيب البيوت من مروره البطىء ، الشارع الصاعد الى القلعة ، هات خمسينة طافية . الحارات الضيقة ، البلاط المضلع القديم . انفص تحت الضرس ، والنبى احنا ما كنا عايشـين ، يتحدث الرجـل ، أجلس خلف النصبة . فى آخر الليل ، سلسبيلة ، انا . . انا . . بحبك . حب الدين يريد أن يضحك على ، ما يهمنى هو المهندس ، أحببته ، لست ادرى لم . القلب فاض بما فيه ، منذ سنوات ، أريد أن أرى المهندس ، أن امسحه بنظرة احتقار وتشف ، ســــيرتمى تحت القدمين ، سأعذبه ، بعدك يا عصمت لن اعرف رجالا آخرين ، زمن السفر قادم ، وما انتظره وما أبحث عنه ، لن أجده هنا ، بل على أرض اخرى ، بلاد بعيدة ، مدينة لم توجد بعد . ويقول لى حب الدين ، فى آخر الليل . .

ورداني : بكره الصبح ، تسلم ارضك يا وردانى ، بس ياحضرة العمدة ، معلهش يا ابنى ، المهندس ، النصف فدان ، الحكومة ، التسليم ، الهزيمة ، الجاموسة تتلوى فى البيت . فى الصباح ، أحل المواشى ، أمشى بها فى وسط حقول الناس فلا حقل لى . قال لى جارى : ان بقاء المواشى فى الزريبة يصيب أقدامها بأمراض كثيرة ، امشى على الجسر الطويل ، أتركها ترعى فى الحلفاء الشائكة أعود الى البيت ، يقول الناس بعد مرورى عليهم ساعة العصارى الحكاية ماجتش على دماغ حد الا هوه ، فى الليل ، تأتينى الازمة تركونى بمفردى أمام المهندس ، انتهى الامر ، ما فائدة كل ما يقال

ى المركز . دخلت المستشفى . رآنى وكشف على اكثر من طبيب خلعت ملابسى . ارتديت ملابس المستـــشفى . نمت على سرير طرى . وقال لى الاطباء . بالحرف الواحد : عندك ربو ، حالة قديمة ، اعود ، فى الصدر شك الابر ، اتفادى الزعل والعراك . يوم خروجى من المستشفى . قال الدكتور فى مرور الصباح : خروج ، دون نفس الـكلمة بالاحمر . على ذيل أوراق العـلاج المعلقة فى سريرى ، لم أكن شفيت بعد ، قالوا لى ان من يصـاب بهذا المرض ، لا يشفى منه ابدا . بعد قليل ، كنت اقف خارج سور المستشفى ، سور حديدى مرتفع ، فى يدى بقجة فيها ملابس متسخة وبقايا اكل ، كان على ان أسلك أقرب الطرق الى السوالم ، سيرا على قدمى ، لم يكن معى ما أركب به حتى السوالم . بكره الصبح تسلم الارض يا ورداني . حاضر . فى يوم التسليم . قلت اننى مريض ، لم أقم من نومى . روحى انتى يابت ، قالت زوجتى ان ابنى الصغير انفطر قلبه من العياط ، لم أرد . قالت : ربنـا يهدهم ، هو ما فيش حد قدهم ، لن اسلم ، الحكومة ، المهندس ، العمدة .

عندما قلبوا باطن الارض ، أخرجوا مصارينها ، شعرت ان هناك شيئا ما انتهك عورتها ، انكشف عليها الغرباء . قلت لزوجتى : ان تعد كيلة حب كى تبيعها ى السوق يوم الخميس ، كانت الارض جرحا ينزف فى القلب . العزاء اننى سأتسلم فى الاسبوع القادم ، ايجار النصف فدان لمدة سنة . طلبت من زوجتى أن تلم لسانها ، والا تذكر ذلك أمام أى أحد من اهل الحارة . ابو السعود ، أتى لى بالامس ، وقت الغروب ، ومال على :

ــ اعمل حسابك فى اتنين جنيه سلف من الفلوس ..

فأولاده وزوجته يمشون بدون ملابس

ــ فلوس ايه ؟

ــ اللى حا تقبضهم من المهندس

ــ يسمع منى ومنك ربنا

ــ أيجار الارض ، من المهندس ، ربنا يوسع عليك ..

صحت فيه : لن اقبل مليما ، سأشكو للعمدة والمركز ، وسأرسل تلغرافا للرئيس ، وقلت لنفسى : ان الخير قد يكون مع المشروع ، وقررت ان ابيع النصف فدان بألف جنيــه ، لتتكلم النـاس ، ساخاصم كل الناس ، لن ارمى السلام على أحد ، سأدير وجهى

ان قابلت اى رجل ، سـاخاصم الجسر والعشة والجامع ودكان المعلم يعقوب ودوار العمدة . السوالم كلها . لا يطمر فيها العيش والملح وتهون عليهـــا العشرة . أحلف . بتربة أبى ، والمصحف اشريف ، ان أرضى لن تبوح بسرها لأحد ، ولولا خوفى من الازمة ، لذهبت اليها فى الليل . وهناك ، ساعرف الامر كله ..

السوالم — بحيرة ..
الخميس ٨ من اكتوبر سنة ١٩٦٤ م

فى الصباح ، قمت من نومى ، غسلت وجهى ، حلقت ذقنى ، تناولت طعام الافطار ، واثناء شرب الشاى ، رحت أفكر فيما سأقوم به خلال اليوم ، وادركت ان ما على القيام به كثير. ارتديت ملابسى ، أمام الخيمة ، عرض على مساعدى ، بعض الخطوات التى تمت ، شرح لى احتمالات المستقبل ، نظرت الى الرسومات والخرائط والجداول والكتابات . كان ذهنى شاردا ، لم أعلق على ما قاله ، طلبت منه ارجاء الامور حتى اعود من رحلتى . ما يهمنى ليس البئر والبترول ، بقدر ما يهمنى الناس ، وجودهم حياتهم ، ما يحلمون به ، ما يرجونه من الايام القادمة ، كان على ان اذهب الى شثمت الانعام وتكلا العنب وايتاى البارود. سأقابل كثيرا من الناس ، سأحدد معهم ما سنعمله . كان من المفروض ان يقوم المساعدون ، بهذه الخطوات ، فضلت القيام بها بنفسى . فى البداية ، كنت اريد ان اكون مشرفا على المشروع ، وامدتنى الشركة بعدد من الموظفين ، ووزعت بيننا الاعمال . بعد حضورى ، وجدت فى السوالم ما لم اسمع عنه من قبل . قررت القيام بكل خطوات المشروع ، لفت نظرى ، ان الرجال ، بحكم تعودهم على المسافات الواسعة ، فان المسافات لا تعنى عندهم شيئا . ان انبساط الارض والحياة عندهم ، وانفساح السماء فى وجوههم ، آفقدهم الاحساس بالمسافات . وكون الايام متشابهة الشكل والحوادث ، جعل احساسهم بالزمن لا وجود له ، ما يحدث اليوم ، هو ما حدث بالامس ، وهو الذى كان يحدث منذ سنوات ، وفى مستقبل الايام لن يحدث سواه . وعندما يسافر احدهم الى البنادر القريبة ، ويعمل هناك ، وتجرى النقود بين يديه ، فانه يشترى ساعة يلفها حول معصمه . انه لا يشترى سوى الساعة ، وهى رمز بالغ الاهمية ، انه دخل مرحلة يحسب فيها الوقت بالدقائق والساعات . ان البنادر مليئة بكل الاشياء ، غير انهم

جميعا لا يشترون سوى الساعات . وذلك اتفاق غريب بين كل الناس .

تسأل عن الضهرية ، الرجل الذى تسأله يقف مكانه . يضع يديه فى جيوبه ، يضيق عينيه ، يحسب ، ويقول لك : دى قريبة خالص ، فركة كعب يعنى . الضهرية : على بعد ستة كيلومترات بالتمام والكمال . أجمع ملاحظاتى عن السوالم . لا أدرى لم اجمعها ، امام شكل الحياة أضعف ، اشعر اننى امام شىء عفوى وعظيم . قال لى أبى ، يوم أن تركت قريتنا النائية فى أقصى الجنوب : سافر ففى الاسفار سبع فوائد . لم أفهم معنى الكلمة. الآن ، وبعد سنوات ، أدركت ما تعنيه . ان حياة الناس فى السوالم خصبة وغنية ومليئة بالوعود الرائعة . لقد قررت أن يكون وقت فراغى كله لعمل دراسات عن المنطقة .

سيكون هذا اليوم ، دراسات مبدئية ، عن المنطقة المحيطة بالسوالم ، لن أرجع الى كتب ، ولن أسمع من الناس ما يقولونه. سأذهب بنفسى ، سأقابل من يعنيهم الامر ، سأتعرف بهم . بالامس ، تأكد لى ، بما يشبه اليقين ، ان علاقتى بهذه البلده ، لن تقتصر على البئر والبترول ، أدركت أن هناك علاقة ما ، صلة تربطنى بهذه الارض ، وانه تم بيننا اتصال بشكل أو بآخر من قبل . سأبدأ عملى فى الحفر يوم السبت القادم . ما يهمنى اليوم، أن ادرس جملة أمور ، طريقة الوصول الى المنطقة ، وسائل المواصلات وتكاليفها ، الطرق الصالحة ، امكانية انشاء طرق جديدة ، أو ترميم الموجود منها ، التموين من اعاشة ومواد خام ، حالة العمالة ، عدد العمال ، مستوى الاجور ، مدى استعداد العمال للعمل فى المشروع ، مكان أقرب انتاج زيتى أو غازى . كل الدراسات والرسومات ، التى تمت ، كانت دراسات جيولوجية معملية ، توصلت فيها الى نوع الحفريات ، سمك الطبقات الرسوبية ، مدى وجود صخور خزانية وعمرها . كان التقرير يحتوى على البيانات الجيولوجية والاقتصادية التى امكن الحصول عليها . كان فيه تقييم للامكانيات البترولية فى المنطقة ، وتوصيات عن مناطق اخرى تستحق دراسات تفصيلية . كان على أن أكمل مع زملائى الدراسات النظرية ، على أن نقوم بعمل اللازم لحفر البئر الاختبارية .

فكرت قبل أن أنام ، ليلة الامس ، وقلت لنفسى : حياة الناس

تتحول . قال مساعدى : انه من المناسب ان أؤلف كتابا عن الناس لم يبق أمامنا سوى جمع مادة الكتاب خلال عملنا اليومى . عندما رايت انسياب الاحلام فى العيون ليلة أن كنا على الجسر ، ادركت اننى قطعت منتصف الطريق . فى الليل ، بعد أن عدت من على الجسر ، همست للحوارى : من حق الناس أن يحلموا ، ذلك هو الامل الاخير لهم . وقبل ذلك ، اخذت حب الدين معى ، سرت فى الحوارى ، زرنا جامع سيدى الفريب ، شاهدت المدرسة الابتدائية ، الجمعية التعاونية ، مكتب البريد ، منزل شيخ البلد ، الجرن الواسع ، المقابر ، وصلت الى أول الطريق الزراعى الآخر الموصل الى شثبت الانعام ، قال لى حب الدين : انه يخاف أن اسمع كلام الناس عنه .

ــ الناس هنا أصلها ، ما بتخليش حد فى حاله

حب الدين رجل اعزب ، وكل رجل اعزب فى هذه البيئات الضيقة . مكروه . ولا يطمئن اليه أحد ، انه يشكل امام عيونهم وقوفا فى وجه الطبيعة ، وعدوانا مستمرا على حرمة بيوتهم ولو بالنظرات . قال حب الدين : يوجد فى السوالم عائلتان : فى السوالم قبلى عائلة الدفراوى ، ومنها عمدة السوالمين الآن ، وأمين الاتحاد الاشتراكى ، وعائلة الخولى ، وهى من السوالم بحرى . كان منها العمدة فى الزمان القديم ، وبعد أن مات ، لم تقم لهم قائمة بعده ، واكتفى المركز بأن عين عمدة واحدا له نائب فى السوالم بحرى . قال حب الدين : من اشهر العائلات فى الناحية ، عائلة ابو النيل فى الضهرية ، والمنيسى فى دمبسنا ، هناك عائلات اخرى . أدركت من حديثه ، فهمه للعائلة الكبيرة ، لابد وأن تكون كثيرة العدد ، لا يقل أفرادها عن مائة شخص ، ملك الاراضى شرط اساسى . احيانا يكون من العائلة فرع صغير ، رجل مال به الحال ، وعن طريق هذا الفرع الصغير ، تناسب العائلة الكبيرة ، عائلات صغيرة متطلعة وطموح . لذلك ، قال لى حب الدين : ان السوالم ، قبلى وبحرى ، عائلة واحدة ، وذلك عن طريق النسب ، قصة الحياة ، هى قصة الخلافات بين العائلتين الكبيرتين ، والبلد مكون العائلتين بلا زيادة ولا نقصان . لا توجد عائلة صغيرة ، أو فرد لا تربطه علاقة مع عائلة الدفراوى أو الخولى ، ولا يوجد موقف ثالث . قلت : أن حفر البئر يجب ان يتحول الى تجربة حياة لكل الناس ، تعنى وجودهم . لا يجب ان يتصور أحد ، ان

البترول هبط من السماء ، أو اتى من عند الجن والعفاريت ، يجب ان يدركوا ، انه نبع من حبات قلوبهم ، من تحت جفون العين ، سلمت على الرجال ، دخلت بيوتهم ، شربت الشاى الاسود على المصاطب الصغيرة معهم ، استمعت اليهم ، يقولون حكايات ، كلمات تنسجها الشفاه تبلغ حد الروعة . فى أثناء سيرى فى الحوارى ، مع حب الدين ، وكان ظلام المساء ، يمتص نور النهار ، الرجال يجلسون امام أبواب بيوتهم ، يتكلمون ، سلمت على شيخ الخفر ، ذهبت الى أرض وردانى بعد أستلامها ، عاينتها آثار وردانى فى كل مكان ، اشجار صغيرة زرعها ، تكعيبة عنب ، ساقية ، حديد يحدها من الجهات الاربع ، مربط المواشى ، كوم السباخ على راس الحقل . كان على أن أطلب المنادى . ان أكلفه أن يمر فى حوارى البلد ، ويطلب من الناس الحضور يوم السبت ، التاسعة صباحا ، حيث سيتم أفتتاح المشروع بشكل رسمى ، فى حفل سيحضره كل الناس ، قالوا لى ان المنادى اسمه ابوالسعود ، وانه رجل فكه ، فى الخمسين من عمره ، كان يعمل لحادا من قبل ثم احترف المناداة . لابد من لقاء آخر بينى وبين الناس ، ما اريده هو ان أقترب منهم أكثر ، أشعر بهم ويشعرون بى ، يوم لقاء الجسر ، جلسوا حولى ، صمتوا ، أستمعوا الى ، هزوا رءوسهم ، لم يتكلم أحد منهم ، كان الصمت جرحا شوه طعم اللقاء فى الافواه أغلب الرجال فى هذه الايام من كل عام لا يعملون فى الضحى ، وتكون الشمس قد وضحت للعيون ، يجلسون على الجسر ، بعضهم ينام على الافريز الصغير ، بجانب سوره ، يغمض عينيه ويحلم ، وباقى الرجال ينظرون ناحية السماء الصافية ، يحركون اياديهم ، يطردون بها الذباب من فوق الوجوه ، وتبدو عيونهم المبتلة بالنعاس ، كأنهم لم يصحون بعد من وسن الليلة السابقة ، أو انهم يستعدون لنوم الليلة القادمة . انهم يتثاءبون ، يفتحون أفواههم على آخرها ، فتبدو أسنانهم الصدئة المتآكلة . يرفعون أياديهم فى الهواء ، يمدون أقدامهم حتى آخرها ، انهم يستنشقون رائحة ملل الايام الفارغة . اجلس الآن فى خيمة صغيرة ، يجلس امامى مساعدى فى الخيمة الاخرى ، السائقون والفنيون وباقى العمال ، انهم جميعا متذمرون من الحياة هنا ، يقولون سوء الحظ رمى بهم هنا ، ويتحسرون على كل ما فى البلاد الاخرى ، القاهرة الاسكندرية ، حيث النساء الجميلات ، السيارات ، الانوار ،

علامات الطريق ، الشوارع المغسولة بظلام الليل ، الاحمر والاخضر، ممنوع انتظار السيارات ، مدرسة ، ممنوع استعمال آلات التنبيه الاعلانات ، العشاق فى الشوارع المظلمة ، لم احاول ان اناقشهم . فى لحظة الغسق من كل يوم ، يكتبون رسائل صغيرة ، يرسلونها الى الاهل و لاحباب ، مقربين يوم اللقاء ، ضاربين له موعدا ، الموعد سيتحول الى شيء مؤجل ، وسيظل مؤجلا الى غير ما حد. مشروعى يسير حتى الآن بشكل حسن . فى ليلة الامس حلمت بالدخان الازرق فى السماء ، المصابيح العالية ، الناس السعداء ، قرات خبرا فى جريدة معلقة فى الفضاء عن تسريح جيوش العالم وتحويل الحدود بين الدول الى خطوط وهمية لا وجود لها الا على الخرائط وكان الذئب يداعب الحمل والاسد يجلس وسط الرجال وكانت الشوارع نظيفة لم يكن فى الاتوبيس محصل . صندوق صغير يضع فيه الراكب الاجرة ، الجرائد والمجلات على الارصفة الناس جميعا أمناء ، يقف الرجل ، يأخذ ما يريده ، يخرج ثمنه ويضعه على الارض ، لم أر أقسام بوليس ، ولا محاكم ، ولا قضاة ولا حاكم ولا محكوم ولا مسجون ، لم يكن هناك متسول أو محروم أو باك ، كل ما يطلبه الانسان فى متناول يده ، نظرات الرجال حالمة وادعة . لم تبق أية مشاكل، لا أحد فى السوالم ينتظر مجيء النبى الجديد ، وعلى الحيطان عبارات عن مصر المستقبل ، السعادة ، الاخوة ، المساواة . لا أحد يملك ، الغنى ، الزهد .

فى الصباح ، لم أحك ماشاهدته لاحد ، اعتبرت ان ما رأيته سرى الخاص ، فى هدأة الليل ، أكتب على ضوء مصباح. السوالم كلها تنام ، مكان واحد ينبعث منه نور، عشة سلسبيلة ، انها آخر ومضة نور تنطفىء فى ليل السوالم ، بعد انطفاء نور العشة ، أدرك ان كل شيء نام أخيرا ، الرجال يعودون الى بيوتهم بعد سهر كل ليلة . أشعر ، وأرجوكم الا تضحكوا منى ، اننى قد تزوجت السوالم ، قبلى وبحرى ، واننى قلت لها ذات مساء أحبك ، وكنت صادقا ، كان القلب ظامئا والطريق مجدبا ومكان اللقاء متاهة. الشوق بعيد ، بعيد. وقالت لى السوالم ، وشعرها يغطى الجسد الذى يبدو بياضه من خلف الظلام ، أنا أيضا أحبك ، أقول الآن النعيم ليس شيئا فى العالم الآخر ، حيث جنات عدن والانهار والملائكة ، النعيم يجب ان يكون على الارض ، وان لم يكن موجودا فمهمتنا أن نوجده ، نخلقه ، فى السوالم ، فى الارض

والبيوت ، فى قيعان نفوس الناس البسطاء ، يكمن الجواب على الحيرة والتساؤلات والاتهامات اليومية ومن يبتعد عن هذا البلد ، فلقد قام برحلة خرافية ، بلا نقطة ابتداء وبلا أمل فى الوصول الى مكان ما .

قابلت رئيس مجلس القرية فى ششت الانعام ، سلم على ، رحب بي ، جلست معه طويلا ، حدثنى عن متاعب منصبه ، شربت القهوة ، ان السوالم تتبع مجلس قرية ششت الانعام ، عرضت عليه أفكارى ومشروعى ، حاول ان يعترض ، ثم يرجع الى رؤسائه فى مجلس المدينة ، قلت له اننى قمت بعمل اللازم قبل حضورى وعدتنى بانه سيكون معى . قال لى ان عدم الفهم هو اس البلايا فى هذه البلاد ، الرجال لا يفهمون حقيقة ما يحدث للبلد . التعامل مع الناس شديد الصعوبة . قال الرجل وهو يقف : اي محاولة للاصلاح لا قيمة لها ما لم يتعلم هؤلاء الناس القراءة والكتابة اولا . كرر . القراءة والكتابة قبل كل شىء . اكمل : الايام القادمة ستحمل للبلاد الخير . قال انه يتمنى لابنه الذى يتعلم فى مصر . أن يكون مثلى . قمت معه ، شاهدت الوحدة المجمعة ، زرت المدرسة والمجموعة الصحية والمركز الاجتماعى . ذهبت الى مركز ايتاى البارود ، فى المركز قابلت اكثر من مسئول ، قال لى الشاويش وانا خارج من باب المركز : ان الحال امان . ابناء الليل اختفوا ، الرجال فى هذا الزمان نادرون ، طلب الى ان اطمئن لكل الناس ، لقمة العيش قهرتهم . الناس لاتريد الا ان تعيش فى سلام . قابلت مفتش صحة المركز ، طلبت منه ان يتعاون معى ، ابدى استعداده . فى طريق عودتى بالسيارة . على الطريق الزراعى : كانت سحب الغبار ترتفع وتثور حول السيارة وكنت أفكر فى كل الذين قابلتهم ، أدركت حقيقة هامة : قرأتها فى حياة السوالم ، وتأكدت لى بعد هذه المقابلات الحياة معمرة . القيم والتقاليد رسخت ، وفهم الناس من الصعب احداث تغيير فيه . مجرد تجاوب الناس معى معجزة . القدم اكسب اكثر الاشياء دمامة وقبحا والفة جعلتها تبدو رائعة فى العيون . الناس جميعا . مغروزون فى طين الارض حتى رقابهم ، وعيونهم المثبتة فى الارض تدور فى رعبة : فى كل ناحية . الاختيار صعب . فى صعوبة الموت نفسه . الحياة بشكلها الواحد ، والوجود بثباته ، يثير فى نفسى الفزع . نظرت الى الطريق والحقول والناس ، ادركت ان ما يجول

يقدمني بعد اكتشافا ، قلت ان تدوين كتاب عن الحيــاة هنا امر بالغ الاهمية .

منذ يومين ، قال لى حب الدين ، وهو يودعنى ، عنـد باب الخيمة ، وكنت أستعد للنوم : ان الفلاحين يقلبون الارض فى هذه الايام ، تمهيدا لزراعتها بعد ايام الجفاف وان قلب الارض معناه ان يحلم الناس بالليل . قال لى : اننى قد أحلم ، ولذا فانه من المستحسن ان ابقى فى الخيمة ، مصباحا مضاء اثناء النوم . قال حب الدين : أهل البلد يحلمون الآن أحلاما ســــعيدة . فشكرته . استدار حب الدين ، اشار بيده اليمنى الى البلد كلها :

ــ اهم كلهم بيحلموا

قلت له :

ــ تصبح على خير

وقلت لنفسى : كلنا نحلم فى نهاية الامر

آخر الليل ، فى عشة سلسبيلة

ينصرف الرجال ، يتمنى كل منهم للآخرين ليلة سعيدة « تصبحون على خير » يرددون يقولون كلمات منطفئة ، ينهون بها سهرهم ، يذهب كل رجل الى منزله . لسوالم تكتسب معنى جديدا بالنسبة للرجال ، القمر فى السماء العالية ، يبدو مشطورا ، نصفه فقط ، يرسل ضياءه على البلد والرجال ، وفى الحوارى الواسعة ، يبدو أن الاضواء الشاحبة التى يلقيها القمر هى التى تملأ خيال الناس بحكايات عن العفاريت والجن . وفى الباحات ، أشجار عجوزة ، ترقد ظلالها تحت أقدامها فى سكون . وفى الليالى ، لا يبقى للسائرين فى الظلام . سوى القشعريرة ملء الجسد والقلب والعقل ، صلوات الاستغفار والاستعاذة على طرف اللسان ، ان السكون الرمادى الموحش يصيب الرجال بخوف لايبعث الى قلوبهم بالبرودة والانكماش ، خوف من نوع آخر حار ملتهب ، مرتبط بحكايات سمعوها وهم صغار فى ليالى الشتاء الطويلة ، عن العفاريت وأبناء الجان ، وقد يحلو للرجل أن يذهب الى حقله ، وعندما يمر على آخر بيوت البلد ، تبدو له أشعة القمر الفضية ، تنساح على السهول الواسعة ، وتمتد المسافات ويبتعد خط الافق ، وفى البيوت النائمة ، التى اختلطت ببعضها ، فتاهت معالمها ، وتحولت البلدة كلها الى كتلة من السكون الموحش ديك كبير فى قفصه ، خدعه ضوء القمر ، ونسمة هواء باردة ، فانطلق يصيح ، معلنا ميلاد يوم جديد ، ناشرا الاضطراب والحركة والصياح بين باقى ديكة البلد الاخرى . آخر الليل فى عشة سلسبيلة ، معناه أن ينصرف آخر زبون ، أن يقول الرجال كل ما عندهم ، أن يلعبوا الورق ، ويدخنوا ويشربوا الشاى ، ثم يرين عليهم صمت شفيف ، ولا يبقى امامهم سوى أن ينصرف كل لحاله .

حب الدين وسلسبيلة بمفردهما ، ستبقى هذه اللحظة الصامتة المشحونة سرا خاصا بهما . ينصرف الرجال ، ويجد نفسه بمفرده

معها يجيش وجدانه بأشياء غريبة ، وهما فى العشة ، أثناء جمع أشيائهما ، البراد والاكواب ، الراديو ، الجوزة ، الطبلية . الورق . يدلق مياه باردة على النار المشتعلة ، يلم الحصر . يتحاسب حب الدين مع سلسبيلة ، يحسبان ما عليهما ، ما لهما : يدونان الشكك فى الدفتر ، تعطيه النقود التى معها ، تطلب منه أن يذهب فى الصباح الى ايتاى البارود لشراء المونة ، تعدد له ما تحتاجه ، وفى آخر حديثها : تطلب منه بحروف لينه ممطوطة . ان يشترى لها أشياء خاصة بها ، أشياء لا تباع فى الموالم : ولا تسمع عنها النساء .. أحمر شفاه ، بودرة ، قمصان نوم نايلون ، سوتيان ، وتوصيه ، وتحلفه برحمة من ماتوا ، أن يشترى لها هذه الطلبات بعناية ، وأن يختارها بذوقه ، وهى تثق به .

حب الدين يسير فى حوارى البلد ، سلسبيلة تحمل على راسها قفصا صغيرا ، وضعت به العدة ، وفى سيرهما ، فى حواروى البلد : تنبح الكلاب ، فى الباحات وعلى رءوس الحارات ، يسألهما الخفر . من هناك؟ يمران عليهم ، يرد : انا حب الدين . الخفر جالسون . بنادقهم بجوارهم مسنودة على الحائط ، انهم يتحدثون ويدخنون .

فى الليلة الاولى ، اصطدم ثدياها النافرين بعظام صدره ضغطت عليه ، احتوى ليونة صدرها ودفئه بين ساعديه ، تحولت الاشياء القريبة من عينيه الى بياض فى لون الحليب ، يملأ كفه بغدائر الشعر الليلية ، يمسك يديها بين يديه ، يسيران فى الحجرة

— تتجوزنى ياحب ..

شىء ما ، يبدد بخار الرغبة فى يافوخه ، يفيق ، يحس بدفئها قريبا منه ، يتوقف ، تنزلق الكلمات من طرف اللسان . تنام رموشها على العيون الواسعة .

— بينى وبينك لا ، انما قدام الناس دا لازم يحصل .

تتحسس ملامح وجهه المجهدة بأصابع يدها الناعمة : يقف ، تمشى أمامه ، وحينما تمشى ، فانه يدرك ، أن قدميها تدب على رموش العين ، وتدوس فى حبات القلب فتدهسهما بما فيها ، ولا يوجد فيها سوى بقايا أفراح عجوز صدئة .

— تتجوزنى ياواد ياحب ..

تسكره الكلمات ، تقترب منه ، يزداد ارتفاع السقف ،

تبتعد الجدران ، ويشعر حب الدين باحساس ساخن يحتويه بداخله .

ــ ا .. ت .. ج .. و .. ز . ك

قالت له سلسبيلة وهما يسيران فى حوارى البلد :

ــ دا حرام ، احنا آخر ناس نروح

لم يرد عليها . جال بخاطره احساس بان الله قد تاب عليهما ، عما قريب يعمل بالنهار مثل كل الناس . وقد يستطيع مواجهة نفسه . منذ سنوات خرج من السوالم شاب صغير خجول ، يهيم بعيدا عن الناس ، سافر الى دمنهور . كان يطلب العلم . الرجال والنساء الذين شاهدوا الشاب فى الصباح البعيد ، ما زالوا يذكرون . ان أرصفة الجسر . كانت مبتلة . وان احتمال مجىء سيارات كان ضعيفا . بسبب الشتاء . فى الاجازات . كان الصبى الصغير . يعود الى بلده . يصافح الرجال . يقبله الصبية . يجلس على الجسر طويلا . يقرأ ويفكر ونادرا ما كان يتكلم . بعد عامين عاد من دمنهور . عاش فى السوالم . كانت الحياة بالنسبة له . نوعا من الانتظار المستمر . المعجزة قد تحدث . فى الصباح ينتظر لحظة العصارى ، ووقت الغسق يتمشى بمفرده على الجسر . يجلس على افريزه فى الليل . يدور فى حوارى البلد . ويقف امام دكان المعلم يعقوب ، ثم يعود الى منزله . الليل بالنسبة له رحلة طويلة . يقظة حارقة . يتقلب . يدور حول نفسه . ينقذه من رحلته صياح ديك فى منزلهم . فيدرك انه عائد من رحلته ، القوافل ظمأى ، وينبوع الماء فى السماء التاسعة . الاهالى تدرك انه فشل فى تعليمه . قالوا عنه . ذات مساء . انه مثل التى رقصت على السلم ، بخته مايل ، من ظلم ابيه الناس . الله يمهل ولا يهمل . الفقراء أكدوا ان والده سيترك له أرضا . وفى هذا الكفاية ..

شاهدها لاول مرة فى ايتاى البارود ، اقترب منها ، اصطدمت نظراته برموش العين السوداء . ونسجت الشفاه كلمات عذبة غير مسموعة . سكر ، آه لو استطعنا ان نمسك النجوم بأيدينا المشوهة الاصابع ، او نصنع بها من حبات العيون والقلوب أكثر العقود حلاوة ، او تغسل بدموع القلب كل الاحزان . سلسبيلة لا اضع نظارة على العينين ، ولا ارتدى بدلة انيقة ، كما يفعل

اهل البندر ، غير اني أستطيع احيانا ، أن ارص الكلمات . ملساء ناعمة ، ويكون فى الاعماق عندئذ ، شىء هادر ، فى عنف حركة الاشجار العجوزة فى الحقول وقت هبوب الرياح .

فتحت سلسبيلة الباب ، دخلت ، اشعلت المصباح الصغير ، وضعت « القوالح » فى المنقد ، دلقت عليها الجاز ، أشعلت النار. راحت ترتب المنزل ، خلعت شبشبها ، احضرت البخور ، وضعته فى النار ، لا عبق البيت برائحة محببة الى نفس حب الدين ، تذكره بآخر الليل . امسكت بذيل جلبابها ، رفعته ، خلعته ، اصبحت امامه بقميص النوم ، ترك جسمه يتهاوى الى الارض ، جلس فى احد أركان الحجرة مستندا الى الحائط ، اغمض عينيه نصف اغماضة . وفى الخارج ، الف الف عين تحدق فى منزله ، جفت بها المضاجع ، تركت نومها ، لدى سماعها صوت بابه وهو يفتح ، ألف الف أذن تسمع أقل حركة ، حتى عيون السواقى ، واوراق الاشجار ، ونصف القمر المشطور ، خيمة الضوء الشفيف تغطى البلد ، تعرف حكايته ، تحسده على سلسبيلة ، تذهب الى دوار العمدة ، تشى به ، تقول ما تشاء قوله ، ترسل الى المركز الشكاوى ، تجلس بجوار الشيخ محمود بعد صلاة العشاء ، تطلب منه أن يقوم المعوج ، ويرشد الضال .

— واد ياحب ، مالك الليلة ؟

جالت بخاطره رغبة ، كان يريد ان يسمع اسمها كاملا . سلسبيلة على الله ، سلسبيلة على الله . تذكر الماء والظمأ . والقوافل العطشى ، وكراهية أهل البلد له ، ونظرات حبها كأول وآخر امل له فى الحياة .

— واد ياحب ، انا سلسبيلة ..

اطل عليه عصمت فهمى النجعاوى ، أصدق آمال العمر ، الامان والعمل والخير ، ذات مساء . قال له المعلم يعقوب : ما من أحد يضمن الدنيا ، يجب أن تتغدى بها قبل أن تتعشى بك . قال له : فى الارض قيود تربطه بالبلد . الدنيا مليئة بالاشياء الجميلة ، اقاؤه بالمعلم يعقوب هو السبب ، لا يذكر متى تم ذلك . يذكر انه قال له : ان بيع الارض من أسهل الامور ، وقال له المعلم يعقوب ، وهو يأخذ منه الارض قطعة ، قطعة : أحب كارهك . بارك لاعنيك ، اذا ضربك أحد على خدك الايمن فأدر له الايسر. وفى حجرته الصغيرة ، شرب لاول مرة ، وكان ما سمعه منه

يومها . ما دامت اهدافنا شريفة . فان كل ما نقوم به مشروع ، ولا احد من حقه ان يتدخل فى شئوننا . قال له : ان المصريين لم يأخذوا من الارض سوى الشقاء . أكد له المعلم يعقوب : انه يحبه لحد الجنون ، وانه أرجل اهل السوالم . حب الدين يسمع كلاما جديدا . فشلت فى تعليمى يا معلم ، وطعم الفشل أمر من العلقم ، الشماتة تكوى القلب والمستقبل مظلم . رد عليه المعلم يعقوب : العظماء دائما يفشلون فى البداية ، وانه لا يجب عليه أن يهتم بمثل هذه الامور .

عندما وقف حب الدين يوم السوق ، على الجسر ، يبيع أول قطعة من ارضه للمعلم يعقوب . لم يقل له احد ان فى باطن أرض السوالم يكمن السر والخلاص ومعنى الحياة ، استسهل بيع الارض ، وفى كل مرة ، كان يوقع عقد بيع ابتدائى ، كان يتذكر والده ، ويتذكر ان الناس قالت عنه ، انه ظالم ، وان هذه الارض اتت له بلا متاعب ، وبنفس الطريقة ، فان الارض تضيع ، وفى كل مرة ، كانت صورة ابيه فى ذهنه تزداد تباعدا ، ويحيط بملامحها ضباب جديد . اخوته الذين هاجروا الى البنادر ، يرسلون له الرسائل ، خطابات تحمل اختاما سوداء ، الارض التى تبيع فيها ليست ملكا لك وحدك . اوقف كل ما قمت به ، اى اجراء باطل ، سنقاضيك ، احترم ذكرى والدك ، ليس من حقك ولا من حقنا ان نتصرف فى شبر واحد من الارض .

ان سلسبيله تقف نصف عارية ، امام حب الدين ، بياض الجسد يبدو شديد الوضوح من تحت القميص الشفاف ، وعلى الكتف ، كتل الشعر الليلية ، وفى العيون وسن لذيذ . سلسبيله تمد يدها اليه ، وفى يدها الاخرى طبلة صغيرة .

— واحده ونص ياحب . .

ترقص ، تحيى جمهورا لايراه سواها ، تستعيد ليالى مضت ولن تعود ، وتحادث اناسا تراهم فى جو الغرفة ، تغنى كلمات عن النصيب وزمن السفر والترحال ، وتقول وقد اسكرها الليل ، رايها فى اهل البلد .

ذات مساء ، استدعى العمدة حب الدين الى دواره ، طلب منه ان يطرد الخاطئة التى أحضرها من البنادر . الناس عائلة واحدة أهل ، ووجود هذه المراة خطر . الرجال اكلت وجهه والالسنة لا ترحم ، انه يحدثه الآن بالحسنى ، كذب ، اخبره انه تزوجها

على سنة الله ورسوله ، عقد القران فى طنطا ، فى مسجد السيد احمد البدوى ، وهو راض عنها ، أخرج العمدة من جيبه عريضة كبيرة ، عليها آلاف التوقيعات . لذا فنحن نفوض الامر لك ، فى هذه المصيبة التى ابتلانا الله بها ، فأنت ولى الامر فينا. ان مجرد وجود هذه الفاسقة فى بلدنا ، دلالة غضب الله علينا ، واقبلوا التحية . قال للعمدة يومها ، سلسبيله هى آخر ما يملكه ، الرسمال الباقى، وان من ينظر اليها ، سيفتح بطنه بمطواةحادة . لقد أدرك ان البيت لم يكن يمنحه الامان ، كان يذكره بأنه ضال. وعلى أجنحة الليل ، كانت تسبح المخاوف والاحزان ، وعندما يموت الليل ، يرسو الذبول والاحلام المحنطة والامانى المذبوحة ، تبقى معلقة فى عينيه وقلبه حياة لن يحياها أبدا .

تستدير عطيات ، تبدو ثنية الفخذ واضحة ، تسير بغنج ودلال . يشم رائحتها ، ويتذكر السهر الحارق فى لياليه الاولى معها . سكر ، عطيات ، جسدك ينبوع الحزن ومتاهة الشوق واخدود الرغبات المحمومة . انت يا سلسبيله الامل . تقبل عليه ، يعلن الجسد عن شكله وتفجره ، من خلال الملابس الشفافة .

حب الدين يأخذ الطبلة من سلسبيله ، وسلسبيله تقعد أمامه ، وقد لفت حول وسطها لاسته البيضاء ، كى ترقص له وحده . انها تخفى فى صحارة ملابسها بدلة رقص قديمة ، لفتها بعناية . داخل جريدة ، اقسمت بأنها لن تلبسها الا فى ليلة الدخلة ، يوم ان تتحقق الاحلام ، ليلة أن يتزوجها حب الدين ، يحبها لدرجة الجنون ، انها كل ما فى دنيـــاه . وبعد الحصول على الوظيفة الجديدة ، سيتزوج فورا . والا فمرحى يا ليالى الفرسان المسحورين ، حيث السفر والترحال . صدقته ، قالت انها تحبه، لم تكن صادقة فى كلامها ، كان القلب ثملا بذكرى عصمت وحارة باب الوداع والشاب المنتحر حب الدين يضع الطبلة بجواره ، يمد قدميه ، ويتذوق على مهل ، حزن السنين القديمة . سلسبيله تمشى الآن فى الحجرة ، ورائحة احتراق البخور تزحم أنفه ، ورموش حب الدين تنام على عينيه . وفى أعماقه تنتشر أخاديد المرارة . فىالليلة الثانية ، اقتربت منه ، سكر، ووجدغابة الجوزة بين شفتيه .

ـ شد ، شد ياواد ياحب ..

شد كما قالت له ، واستمر ، وطقطقت النار فى الحجرة ، فتح

فمه عن آخره ، وخرجت كتلة من الدخان الازرق الغامق ، احس ببخار دافيء يصعد الى يافوخه ، ونبتت بين أصابع قدميه حبات عرق دافئة ووهنت دقات القلب ، لم يعد يشعر بها ، وفقد السيطرة على اطراف جسمه . الغابة تندس بين الشفتين مرة اخرى ، اطبقت الشفتان على الغابة بعصبية ، خرج الدخان من فتحتي منخاريه ، صعد البخار الساخن ، انفكت عقدة اللسان ، زاغت النظرات ، واحس ان جسمه ينصهر ويعود الى أصوله الاولى ، شعر برغبة فى الضحك ، فاستلقى على ظهره وضحك ، اهتز الجسم كله من شدة الضحك . قامت سلسبيلة ، وقفت ،

بدت له فى نومته ، مساحة هائلة من اللحم الابيض ، بدى له صدرها العريض ، يسد الحجرة ، سارت ، تحركت فى الحجرة . وقال لنفسه : يوجد هنا كنز الكنوز ، وبين طيات اللحم يكمن السر ، الدنيا لم تخلق الا للراحة والنوم والاسترخاء . العمل جنون وعبودية ، وقرر بينه وبين نفسه الا يقوم من هنا ابدا ، وان يظل هكذا ، حتى آخر ايام العمر ، حتى آخر أيام العمر .

ـ تعالى جنبى ياسكر ..

لن ترد عليه ، لن تقترب منه . السكر والرقص والتوهان وتداخل الاشياء ، شواطيء أمان لن يصلا اليها الآن . انها تريد ان ترقص ، أن تطير ، أن تدور فى الحجرة ، تدوس على الارض ، وتحمل السماء فوق الراس ، وبعد أن تحيى الناس ، وتسمع كلمات الاعجاب ، تأتى أليه ، تمنحه كل مايطلبه . شعرت سلسبيله بالاهانة ونظرت إليه بدهشة ، كانت تريد ان تسمع غناءه ، كلماته الموشاة بالوجد ، المبللة بالوصال . وتنام فى آخر الليل على وسادة الصوت الحنون . حب الدين يشير اليها ، يطلب منها أن تجلس بجواره ، أن تنام ، ان يغوص رأسه الملتهب فى لحم فخذها الابيض ، أن تنام يدها البضة على جبهته الساخنة ، ويسمع منها حكايات آخر الليل .

ـ يا سلسبيله ..

سلسبيله كما هى ، وهو لا يجد فى نهاية الامر سوى نفسه ، انه يريدها بكل قطرة من دمه ، بكل نفحة هواء ساخنة فى اعماقه يشعر بضعف يسرى فى نفسه . ويوم أن عرض عليها أن تعيش معه فى البلد ، قبلت ، منحته كل ما قضى العمر يبحث عنه ، وقال لها : انت أحلى من على الارض ، الله لم يخلق الجمال الا ليكون

احدى صفاتك ، ردت عليه : وانتَ أعظم رجل قابلته فى حياتى .
ـ مالك ياحب
رشف بلسانه طعم الوفاء ، وشم رائحتها . الكلاب تنبح فى الخارج نباحا متصلا .. احتضنها .
ـ الكلاب ماسكه الليلة ، لازم فيه حاجه حا تحصل
افهمها ان الكلاب ترى ما لانراه نحن وان الله قد اختار لها ذلك لانها لا تستطيع أن تبوح بالسر . قالت له سلسبيله انها معه مهما حدث
ـ سلسبيلة .
ـ حب .
كان يود ان يسالها ، هل ملت معاشرته ، هل سيعود ذات يوم ليجدها قد ذهبت (وقد يحدث هذا) . كان يدرك أن نصف كلامها كذب ، ولكنه كان يقنع نفسه انها الصدق نفسه . وهو معها كان يحس بخوف ، كان يود أن يدخل بداخلها ، حتى يحتمى بها . وكانت كفاها تدوران على ظهره ، تمسح عنه الاكاذيب والخوف والقهر، كفاها لا تغطيان ظهره كله ، هناك مساحة عارية، معرضة للضرب والطعنات وشك الابر وقرص الاصابع . كان احيانا يغرق فى عرقه ، وكان يحاول ان يبتعد ، وهى اسفله ، ينظر الى الامر ، فيجد ان تحته فراغا عميقا ، وكان يخاف السقوط . فكل شىء ، حتى حبات العرق على الجسد العارى تشير الى اسفل . وقال ان عدم وجود الرغبة فى شىء ما ، هى خير وسيلة لامتلاكه : وان الخوف من الفقر ، هو تسليم اكيد بأننا نفقد العمر فى معارك صغيرة ، سمع ما يقوله الودع ، وقرأ بخته ، وقال لنفسه :
ـ ليرحمنا الله ، فليس لنا الآن سواه .
حب الدين يقف ، يفتح عينيه عن آخرهما ، يخلع بقايا ملابسه، ويتجه مع سلسبيله الى الحجرة الداخلية ، واضعا يده على ظهرها ، وهى تنظر اليه ، وأصابعها البيضاء الصغيرة ، تجوس خلال شعر صدره الغزير .
ـ الا ابوكى كان اسمه ايه يابت .
لا ترد عليه ، تجلس ، تبتسم له ، تبدو البسمة كوعد بدنيا لم يعشها بعد ، وسكر بعيدة نائية ، وليطلق سهامه وينطلق ، فهى تبتعد عنه وهو يجرى ويجرى .
فى الايام الاخيرة ، كان يلتصق بها ، وعندما يكتشف جزءا من

جسمه بعيدا عنها ، كان يفزع ، ويقترب من احضانها اكثر يمسح بلسانه يدها وصدرها ، ويمرغ عينيه في جسمها . لم يكن يدرك أن الحب العنيف معناه ان العلاقة تعيش نوعا من التحول الى شكل آخر . كان يخاف من الكذب والقهر : انه يطلب نوعا جديدا من المياه يغسل به الحياة من حوله ، قالوا له ، هذا النوع من المياه غير موجود ، وقد يطلع من باطن الارض ، او يهبط من السماء فجأة دون موعد .

كانت أيامه معفرة الجبين ، مشروخة ..

على الطريق ، نقاط العرق ؛ علامات القدم الحلو ترشده . وفى الخارج ، كل البلد تعرف ما يحدث ، أوراق الشجر ، مياه الترعة ، مناقير الجنادب ، عيون الحيوانات النائمة فى الحظائر ، فوهات بنادق الخفراء المسنودة على الخوائط يأكلها الصدأ . يتذكر وعد الزواج ، ويطلب منها بفم غير فمه ، أن تتعرى « كما ولدتك امك بالتمام » تقوم ، تخلع قميصها ، تفك شعرها الاسود . حب الدين يقترب من سلسبيله ، وفى سيره البطىء اليها ، فان ظله يستطيل خلفه ، راسما على أرض الحجرة خطا متعرجا كطريق الثعبان .

ومهما فعل ، فانه لا يضاجع فى نهاية الأمر ، سوى نفسه .

قال المهندس : أما بخصوص الاخ للوم ، نظرا لخبراته السابقة حانستعين به فى مشروعنا ، رئيس شئون العاملين ، بصفة مؤقتة ، يهمنا اساسا الكفاءات بصرف النظر عن أى اعتبارات ، عرف المهندس من الانفار ، انه لن يتعاون معه احد الا عن طريق للوم . الايام بلا عمل ، لايوجد فى البلد نفر واحد غير مدان للملوم ، ولا يستطيع العمل الا عن طريقه .

فى كل مساء ، يجلس للوم ، على المصطبة ، أمام منزله ، يحصى فى ذهنه الانفار الذين يتعامل معهم . يعرفهم فردا فردا ، يحصى من يتعامل معهم من أصحاب الاعمال والاراضى ، للوم نادرا ما يدون اسماء فى أوراق معه ، عقله دفتر . ما رآه للوم فى حياته علمه الكثير ، واهم ما تعلمه الا ينسى ابدا .

فى البداية ، كان عمله صغيرا ، نفرا او نفرين ، يؤجرهم اصحاب الاراضى ، الذين لا يعملون بأيديهم فى حقولهم . سماه الناس ، الخولى للوم . بالليل ، يمر على الانفار « الرجل بعشرة قروش ، والصبى بستة ، والقبض آخر الاسبوع» . اهالى السوالم يتذكرون منظره أيامها ، كان شابا خجولا ، لا يدخن ، فى يده خيزرانة ، يضع يده اليمنى فى فتحة جلبابه الزفير ، يسير فى الحوارى ، يقف أمام ابواب البيوت ، يقول : يا ساتر ، يخرج طفل صغير ، يسأله عن ابيه ، يخرج من الداخل صاحب البيت ، يقول : اسم صاحب الحقل الذى سيعمل فيه ، وميعاد العمل ، يطلب منه ان يأخذ معه طعام الغداء بدلا من الرجوع الى البلد وقت القيلولة . أحيانا يطلب منه الانفار ، جزءا من الاجرة ، فيعطيهم مايطلبونه ، اللقاء أمام مسجد سيدى الغريب فى الصباح ، البركة فى البكور. قبل ان تشرق الشمس ، يلتقى للوم مع الانفار ، يتجهون الى مكان العمل . فى الحقل يستبدلون ملابسهم بملابس الشغل ، يلفون الاكل بالملابس ، ويضعونها فوق افرع الاشجار ، ينتشرون فى الحقول الواسعة ، يقف للوم وراءهم ، يلاحظ عملهم ، فى آخر النهار يعودون الى البلد .

النــــاس ما زالت تذكر نجاح الملوم السريع ، يلفت نظرهم ، ملابسه النظيفة ، الســاعة التى يلفها حول معصمه ، الجزمه ام استك ، الشراب الاحمر ، الطاقيــه الصــوف التى اشتراها من المحلة الـكبرى ، الصديرى الشاهى المعتبر ، تهديده الدائم لـكل من يختلف معه ، كلامه بالفم المليـــــان ، يد الملوم ضاعت منها الشقوق ، فالعز والغنى له علامات يعرفها الناس . النسـاء تقول، تعليقا على غنى الملوم السريع : كل شيء قسمه ونصيب ، وانه لا احد يعرف كيف تسير أمور الحياة .

قال ورداني : الملوم لم يرث من والده شبر أرض ، كل ماكانت تملـكه العائلة ، مساحة منزلهم الصغير ، ومتر فى متر مبنى فيها القبر الذى دفن فيه ابوه . مات أبوه ، وهو يتمنى أن يفتح الله عليهم ، بقطعة أرض ، فالذى يعيش فى السوالم ، دون أن يملك أرضا ، يعيش ويموت ، وهو مقطوع الجذور ، محروم من شيء يحصل عليه الآخرون . الزمان لم يجد عليهم بما يطلبونه ، وقالت أمه : لنا الله .

الحال تسـير بالملوم ، وعندما يســأله احد ، يقول ان الامور ماشيه والحمد لله ، الآتى مثل المنصرف ، وانه يعيش على الكفاف ، ويقول انه راض بعمله ، وبكل ما تأتى به الايام والليالى ، حسده الناس ، ان المزارعين فى البلدان الاخرى يسمعون عن الملوم ، فى مواسم العمل ، نقاوة الدودة ، أو زراعة القطن ، جنى المحصول، تقليع البطاطس ، يهل على السوالم ، رجال عليهم القيمة ، يركبون الركائب المطهمة ، انهم من بلاد اخرى . على الجسر ، يسألون عن منزل الملوم ، يقوم أبو السعود ، لا يتركهم ، يذهب بهم الى منزل الملوم ، على المصطبة ، يجلس معهم الملوم ، الناس تلاحظ ان جسمه قد امتلأ قليلا ، انها ايام الخير . يرحب بالرجال ، يســألهم عن الصحة والحال ، يتمنى لهم محصولا وافرا ، يقول لهم : ان خيرهم خير له ، يعقد معهم الصفقات ، يبدأ الفصال . تعلو الاصوات ، تخفت ، يقرأون الفاتحة . يرفض الملوم أن يكتب معهم اى أوراق. يقول لهم : ان الانسان يربط من لسانه ، كلام الرجاله أهم من أى ورق مكتوب . يشربون الشاى ، يرص لهم ابو السعود المعسل، يدور عليهم بالجوزة ، يحضر لهم المياه الباردة فى القلل المبلة من الخارج ، يقومون ، يعزم عليهم بالعشاء والمبيت عنده ، يعتذرون بأن وراءهم أعمالا كثيرة بسبب الحصاد . يقولون له : ان مقابلته

وصدقه فى العمل ؛ أهم من اى عزومة . ينتهى اللقــاء ، يسمع
هالى السوالم عن الرجال العائدين الى بلادهم ، كلاما عن الموم ،
يقولونه وهم راكبون فوق ركائبهم ، ان ما يميز الموم هو دقته ،
محافظته على كلامه ، رجل سابق لاوانه ، والرجال فى هذا الزمان
قليلون . صيت الموم يطير الى البلاد الاخرى ، والـكل فى السوالم ،
يراقب ما يحدث بعيون ميتة . ذات صــباح ، يشاهد المارون ،
امام منزل الموم ، عمال بياض ، سلالم ، جير ابيض على الارض ،
فتيات يملأن الميــاه من الترعة ، اكثر من رجل فى خلاء بيته ، انه
يعيد ترميم الاجزاء المتهدمة فى بيته ، ويطلى باقى البيت ، تمهيدا
لبناء بيت آخر ، عندما يفرجها الله . قال له : من يحبه ومن يكرهه
« الف مبروك » سألوه : لم لم يتزوج ؟ قال لهم : « لسه بدرى »
لم يزل صغيرا . وتمتى الرجال ، وهم فى الطريق الى حقولهم ،
فى ذلك الصباح البعيد ، أن يجدوا أبناءهم الصغار فى مثل نجاح
الموم : ابنات الصغيرات ، الجميلات على وجه الخصوص ، منت
أكثر من بنت نفسها ، بان تكون من نصيب الموم . عندئذ ، تذكرت
اكثر من فتاة ، ان الموم سبق أن داعبها من قبل ، أو ابدى اعجابه
بها ، فى الحقول الواسعة ، فى وقت القيالة ، هذا كله ، كان فى
الايام الخوالى . تغيرت الحال الآن .

مشاريع الموم تعددت ؛ وحسب له ابو السعود كل شىء ، وقال
عنه الرجال ان مكسبه فى اليوم الواحد لا يقل عن خمسة جنيهات
مصرية ؛ النقود سرعت الولد ؛ فأصبح كل وجوده من اجل الحصول
على مزيد من النقود ، يصل الى السوالم ، مندوب من جناكليس ،
مجموعة من الافندية ، يركبون ســــيارة مكتوب عليها « محافظة
البحيرة » . يسأل القادمون عن الموم ، يتركون السيارة فى أرض
الوقف ، يسيرون على اقدامهم ، أول مرة ، تحضر فيهــا سيــارة
حكومية ، لا تسأل عن العمدة أو شيخ البلد ، تذهب من فيهــا
الى الموم .

فى منزل الموم ، السلام والتحيات والتعارف ، كما يفعل كبار
الموظفين فى البنادر ، والطريق من الحجرة الضيــقة ، المفروشــة
بالظلام ، حتى المندرة البيضاء ، المزدانة بالرســومات الرائعة ،
حيث يجلس الموم ؛ خيوط من نظرات الرجال المحيطين بمنزل الموم
الموم فى سعادته ؛ ينسى انه عمل فى حقول الناس بأربعة قروش فى
اليوم ، ايام بطولها ؛ قضاها محنى الظهر ، الخطوط بلا نهاية ،

يبتعد خط الافق كلما قترب منه . والشمس الحارة . نجلد ظهره بسياط لاذعة . سنوات عمره الاولى . الجراح فى الجسد والقلب . الامنيات المستحيلة التحقيق . رائحة التخديعة فى بيوت الفلاحين تملأ خياشيمه فى ليالى الحرمان : شكل النقود الذى لم يكن يدركه جيدا . قلب الجلباب أربع مرات ، قال للوم لأمه . ليلة الامس : ان أهل السوالم كلهم كلاب ، نظر من نافذة حجرته ، وكان الوقت مساء ، نادى أشجعهم أن يخرج اليه . وسيقطعه الف قطعة . قال لأمه : انه كثيرا ما كان يسخر من حب الدين : عندما يتكىء على افريز الجسر . ناظرا الى كل شىء فى صمت . قال لأمه : انها لابد وأن تنعم بحياتها ، لابد وأن ينتقم من أيام الجوع والعرى . كثيرا ما بكت امه ، قالت انها لا تصدق عينيها ، ما تراه أمامها كثير . كثرة النقود تخيف مثل قلتها . قالت له . ذات ليلة شتوية : النقود هى كل شىء ، الانسان يستطيع أن يشترى بها البسمة على الشفاه ، والدمعة فى المآقى ، رجفة الحب فى حبات القلوب ، النقود ثم النقود ، ثم النقود .

– هود يعيب الراجل الا جيبه فى الزمان ده ..

قام للوم ، احتضن أمه ، قبل يدها ، قال لها : آمين . وقال لنفسه . ن كل شىء ممكن فى هذه الايام .

قال وردانى : دا الواد لقى لقيه .

قالت سلسبيله : راجل ولا كل الرجاله

قال حب الدين : الزمن دا زمن الكلاب ، زمن السرقة والغش والخداع .

قال العمدة : لازم اعرف دا حصل ازاى ، الفلوس دى جت منين ؟

قال ابوالسعود : اسمعونى ، كلكم مجانين ، الحكاية انا الوحيد اللى أعرفها ، سأحكى لكم الحكاية من اولها ، اصلها وفصلها ، الناس اسرار ، والفضيحة مكروهة من جميع الناس ، ما حدث مع هذا الولد ، جعل القلب يفيض ، السكوت حرام . يقول ابوالسعود كان من عادة أمه ، بعد وفاة ابيه ، أن تذهب الى منزل الصراف فى نكلا العنب ، تكنس وتغسل وتمسح ارض المنزل ، تروى الزرع فى الحديقة ، تلاعب الاطفال الصغار ، تشترى الخضار والفاكهة من السوق والجرائد اليومية من كفر عوانه ، هاتى ميه يا ام للوم ، حاضر ، اغسلى ، حاضر ، اطبخى ، حاضر ، اكوى ، حاضر ،

قشرى البامية ، حاضر ، خرطى الملوخية ، حاضر ، نشى الطير ، حاضر ، اقفلى الشبابيك ، حاضر ، سوى السرير ، حاضر ، هوى اوضة الجلوس ، حاضر ، امسحى الخشب ، حاضر ، اروى الزرع . حاضر . حاضر . حاضر .

الرجال يتحدثون ، الموضوع حكاية الملوم . الغنى والفقر من اهم الامور فى حياتهم ، وحدوثها امر لا يمكن ان يمر بسهولة على عيون وآذان الناس . وتجرح أصواتهم رداء الليل ، ويتنفسون مع الكلمات رائحة الايام الفارغة ، وجفاف الاراضى فى الحقول . لابد وأن يحضر النبى الذى تحدث عنه سيدنا الغريب فى كتابه الذى لم يعثر عليه أحد . يبدأ ابو السعود حكايته فى الظلام ، والرجال لا يملكون سوى الانصات . يقول ابو السعود ، وقد لمعت عيناه ببريق أبيض : كانت تذهب فى الصباح ، وفى المساء تجر قدميها على الطريق الخشنة ، فتتصور انها ربطت بمسامير ، تحاول أن ترفعها ، فلا تقدر ، انها متعبة ، امرأة هدها العمل ، تريد بكل ما فيها من اعياء ، أن تنام فى أى مكان ، لابد وان تعود الى السوالم . أحيانا كان الصراف يطلب منها أن تبيت عنده ، فى تكلا العنب ، بدلا من الذهاب والعودة كل يوم

ــ الملوم لوحده يابيه ، دا عيل ويتيم .

كانت تعود .

معها بقايا اكل ، ملابس قديمة ، لقم مكسرة ، ذات مساء قبل أن تعود ، وجدت خزانة الصراف مفتوحة . أوراق النقود الخضراء والحمراء تملأ الارفف ، المفاتيح بجوار الخزينة ، رائحة النقود تعبق انفها ، رائحة تعرفها جيدا . وقفت مكانها ، شعرت بتنميل فى أطراف أصابعها ، سمعت دقات قلبها ، احست بدقات القلب ، على جدار صدرها الداخلى ، مدت يدها ، لمت أصابعها ، استدارت ، كان الهدوء والصمت والسكون والجدران والنوافذ وباب الخزينة المفتوح ، يهيب بها أن تفعل ، تمد يدها ، بدلا من هذا الموقف البليد .

ــ يارب .

رفعت عينيها نحو السماء ، عبرت ذهنها ألف فكرة ، رفعت يدها ، امسكت رأسها المشتت ، تذكرت كلمات عن الامانة والمعصية والسرقة ، وسماء الله العالية ، والحساب ، رأت بعينيها مئذنة سيدى الغريب ، تطعن الفراغ مشيرة نحو السماء المغسولة

بالحنين والرحمة ، اوشكت ان تتراجع ، تغلق البـاب وتمضي ، انصراف يقول عنها انها امينة .. الامانة من أهم الفضائل في بني الانسان جميعا ، تذكرت المنزل الصغير ، ذهاب للوم ، حبة العين ، الى حقول الناس ، العودة في المساء ، الملابس المرقعة ، مساحات اللحم التي تبدو من تحت الخرق ، أننوم بلا عشاء ، الاكل والشرب بحساب ، السطح الاجرد الذى لا يغطيه عود حطب . الفرن الذى لم تقدح فيه النار منذ ستة اشهر ، قبر زوجها الذى لم تذهب اليه منذ ان دفن فيه ، لعدم وجود ما تذهب به . في لحظة خاطفة مدت يدها ، اخذت ما استطاعت أن تأخذه ، لفته في ملابسها ، خرجت ، اصابتها رعشة ، سألتها زوجة الصراف عما أصابها ، جسمها مازال يرتعش ، وعيناها تدوران ببطء ، قالت انها متعبة . في المساء ، عادت الى البلد . وفي اليوم التالي ، أتى من فتش دار ام للوم ، بعد التفتيش ، اخذوا أم للوم وللوم معهم الى المركز . احتجزا هناك . وبعد اسبوع ، عادا الى البلد .

اظهر التحقيق ، أنه من المحتمل ، أن تكون أم للوم اخـذت النقود ، كل الشواهد تشير الى ذلك ، عدم وجود أدلة ، وعدم العثور على شيء عند تفتيش المنزل ، أقوال الشهود لا تعد شاهد اثبات أو نفي ، ما قاله الشهود ، نوع من التخمين . أخذت ام للوم — يقول ابو السعود للرجال — النقود كلها ، الله وحده سبحانه وتعالى ، يعلم كم مقدارها ، من حقنا أن نتصور ، ماذا سيكون في خزينة الصراف ، وقت الحصاد ، ونكلا العنب ليست بلدا صغيرا ام للوم ، يوم أن حضرت من نكلا العنب ، لآخر مرة ، وهي معها النقود ، كانت تسير ببطء ، تقدم قدما وتؤخر أخرى ، تستغفر ، تطلب الرحمة من غفـار الذنوب ، تذكره بما آلت اليه الحال . جلست بمفردها في منزلها ، وبعد أن نام الجميع في الســوالم ، وانطفأت نجوم الليل ، وهبت نسمات الهواء الليلية ، ذهبت أم للوم ، ومعها ابنها ، الى المعلم يعقوب في منزله ، كانت قد أرسلت للوم سرا اليه ، قال له : ان امي تطلبك في امر هام . وعندما ابدى استعداده ، قال له : ان أمه ستحضر بعد انتصاف الليل . على باب منزل المعلم يعقوب ، نقرت ام للوم ثلاث نقرات ، فتح الباب ببطء ودونما صوت ، دخلت بجانبها ، مرقت بسرعة ، وعلى ضوء شمعة خابية ، في الحجرة الداخلية ، تم الاتفاق ، افهمها ماذا تقول ، ماذا تفعل ، وطلب منها أن تنفذ كل شيء بدقة .

يقول أبو السعود : الصراف دخل السجن ، كان المبلغ كبيرا ، زوجته قررت الرحيل الى بلدها عند أهلها ، وقبل السفر، كان لها مطلب واحد ، حضرت الى السوالم ، زهرة وذبلت ، ولكن رائحتها ما زالت بها ، أنها لا تطلب سوى يمين الله من أم الملوم ، بعد المنازعات والاخذ والعطاء والخوف من اليمين ، وسؤال الشيخ محمود ، قامت أم الملوم ، استحمت ، وضعت ابنها تحت يمينها ، ثم حلفت اليمين فى الباحة الواسعة ، امام دوار العمدة .

الرجال يمصمصون بشفاههم ، ابو السعود يقول لهم : انها بعد ان حلفت اليمين ، ذهبت الى منزلها ، دخلته ، ولم تخرج منه بعد ذلك ابدا ، نزلت عليها النقطة ، وانها الآن لاتستطيع الحراك. المال والمنزل الجديد والجاه ، كل ذلك لا قيمة له امام المرض الذى اقعدها فى الحجرة الداخلية ، يشير ابو السعود إلى السماء ، التى لا يبدو منها ، فى هذا الوقت سوى النجوم « الله موجود » .
الرجال فى حيرة ، وسيظل ثراء الملوم أمرا محيرا ، الرجال يقولون انه الحظ والشطارة ، البعض الآخر يقول انها نقود الصراف ، والبعض الثالث يؤكد انها لقية ، نقود من الذهب كانت مدفونة تحت منزلهم القديم ، وجدوها بالصدفة . يتفق الرجال على أمر واحد ، المعلم يعقوب هو الذى دبر الامر كله ، يده هى التى صنعت كل ما حدث . المعلم يعقوب لا يفعل هذا من أجل سواد عيون أم الملوم ، ولا من أجل الملوم ، ولكل شىء ثمنه .
يقول فتحى سالم ، تعليقا على ما حدث : أبدا ، الكتاب الذى كتبه سيدنا الغريب عن السوالم ، فى الصفحة الاخيرة منه ، ان الايام القادمة هى زمن العجائب ، سيحدث فيها للسوالم ، عجائب سبع ، وبعدها تقوم القيامة . العجيبة الاولى ، ثراء الملوم المفاجىء ، والعجيبة الثانية ، عشة سلسبيله وحب الدين .
ـ اللفندى الباشمهندس ، العجيبة الثالثة ..
يشير الى خيام المهندس النائمة فى أرض الوقف ، والرجال الجالسون حوله يحسبون فى عقولهم عدد العجائب ، ويصيح احدهم : باقى اربع عجائب أخرى ، كى تقوم القيامة .

الملوم يجلس امام داره ، على دكة من الخشب ، واضعا ساقا فوق ساق ، وقد قرر ان يتعاون مع المهندس . وعده المهندس بالكثير ، مرتب ، منصب ، مكتب ، سيارة ، مستقبل عريض .
قال الملوم للذين ارسلهم له العمدة ، كى يمنعه من التعاون مع

المهندس ، انه حر فيما يراه : هددهم باحبار المهندس ، مصلحة البلد تفرض عليه أن يتعاون مع المهندس ، وانه ان امتنع سيقوم أى فرد آخر بذلك ، ولن يتعطل المشروع . فى الايام الاخيرة ، اصر للوم على أن يناديه الـكل ، بسيادة المدير العام ، دون ذلك دنى اوراقه ، وعلى باب منزله ، وارجأ كل مشروعات عمـــال التراحيل التى كان يستعد للقيام بها ، وراح يقضى أيامه البطيئة المرور فى انتظار المشروع الجديد ، قال : أنه لا أحد يعرف أين يكون الخير . ان عيوننا لا ترى ، ولذلك فمن الصعب معرفة النافع من الضار .

يتصور الرجال هنا ، ان سلسبيله هى اسعد خلق الله . شخص واحد ، فى السوالم كلها ، يعرف ان سلسبيله كثيرا ما تبكى فى الليل . تقول له : انها ليس وراءها ما يخيفها ، لم يكن هناك رجل يجرى وراءها ، يسأل عنها ، يطلب رقبتها ، يدور فى بلاد الله الواسعة ، يمسك سكينا يتربص بها ، بين المزروعات وخلف الابواب وعلى نواصى الحوارى ، كى يمسح الخطأ والالم والجراح . تقول لحب الدين ، وهى تبكى : ليس هناك مايستحق اللوم ، وانها تنتظر مشروع المهندس ولولاه لتركت السوالم ، وانها لا تطلب منه سوى أن يترك البلد معها ، فهو خسارة ، الدنيا واسعة ، يدها على كتفه ، ستضعه تحت رمش العين . وفى بلاد الله الواسعة سيجدان الكثير . قالت له : انه لم يجرب أن يكون وحيدا ، لا أهل ولا اصحاب له . قالت انها لم تشاهد اولادها منذ سنوات . تختم حديثها بالبكاء ، تحمر العيون ، وتبدو الخدود متورمة ، وفى الصباح ، تغسل بندى الفجر دموع ليلة الامس ، وتحاول أن تغنى .

ولدت فى حارة قديمة ، متفرعة من شارع محمد على ، بجوار باب الخلق ، اسمها فى شهادة الميلاد ، عطيات . والدها طبال ، يقول عن نفسه : ضابط ايقاع ، أما أمها التى لم نرها أبدا ، فكانت تعمل راقصة .

أحبها ابن الجيران ، كانت صغيرة . أيام البراءة المفقودة ، فى كل مكان ، فى الحارة ، على الناصية ، أمام دكان البقالة ، عند بائع الفول ، داخل محل الكشرى ، كانت هناك عينان فى خضرة البرسيم ، تحدقان فيها . تبعثان لها الوعد والامان ، عيناه ينبوع حزن ، متاهة . قرأت فيهما أشياء رائعة ، الزواج ، الراحة ، الاستقرار . كان صبيا صغيرا ، أقرب الى الطفولة منه الى الرجولة ، قالت لنفسها ، وهى تبتسم له : ضل راجل ولا ضل حيطه . كانت تعيش بمفردها مع أبيها . كرهت الحياة ، والحجرة الضيقة والسطوح والشمس التى ترهقها كل يوم ، غير انها احبت اباها .

فى المساء ، حملت صورة والدها ، وقفت بها فوق أعلى مكان فى سطح المنزل ، صورة قديمة ، تكسر زجاجها ، لا يبدو منهـا سوى شارب كث ، يقف عليه الصـقر . يقول لها والدها : ان هذا الشارب ، من أيام الريف ، أيام الصلابة والعناد ، ذابت فى شارع محمد على أشياء كثيرة . تحول ابن ستيته الى رجل يرقص بالطبلة كالالعبان ، وتتلوى زوجتـه أمام عينيه طوال الليـل بين الرجال . قال لابنته ان امر ما فى الدنيا هو لقمة العيش. قال : وكان لسانه ثقيلا من شـدة السكر : لمـاذا لا يخلق النـاس بلا بطون ، وهل من الضرورى أن نأكل ونشرب ونلبس ؟ لم كل هذا ؟ حملت سكر صورة والدها ، أشـارت الى وجه أبيها ، ان كان يريدها ، فعليه الحضور الى منزلها ، لا تعرف اللف والدوران ، عليه أن يكلم والدها ، ومن ناحيتها هى مستوافق . كان خشب الصورة القديمة ،يضغط على حلمتى ثدييها النافرتين . أحست بأن شيئا ما ، قد نبت بداخلها ، اكتشفت ان مساحة صـدرها عريضة ، وان الامور قد تغيرت ، فرح عصمت ، أشـار الى سماء الله العالية ، وقال ان نجوم الليل شهود على ذلك .

تقول سلسبيله لحب الدين ، وهى حزينة : كان هناك رجل كهل يتابعها ، لم تكن تعرف عمله ، كان فى الجسد رعشة ، وفى القلب خدر ، وفى الصدر وحشة . لم تجد من تخبره ، سـألت الجارات عن عمل الرجل الـكهل ، ابتسمن ولم ترد واحدة منهن عليها بما يفيدها ، فأدركت ان فى الامر سرا ما . وعنـدما كان يسير وراءها ، كان يلذ لها أن تسرع فى سيرها . الرجل يجرى خلفها ، وصوت تنفسه يصل الى أذنيها شديد الوضوح ، أحيانا كان الرجل لا يستطيع السير ، فيجلس على أقرب مقهى ، ينتظرها حتى تعود .

سلسبيله بنت جميلة ، قالوا لها : انها يوم مولدها ، كانت طفلة رائعة ، اختلف أبوها وأمها على اسمها ، كاد الامر يصل الى الطـلاق ، تدخل أهل الخير ، اقترحوا اقتراحا ، أن يدون فى شهادة الميلاد ، اسم غير الاسمين ، ثم تنـادى بالاسمين معا . قال والدها : انه سيسميها باسم أمه فى البلد ، ورفضت الام مرة أخرى . وأصبحت لها ثلاثة أسماء . تعيش مع والدها ، فوق سطح احدى العمارات القديمة . سلسبيله تعود ذات مسـاء ، لتجد حجرتهم الصغيرة مرتبـة ، السرير السفرى فرشت عليه ملاءة

نظيفة ، وعلى الارض حصيرة يجلس عليها والدها ، ومعه الرجل الكهل الذى تابعها كثيرا من قبل .

ــ سلمى على عمك علوانى يا سكر .

ــ بس لو ماكنتش تكبرنى يا أبو سكر ، عمها ايه .

يمد الرجل لها يده ، تسبقه بسمة خربة . يسلم عليها ، يحتوى كفها البضة بين يديه . يجلسون ، الليالى . بعد ذلك ، هى ليالى الرجل الغريب ، الرجل ينفق بسخاء ، ووالدها يشعر ان طاقة القدر فتحت له ، وان الدنيا استجابت لدعائه أخيرا .

ــ يا سكر وافقى بقى .

احست بالهوان ، قالت ان ذلك لايمكن ان يحدث ، تذكرت الشاب الصغير ، عينيه ، شبابه ، مستقبله . وذات مساء ، وهى فى طريق عودتها الى المنزل ، شمت رائحة اللحم والسمن المحروق تملأ الحارة ، فقررت أن توافق . لا تدرى الآن سببا واحدا لذلك عادت بسرعة ، صعدت درجات السلم المتآكلة ، أمسكت بالدرابزين الخشبى عندما أوشكت ان تقع ، كان والدها ينام فى السرير على ظهره ، السرير منخفض من المنتصف ، ولم يكن يبدو اى شىء منه ، عيناه تحدقان فى سقف الحجرة . اقتربت منه ، جلست بجواره على السرير ، راحت تنظر اليه ، أدركت ، الى أى حد ساءت الحال .

ــ خلاص يا بابا امرك ، أتجوز عمى علوانى .

علم عصمت بالخبر ، جرى خلفها ، وضع فى يدها ، فى غفلة من العيون ، ورقة زرقاء مغموسة فى دموع العين . لم يتكلم ، لم تر وجهه « أهلى لم يوافقوا ، ما زلت تلميذا فى المدرسة ، عندما كلمت والدى ، لم يستمع الى باقى كلامى ، وأمى فى ترب الغفير ، والايام صعبة ، سأهيم وحدى كثيرا فى حوارى الحلمية الجديدة ، ليس أمامنا سوى التسليم ، سأهواك حتى تجف الدموع فى العين »

تزوجت ، فى ليلة الفرح ، كانت البيرة تسد عين البحر ، الاكل والشرب ، الرقص حتى الصباح ، الرءوس الدائخة ؛ يقدم لها والدها حجر الجوزة ، به المعسل فقط .

ــ امضى ياست المعلمات .

تضع ما فى يدها فى منتصف الحجر ، وهى مغمضة العينين ، تضحك الرجال .

ــ ابن الول عوام .

ـ ولعى ياست سوسو .

تتمايل الرءوس ، وترقص الاجساد ، وتدور الغابة بينالافواه ، تمتد الاصابع دون وعى ، تمسك آخر الغابة ، تدسها بينالشفتين

ـ كانت ليلة ولا كل الليالى .

تقول سكر : ان عمها علوانى ، أنفق كثيرا فى هذه الليلة ، وان الذينكانوا حولها ، منوها بالميراث ، واستعجلوا موته. قضت معه ليالى مترعة بالاسى ، سبحت معه فى بحار العرق ، لا تذكر سوى النهاية ، تحملته ، منحته كل مايمكنها منحه ، أنجبت منه بطنين ، ولدا وبنتا . البنت فى حلاوة الشهد ، لاتعرف أين هى ؟ طلقت من علوانى . فى حياة سلسبيله اشياء كثيرة ، لا تحب أن تذكرها ، وعندما تحكى قصة حياتها لحب الدين ، فانها تمر عليها سريعا ، يتوقف حب الدين امامها ، ويعاود السؤال عنها . تقول له : انها لا يعجبها هذا التدقيق فى امور عادية . تكمل ، ما أهمية السؤال والجواب ما دام الامر قد مضى ؟ يرد عليها ، بصوت هامس : ما فائدة السؤال والجواب ، ما دام الموت هو نهاية كل النهايات .

الطـــــلاق ، شارع محمد على مرة اخرى ، الليل ، الحجرة الصغيرة فوق السطوح ، ذكرى ليالى علوانى ، لهفة الجســد ، والحنين الى صدر رجل حقيقى ، تذوق مرارة خيبة الاملكل ليلة الحوارى ، الشوارع ، الحارس المتعب المكدود ، النوم يرف فى العيون كطائر حبيس يود أن ينطلق ، نساء شـــارع محمد على ، الاصباغ والالوان والبسمات المترنحة على الشــــــفاه والخدود والحواجب . السكارى ، محاولة تصيد كلماتهم المتناثرة مع هبات الرياح آخر الليل . نظرات الرجال . والدها لا يحضر الى الحجرة كثيرا . وقال لها زملاؤه انه يعيش مع راقصة فى شارع كلوت بك ، لم تهتم بالامر . قالت لهم : انه لابد وأن يعود الى هذه الحجرة قالت : انها لا تحب هذه الحجرة ، وانها لا تقدر على البعاد عنها ، وان أمرها غريب ، فهى المكان الوحيـد ، الذى يدوم لهم فى النهاية . سكر لا تذكر كيف كانت تقضى الايام والليالى . تجلس وسط الحجرات المتناثرة ، فوق السطوح طوال النهار ، تتحسس جسدها ، فتشعر بسخونة وفوران ينبعثان من الداخـــل ، تحن الى شىء ما ، لا تعرفه ، تحادث نفسها ، شكت سوء الحال لاحدى الجارات . قالت لها الجارة : ان الحال عنـــدها أسوا . ووعدتها بعمل ما يمكن عمله من اجلها .

ذات مساء ، طرق باب حجرتها شاب صغير خجول ، مرتبك ، لا ينطق الكلمات كاملة الاحرف . احست انه ما زالت به رائحة الطفولة ، لم يكن قد حلق ذقنه بعد ، ذكرها برائحة ابنها الذى لا تعرف مكانه . قالت لنفسها : الشاب غريب ، أمه ليست هنا حتى تغسل عنه غبار الايام ، بعد انتصاف الليل ، وضع بجوار سريرها كل ما كان معه ، النقود والاوراق والعواطف والاحزان.

تذهب الى الاسكندرية ، تغنى ، ترقص ، تشهد نجوم الليل على العهد والاحلام ، تبحث عيناها عن عصمت ، تتحسس الورقة الزرقاء التى تحمل رائحته ، والتى ما زالت تحملها معها . تقول لنفسها ، فى ليل الاسكندرية : انها فى أيام شبابها الاولى ، احبها شاب صغير ، لا تذكر حتى اسمه .

ــ اسمه ايه يا سكر ، اسمه ايه يا سكر .

رفضت الخروج معه ، قال لها : انه سيقتل نفسه ، ضحكت عليه ، وذهبت الى منزلها . ضرب نفسه بالنار ، أنهى الامر بيده . سكر، انت قضائى وقدرى . كانت الورقة ملوثة بالدماء ، ملقاة بجوار جثته .

عاشت سلسبيله فى الاسكندرية ، تقول لحب الدين : كان امام منزلها مسجد صغير ، الاذان هو كل ما يربطها بالناس ، يذكرها بمرور الايام والليالى . يومها يبدأ فى منتصف الليل . وينتهى فى الثانية بعد الظهر . الحياة كالحلم الثقيل ، والنوم كالاغماء ، اليقظة الحارقة استعدادا للنوم . يأتى الرجال سكارى ، مهزومين تقذفهم السفن والبحار والبلاد البعيدة ، يشربون الدفء المعطر ، تذوب كلماتهم مع صمت الليل ، تقتات عيونهم بالجسد الابيض ، يذهبون ، وعندما كانت تنام ، فان صورة الشاب المنتحر، تأتى، تملأ عليها الحياة ، تصحو مفزوعة ، كرسى ياسوسو ، امضى يا معلمة ، تضع يدها على الحجر ، وكل الناس غرباء ، تسمع أسماءهم ، تعرف القابهم ، تسأل عن بلادهم البعيدة التى قدموا منها ، الامر لايعنيها . ترص المعسل فى الحجر ، تسوى كل شىء بأصابع يدها .

ــ ولعى الحجر دا يا أحسن سكر فى العالم .

يخرج الدخان ، ومع لحظة خروجه ، تدرك ان كل ما فى الحياة ، يتساوى . سلسبيله تقول لحب الدين : لم يكن معها ما يستحق المحافظة عليه وأضاعته ، لم تندم لحظة على شىء

.رطت فيه . اصبحت فى الايام الاخيرة ، لا تذكر حتى وجه ابيها ، او شكل امها . وحلمت ذات ليـلة ، بوفاة والدها ، واحتراق امها . بسبب لاتدريه . وبأن أولادها يخوضون معركة الاستسلام الاخيرة ، فى مكان ما ، من الدنيا . تقول سلسبيله : انها لفت ودارت فى بلاد الله الواسعة ، كى تقابل حب الدين فى النهايه ، كل ما يحدث لنا مقدر ومكتوب حتى قبل أن نولد ، ومهما جرينا كرهنا بعضنا ، فلن نحصل على أكثر من نصيبنا . ان الايام نقضيها بالطول وبالعرض ، وبأى شكل كان .

فى دمنهور ، التقت بحب الدين ، لا تذكر سبب وجودها فى دمنهور ، كانت تلبس بدلة الرقص ساعتها . اقترب منها ، لف وراءها البلد ، قال بصوت عال : انه ابن عمدة ، وانه بلا عمل ، وسيلف وراءها القطر المصرى كله . كان يرتدى جلبابا من الصوف الغامق . على الـكتف عباءة ثمينة . وفى اليد جريدة . وعنـدما وجد نفسه معها بمفردهما ، قال لها دون لف أو دوران :

ــ اسمعى يابت ، ما تيجى معايا البلد .
ــ بلد ايه يا ادلعدى .
ــ السوالم ، قبلى وبحرى .
ــ واسم الـكريم ايه ان شاء الله .
ــ حب .
ــ ايه ؟.
ــ حب الدين سرحان .

استراحت له ، قالت لنفسها : قد يكون بر الامان ، حضرت معه الى السوالم ، سلسبيله تقف على باب العشة ، وهى تدرك ان الليل موحش لحد الموت ، تتحسس الظلام بيدها ، تضحك تغرق فى الضحك . السوالم تشرب ليلهـا الاسـود على مهل ، وسلسبيله تضحك ، تقول لنفسها ، وهى تجمع اشياءها :

ــ الضحك على الشفاتير .
والقلب يصبغ مناديل .

انها تدرك أن كل رجل فى السوالم ، يتمنى ان تمنحه نظرة ، ترمى عليه السلام ، تطلب منه خدمة . خيـوط النظرات التى تربط بينها وبين عيون الرجال ، ليست سياطا من الرغبة ، بل هى نوع من الآمال يلفهـا بداخله . كان ذلك يسعدها بالليـل ،

وكانت تقول : ان كل شيء هنا تحت امرها ، وما عليها الا ان تشير باصابعها فقط .

سلسبيله تجمع اشياءها من العشة ، وفى نفسها خاطر محدد، بأن ايامها انتهت ، الحياة في السوالم انقطع عيشها . كانت الايام ، اياما ميتة . وفى السوالم ، جدلت من الانتظار حبالا طويلة ، علقتها فى السماء السابعة ، وصعدت عليها ، وهناك لم تجد شيئا

العشة خالية ، وآذان العشاء لم يصلها بعد من فوق مئذنة سيدى الغريب ، الرجال الذين ذهبوا الى المهندس لم يعودوا الى العشة . اطفأت الكلوب ، حملت القفص . الشارع الرئيسى والحارات . قالت لنفسها : ان تغيير نظام الحياة ، آذن بانتهاء كل شيء .

فى البيت ، الوحدة والصمت والضوء الخافت . سلسبيلة تتحرك فى الحجرة الصغيرة ، ومن يشاهدها يكتشف ، ان سكر الفاتنة ، التى ملات قلوب الرجال بالوعود ، تسير الآن فى حجرتها الصغيرة ، كامراة كهلة ، تقدمت بها الايام ، تشعر انها لابد وأن تفعل اى شيء ، الايام لم تعد تطاق فى السوالم . فى البداية ، تحملت الفراغ ، الحوارى الجرداء ، البيوت الطينية ، الناموس بالليل ، النوم على الارض ، وقالت من أجل عيون حب الدين ، يهون العمر كله ، لكل شيء حدود . الرجال يمرون فى الحارة أمام البيت ، يشاهدون البيت مضاء على غير العادة ، وفى الداخل ، كانت سكر تنام ، تتحرك ، تحرك يديها ، تعانى هما غريبا . قامت غيرت ملابسها ، تزينت ، وقفت طويلا أمام المرآة ، اطفأت المصباح وجلست فى الظلام . حب الدين لم يعد ، انه مع المهندس فى الخيام ، وهى تنتظر عودته . قالت لنفسها : كان لها عصمت. أحبته فى الزمان القديم ، ومن بعده ، فان انقلب قدمات ، كل ما يحدث لها من حلاوة الروح ، وحب الدين ، هو الذى ايقظ الاشياء بداخلها ، كانت تقول : أن الموتى لا يطلبون سوى الكفن واللحد والرحمة ، غير انها اقتنعت بعد ذلك بحب الدين .

وبعد حضورها الى السوالم ، قال لها حب الدين : انها هنا زوجته ، ويجب أن تعامله على هذا الاساس . قالت ان الكذب هو أحلى ما فى الحياة ، نعمت بالوهم . احست ان الحجرة خانقة صعدت الى سطح الدار ، انها نادرا ما تصعد اليه . وفوق السطح كانت السماء والنجوم ، قالت لنفسها : فلنحلب نجوم السماء ،

ومن حليبها نعجن تراب الارض ، نضع فيه حصوات ملح قليلة ، ونصنع منه لقيمات مكسورة ، مغموسة بالاهانات ، نأكلها معا . فزمن النزوح قد حل أخيرا .

هبت عليها نسمة هواء ، حملت اليها رائحة الارض الشراقى ، والاشجار الخالية من الاوراق والزهور ، لقد أدركت ، معنى ما يقوله الرجال فى العشة أحيانا ، ان الايام التى نمر بها السوالم ، هي أيام الجفاف . يكمل الرجـال ، ان ايام الجفاف قد طالت هذا العام .

يحكى انه حدث فى قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان ، أن كان فى بر مصر ، أم الدنيا ، ملك من ملوك الزمان ، له هيبة وصولجان ، وجند وأعوان ، وان هذا الملك قد دان له كل شيء ، الارض والناس والبلاد والزمان ، وان الناس قد تفنوا به ، وقالوا هو المخلص ، الذى حلموا به منذ آلاف السنين ، ثم انهم عبدوه . وحدث أن أتى رجل من قاع البلاد ، رجل طيب القلب . جميل المحيا ، سمح الخلقة . كانت الشعيرات البيضاء ، تجلل رأسه . قال الناس عنه ، انه حكيم الزمان ، له معجزات عظام ، يقرأ الغيب ، يتنبأ بما سيكون ، يعرف ما يدور فى الخاطر ، يطل على الايام القادمة ، اتجه الحكيم الى قصر الملك ، وكان القصر مبنيا على مكان مرتفع ، وهناك ، فرش حصيرا صغيرا ، وجلس عليه . سأله الحراس عن سبب جلوسه أمام قصر الملك . قال : ان الملك سيرسل فى طلبه ، متى آن الاوان ، وهو هنا جالس حتى يطلبه الملك ، سيجلس حتى آخر ايام العمر . فى اليوم السابع ، أرسل الملك فى طلبه فتعجب الناس من أمره ، ثم ان الحكيم ، الذى كان يعمل فلاحا ، فى أول أيامه ، تقدم نحو الملك ، وقبل الارض بين يديه : « يا ملك العصر والاوان ، انت الذى سجل الناس فى كل مكان احسانك ، لك عندى نصيحة ، ان اخفيتها عنك ، اكون ابن زنا ، وان امرتنى ان ابديها لك ، لا اطلب منك سوى منديل الامان » . رمى الملك له منديل الامان . قال له : وما نصيحتك؟ قال : أيها الملك الجليل ، لقد قال لنا القدماء ، ان من لم ينظر فى العواقب ، فما الدهر له بصاحب ، الملك على غير صواب . الملك انزعج ، واصل الاستماع . ان قوانين قاعة العدل ، قد ألقى بها ، تدوسها الناس بالاقدام فى المحال العامة ، الرجل يضرب أخاه ، فما العمل . انظر ، الرجل يذبح وهو بجانب أخيه : أتحدث اليك ، فهل تسمعنى . اقول ان التحلى بالفضائل يسير وهو محزون لما يحدث ، انهم يقولون : ان العدالة موجودة باسمها اعلم ياسيدى ، ان الملك اذا جعل الناس يخافونه ، دل ذلك على ضعف . يقول ابو السعود : الحكيم قال للملك : أى حال نجد

عليها البلاد الآن ، اوصيك بأمر واحد ، لا تغلق قلبك او عينك او اذنك ، وفى مصر الآن، يزداد الاغنياء غنى والفقراء فقرا . ومن جديد سنسمع عن الذين يقضون ليلهم بغير عشاء . فهل يرضيك هذا .

سمع الملك ماقاله الحكيم، امر بتأجيل الموضوع، فى الصباح ، صاح الملك بالسياف ، اضرب رقبة هذا انغدار ، ارحنا منه ، ومن سره ، امرك يامولاى ، يقول ابو السعود : ان اهل المدينة شاهدوا فى العصر ، رأس الحكيم ، معلقة على باب القصر ، فتعجبوا من احوال زمانهم .

ابو السعود ، رجل طيب ، بعد الاربعين بقليــل ، حرم نعمـة الحياة الهادئة . لم يتزوج الا منذ سنوات قليلة ، ينتسب الى اباء كلهم من اولياء الله الصالحين . يقول ان عائلته فرع من عائلة سيدى الغريب . وان سيدنا الغريب ، قد زاره فى المنام وهو شاب صغير ، قال له : اصبر على الظلم ، فلن يدوم اى شىء ، قال له : انه سيقف بجواره فى نهاية الامر . ابو السعود متزوج من امراة غريبة ، اب لاربعة اطفال . يوم ولدته امه ، سموه مسعد ، قيل للناس فى البلد ، انه بنت ، خوفا من الحسد ، ولم يكتشف امره الا بعد ذلك . لا يعرف احد ، من اين يعيش ابو السعود ، يكاد يستدين المــال من كل من يلقــاه ، حتى من المعلم يعقوب ، رغم انه لايرد ما عليه ابدا . يستعذب الحرمان ، ونادرا ما يشكو حالة للناس . اسمر اللون ، حلو التقــاطيع ، فى اصــابع يده خواتم بفصوص زرقاء وحمراء ، يضع فى قدميه «بلغة سوقى» ، يقول عنها رخيصة وخفيفة . يحمل فى صدره كلمات الله ، لايكره احدا ، يحبه كل الناس ، محفظته فارغة دائما . كل دور البلد داره . وكل حقول البـلد ارضه ، انظف من الصينى بعد غسيله ، غير انه يعود ومعه من خيرات الله الشىء الـكثير ، لا يكره فى البلد سوى الشيخ محمود .

الرجال يجلسون فى حلقة واسعة حول ابو السعود ، اول مرة يجلسون فيها بعد حضور المهندس ، شــغلهم موضــوع البئر . شاهدوا أبو السعود ، امسكوا به ، جلسوا حوله . لم يشأ ان يحدثهم عن البترول والبئر والمهندس ، اختار أن يعيد الى آذهانهم هذه الحكاية القديمة . حكايات ابو السعود لا تنقطع ، وفى كل مرة ، يتساءل الرجــال : من اين ياتى بهــذه الحكايات . الــكل

يعرف ان أبو السعود عنده فى منزله صحارة قديمة ، فيها كتب صفراء ، ورثها عن ابيه ، ويقول الناس سرا : ان الكتاب الذى الفه سيدنا الغريب ، عن السوالم ، موجود فى الصحارة ، ابو السعود يحتفظ به لنفسه ، لانه يعيش منه ، ولا بد وانه ينوى ان يعطيه لابنه من بعده ، هو سر الاسرار بالنسبة له ، ولعائلته كلها . قد يخافون من لسانه ، يعملون له ألف حساب ، ولكن احدا لايستطيع الاستغناء عنه .

ابو السعود ليس شيخا ، وان كان يلف راسه بعمامة ، وينسق ذقنه بعناية ، أنه حليق الشارب ، وذقنه تبدو كخط دائرى شديد السواد ، جلبابه ازرق غامق ، لم يغير لونه . ابوالسعود، هو مستودع الاسرار فى السوالم . الناس تقول : ان ابوالسعود وجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد . يقسم الرجال : أنهم ساهدوه ذات مرة على الجسر ، وأمام دكان المعلم يعقوب ، وعند دوار العمدة ، فى وقت واحد . ومن يومها ، وهم يقولون فى السوالم ، اكثر من « ابوالسعود» . أبوالسعود لايذهب الى المسجد رغم ان الناس تناديه : يا فضيلة الشيخ ، انه يقول : انه اولى بالمسجد من الشيخ محمود ، فهو الوريث الوحيد للامامة فى البلد، العدل والظلم مسألة تحيره . زمن عجيب ، وهو يثق أن سيدنا الغريب ، هو الذى سيفصل فى المسألة ، سيقوم من نومه ذات صباح ، ويتولى الامر بنفسه .

فى كل مساء ، يجلس أبو السعود على الجسر ، أو فى ارض الوقف ، او فى عشة سلسبيله . يحكى الحكايا ، يقص أخبار البلد ، ويوم يذهب الى المركز ، أو تكلا العنب ، فانه يعود ، ومعه حكايا غريبة ، أشياء يقول انها ستحدث ، فى الايام القادمة ، وتأتى الايام ، كى تصدق ما قاله أبو السعود للرجال . وعندما يبدأ أبو السعود فى حكايته ، فان الرجال يقولون : ان فى فمه الف لسان ، وان فى راسه اشياء كثيرة ، وقد يضحك الرجال من كلامه غير انهم يعجبون به ، يطلبون منه أن يستمر فى حديثه . يقولون له : ان خير ما فى هذه الايام هى الحكايا .

فى الصباح ، يخرج ابو السعود من منزله مبكرا ، لاينام قبل منتصف الليل ،ولاينام قبل ساعة القيلولة ، لم يمرض أبدا ، ولم يشاهده احد من الناس فى منزله بالنهار ، يقولون : « فيه شىء لله » ، وان عنده سرا ما من اسرار الحياة . وعندما تحدث فى

السوالم حادثة ما . ويصل الامر للحكومه . وترسل من يحقق فى الموضوع ؛ ويكون الحادث تتلا أو سرقة اوحريق بيوت أو عراكا بسبب المياه . فان القادمين من البنادر ، لايباشرون عملهم ؛ الا بعد سماع أبو السعود . لا يقاطعونه اثناء حديثه . ينصتون له ؛ يسألونه رايه . ويقولون ان رايه هام . يقول عنه بعض الناس : أنه خباص العمدة . ينقل له كل ما يحدث فى السوالم .

ابو السعود ، يتحرك طوال النهار ، فى الحوارى والبيوت . يفسر الاحلام للنساء . يسمع منهن ما يقلنه له . يكتب الوصفات البلدية ، يدخل كل البيوت فى البلد . يدفع الباب بقدمه اليمنى . وبدون ان يأذن له احد ، فانه يدخل . يذهب الى دكان المعلم يعقوب . يشرب الشاى والمعسل ، يذهب الى دوار العمدة ؛ يدخل حجرة التليفون . يلقى السلام ؛ يسألهم عن الحال . يجلس على الارض بجوار الكنبة ؛ يسمع كل ما يقال ؛ ولا يعترض أحد فى السوالم على وجوده . يقول لهم : ان خير ما فى الدنيا . ان تضحك .

ابو السعود جالس على افريز الجسر ، ساهم وحزين ؛ يضع يده اليمنى على خده ؛ ينظر الى الذين يعبرون الجسر ؛ ولا يتكلم ونظراته تدور فى الاركان بسرعة ، يقترب منه اكثر من رجل .

— مالك يا أبو السعود .

— مافيش .

— مالك ياولد .

— قلت مافيش . خبر ايه يا ناس .

يحلف لهم بالطلاق ، الاشيا معدن ؛ الحال عال . حزين لسبب ما . لا يتكلم ؛ يقول لنفسه : مهما حدث ؛ فكرامة الانسان أهم ما فى حياته . ابو السعود ، فى حكاياه عن السوالم ؛ لايبالى . لا يقف أمام الكلمات طويلا ؛ الموضوع عندما يتصل بحياته . يتوقف ؛ وتطفر من عينيه الدموع ؛ حب الدين يقول للرجال : ان اولاد ابو السعود فى المنزل بدون اكل منذ يومين . وابنه الصغير مريض ؛ اوشك على الموت . يتعجب الرجال ؛ ابو السعود رغم الضحك والسخرية ؛ وتناقله الحكايا عن الناس ؛ فان له قلبا .

وفى الدنيا الواسعة ما يبكيه هو الاخر . القلوب تفيض بحنان دافىء معطر ؛ وتسكرها لحظات الحب والوفاء النادر . تذهب النساء الى بيت ابو السعود ؛ ومعهن الذرة والقمح والدقيق

والسمن واللبن والجبن . أبو السعود يضحك من جديد .
ـ الشحات له نص الدنيا .

الليـلة ، بعد ان حكي أبو السعود للرجال ، حكاية الحجم ، وراسه المعلقة على باب القصر . يقول لهم : انه يحزن كثيرا على هذا الحكيم ، ويطلب له الرحمة .

ـ الادى حصلت والا من عندك يا ابو السعود .

ـ الا من عندى .

فى الـكتب كل شيء ، خاصة الـكتب الصفراء ، الحكاية حدثت وكل ما يفعله أبوالسعود ، انه يحكيها لهم . يقول الرجال لأبى السعود : ام لم يرشح نفســه فى انتخابات الاتحاد الاشتراكى ، يبدون جميعا استعدادهم كى يعطوه ما هو اكثر من اصــواتهم . يقولون له : انه يعرف كل شيء ، وخير من يمثل الرجال ، قال لهم اكثر من مرة : ليست له فى هذه الامور ، السياسة لها ناسها ، وهو رجل على قد حاله .

الرجال ، بعد عودتهم الى منازلهم المتناثرة فى قيعان الحارات الضيقة ، يحاولون أن يستعيدوا ما قاله أبو السـعود الليـلة . الـكلمات تتوه ، فيدركون ان ابو السعود رجل غريب . ابوالسعود يكحل عينيه ، وعندما يسأله بعضهم عن السبب فى ذلك ، يقول . أن عينيه موجوعتان ، والده اصابه العمى فى آخر أيامه . من المفروض ان يذهب الى حكيم العيون فى دمنهور ، الحال لا تسمح بذلك . يحرك اصابعه ، كمن يعد النقود المطلوبة لذلك ، يخاف العمى ، وعندما يرين على الرجال صمت ، يتذكرون خلاله ، ان عيونهم جميعا مريضة ، أبو السعود يضحك .

ـ الله جميل ، يحب الجمال ، والـكحل جمال .

زوجته ، الست اصيله ، ليست من اهل السوالم . ذهب فى احد الايام الى دســوق ، مولد سيدنا ابراهيم الدسوقى ، ابو انعينين . مكث هناك سبعة أيام بلياليها ، شعر الناس بالشوق اليه ، والى حكاياه وكلماته . عاد وهى معه ، امرأة ناعمــة ، تغطى وجهها بطرحة سوداء ، وتسير خلفه . أول مرة ، يعود فيها أبو السعود من احد الموالد ، وهو لا يحمل قفصه الصغير ، كان ينادى زوجته ضاحكا :

ـ من هنا ، يا ام أبو السعود .

سأله الناس عنها ، قال انها من أبناء الطريق ، نسل صالح .

عاشت أصيله معه على الخير والشر . الرجال فى الحقول، والنساء فى البيوت ، يحسدون اصيلة ، فابوالسعود فى نظرهم ، رجل طيب القلب ، خفيف الدم ، اصيلة صابرة على ماتلاقيه معه ، تاكل يوما ، وتجوع باقى ايام الاسبوع وتقول : كل شيء ، يهون من اجل سواد عيون ابو السعود .

اصيله تخلع الملابس التى كانت تلبسها ، والحناء التى كانت تصبغ يديها وقدميها بدات تختفى ، ولهجة البنادر بدات تتلاشى من كلامها . انها تذهب الى الترعة ، وتعود ، وتشاهد فى الحوارى . قال ابو السعود ، عن التغيير الذى طرا على زوجته ، ضاحكا : الدنيا قطار قشاش ، لا يترك الراكب راكبا ولا ينسى الماشى ، الحال لابد وان تتغير .

ابو السعود لحاد البلد ، يحيى الليالى فى البيوت ، ويرد النساء دينهن ، بعد اللطم على الخدود وشق الملابس وحلف اليمين الباطل وقول الكذب الابيض . يمسك الذكر ، يحضر الوفاء بالنذور ، يذهب الى ايتاى البارود ، ودمنهور بالشكاوى المجهولة سرا ، يتصرف فيها ويعود . احيانا يرسله العمدة او المعلم يعقوب الى البنادر ، فى مهام خاصة ، يذهب الى منزل المأمور . ابوالسعود يداوم على الذهاب الى الموالد فى الناحية ، وفى ايام زواجه الاولى، كانت اصيله تذهب معه ، وبعد ان انجب اولاده ، واستقرت زوجته ، فانه يذهب بمفرده .

اهل السوالم ، يشاهدون ابو السعود ، ساعة العصارى ، مارا على الجسر ، فى يده قفص صغير ، معه ما يحتاجه فى سفره ، عدة الشاى ، بعض الطعام القليل ، غيارات ، ومعه بعض الكتب القليلة ، نذور طلب منه اصحابها ان يضعها فى صندوق النذور يقطع الطريق على قدميه ، ينام اينما اقبل عليه الليل . يذهب الى سيدى ابراهيم الدسوقى فى دسوق ، سيدى الاربعين فى الضهرية سيدى مسعود فى دمينا ، سيدى احمد البدوى فى طنطا . يعود بعد سبعة أيام ، احظة الغروب . يضع قدمه على الجسر ، يتصنع الحد ، يدوس على ارض الجسر بحكمة كما يفعل الغرباء ، يشاهد واحدا من اهالى السوالم ، يبتسم ، يضع القفص على ارض الجسر ، يعانقه ، يمسح الغربة فى احضانه ، يملأ عينيه بمنظر السوالم والناس ، طفح الشوق بالقلب وفاضت الدموع فى المآقى ، ولا بد من السوالم ، واصيله واولاده واهله ، وذكرياته وحكاياه .

في القفص حمص وحب العزيز وخبز ابيض وطعمية . ابو السعود رغم فقره ، غير بخيل ، يفتح القفص على الجسر ، يخرج مابداخله يعزم على الناس بما معه . يأخذ الناس منه ، يسألون انفسهم ، عن مصدر ما معه . يذهب الى منزله ، يوزع ما بقى على اولاده وزوجته وابناء الجيران . يقول لزوجتــه : كل يوم يشرق على النـــــاس ، يخرج معه ارز قهم ، من يموت ينقطع رزقه . ابو السعود يقول لزوجته : اننا ما دمنا أحياء ، عند شروق شـــمس اليوم ، فسنجد ما نأكله ، بشكل أو بآخر ، يكمل : ليت مشاكل الناس كانت هى الاكل والشرب فقط ، اذن لهانت الامور .

ابو السعود ، يجلس بعد عودته فى وسط داره ، يلبس أكبر ابنائه طرطورا ملونا ، أحضره معه من المولد . زوجته تضع الشاى على النار . يقول لها كوب الشاى من يدها يســـاوى الدنيا بما فيها . يقول لزوجته ايضا : ان الناس يلبسون العرى، ولسانهم قد أصابه عوج ثقيل ، أن الدنيا انقلب حالها ، الرجل فى غير داره لايســـاوى بصـــلة قديمة ، انه لايستريح الا فى هـــــذا المكان البسيط . ودون أن تسأله زوجته ، فهو يحكى لها ما حدث ، ما سمعه ، ماراه أثناء سفرته . انه متعب من الســفر ، ولذا فان اصيله هى التى تحكى له أولا . كل ما حدث وهو فى المولد ، أبو الســـعود ، هو المتحدث فى كل مكان فى المولد . فى بيتــه يكون مستمعا فقط . انه يجلس ولا يتكلم . يسأل زوجته عن الأمور التى ســـافر وتركها معلقة فى جو البلد . أصيلة بارعة فى حكاية الحكايا ، تتكلم باللسان واليد والحاجب ، ورغم انه شيخ ، وهى من نسل الصالحين ، فهى فى منزلها امرأة ، تتابعه ، تســعده بالليل ، وفى النهار ، فهى لا تلبس سوى قميص على اللحم رمش عين الجميل .

أبو السعود يخرج من داره بعد شرب الشــــاى ، يسأل من يقابلهم ، يسمع منهم ، يقول لهم أخبار المولد ، يعرف منهم أخبار البلد ، يمر على النساء اللاتى اعطينه نذورا ، يطمئن الخواطر على وصول النذور ، وانها الآن نائمة تأكل ارزا مع الملائكة فى صندوق النذور . فى المولد ، يلتقى أبو السعود ببعض الناس لهم اقارب فى السوالم ، يحملونه السلام والعتاب والسؤال عن السبب فى الانقطاع ابو السعود يذهب لهم ، يبلغهم السلام ، ويعاتبهم ، ويعظهم ، ويقول لهم : العمر قصير .

يدهش اهل السوالم ؛ فأبو السعود ، بعد رجوعه من المولد ، بساعة او ساعتين يكون قد الم بكل ما حدث خلال غيابه . اهل السوالم يتراهنون ، ان كان هناك ما يخفى عليه . الرجال يقسمون انه يذهب الى المولد ، تاركا عينه ، واذنه فى السوالم ، حتى يعود

فى العشة ، يجلس أبو السعود ، يصل ما انقطع ، يحكى أخبار الدنيا الواسعة . الرجال تنصت اليه ، الدهشة والاعجاب والانبهار من جديد ، الناس تقول : الليالى بدون ابو السعود ، لا طعم لها ، يؤكدون ، انه ملح الحياة فى السوالم .

الرجال يجلسون صامتين ، بعد أن استمعوا الى حكاية الحكيم مع الملك سألوه عن المهندس ، لم تكن عنده رغبة فى الكلام ، قال : ان حكاية المهندس لم تتضح بعد ، فى الامر سر . قال : أهل السوالم . يجرون خلف المهندس ، وانه هو أيضا جرى فيمن جرى . يؤكد لهم ، ان سنوات عمره التى مضت ، والصفحات التى قراها ، وكلام الله الذى يحمله فى صدره ، يؤكد حقيقة واحدة ان الدنيا بكل ما فيها . وكرر : الدنيا بكل ما فيها . لا تساوى ـنا كل ما نفعله فيها .

يقف الرجال حول دكان المعلم يعقوب ، وبعضهم يجلس. أمام الدكان ، دكتان من الخشب القديم ، مستندتان الى الحائط ، وفى مواجهتهما مصطبة ، فرشت عليها حصيرة متآكلة الجوانب. ضلفتا باب الدكان مفتوحتان ، ربطت كل منهما بحبل صغير الى الحائط. على واجهة الدكان ، فوق أطار الباب ، فروع شجرة لبلاب ، مشدودة الى أعلى ، تساقطت من فوقها الاوراق ، فبدت عارية . فى داخل الدكان ، لافتة صغيرة ، بهت لونها الاصلى ، تطلب فى ود ناعم من الزبائن الكرام ، الا يحرجوا المعلم يعقوب « فالشكك ممنوع ، والزعل مرفوع ، والرزق على الله مضمون » .

المعلم يعقوب يتحرك بين البضائع فى خفة ومهارة ، يلبى طلبات زبائنه من أهالى السوالم . الساعة من اهم الساعات فى اليوم ، فيها تكثر الطلبات ، يقبل الرجال ، عادوا منذ قليل من حقولهم ، ومعهم مواشيهم ، بعد يوم من العمل . فى منازلهم ، غيروا ملابس العمل ، وركبوا مداساتهم ، وخرجوا ، بعد أن اطمأنوا الى عشائهم . عند الدكان ، يقفون أو يجلسون ، وبين الحين والآخر، تخرج الكلمات من أفواههم ، يشتد بهم الحماس ، فترتفع اصواتهم ، وتعلو أياديهم . وفى أثناء جلوسهم ، يدخنون ، يلفون سجائر رفيعة من علب دخان صدئة ، وقد يكون مع بعضهم قروش قليلة ، فى جيب حافظته الجلدية ، فيشترى بضائع ، غير السجائر والشاى والسكر ، رطل حلاوة لاولاده ، روح النعناع لزوجته . عبر الشارع ، يمر الاطفال الصغار ، والنسوة والرجال . المعلم يعقوب لا ينصرف الى جلسائه كلية ، بمجرد أن يحضر أحد زبائنه، فانه يصمت ، يترك الجالسين ، يحضر للزبون طلبه ، فالمعلم يعقوب يعرف كل أهالى البلد ، ويعرف طلباتهم . الشيخ محمود، علب النشوق ، أبو السعود ، يسأل عن اللبان الذكر . وعندما يجده عنده ، فانه يهرش بيده فى قفاه ويضحك .

ـ أول ما يفرجها ربنا ، جهز لى ورقة منه .

وردانى لا يطلب سوى باكو الدخان ، ان وردانى يأخذ الباكو

بيده ، يضغط على منتصفه ، يقربه من عينيه :
ــ ما توزن الباكو يا معلم يعقوب ، دا احنا بندفع فلوس .

يحضر المعلم يعقوب باكو آخر ، يضعهما فى كفتى الميزان ، ينظران. عينا ورداني ترسمان وتنخفضان مع حركة الميزان البطيئة . ياخذ ورداني الباكو الاكثر ثقلا . حب الدين يحضر الى الدكان ، ويسلم ويسأل عن الحال ، يسأل المعلم يعقوب عن جريدة ونادرا ما تكون عند المعلم يعقوب جريدة ، فالجرائد تحضر بالصدفة . المعلم يعقوب يعرف ان فى البلد رجالا لا يتعاملون معه او مع اى بقال آخر ، يذهبون الى البنادر ، يحضرون مايحتاجونه. فى منتصف الدكان عمود ، معلق فيه الكلوب ، على العمود والحيطان والكلوب واللافتات والدواليب ، طبقة لزجة سوداء ، فى لحظة الغروب ، الذباب يغطى كل ما فى الدكان . من يمر على الدكان يشاهد المعلم يعقوب ، بيده فوطة كبيرة ، وقد اكتسب نشاطا غريبا على سنه ، المعلم يعقوب يقف فوق كرسى فى منتصف الدكان ، ينش الذباب . وفى منتصف السقف ، سلك مدلى ، فى آخر السلك ، صليب ابيض على لوحة سوداء ، تحت الصليب لافتة سوداء ، مكتوب عليها بحروف بيضاء « الرب معين لى » .

الرجال يجلسون ، يتحدثون عن المهندس والبئر وارض ورداني ينتظرون ان يحضر حب الدين ، والمعلم يعقوب ، لم يعلن رايه فى الموضوع ، رغم انه يمنى نفسه ، بأن يبيع الكثير ، بل يمنى نفسه بأن يفتح للمحل فرعا عند البئر . حتى فى ايام الخريف الجافة ، ثمة مساحات فى النفس للأحلام والمنى ، ورغم جهامة الحياة وتجردها من كل بهاء ، فان الناس يحلمون . المعلم يعقوب يعترف بأن معلوماته عن الموضوع بسيطة . المهندس لم يحضر اليه وهو لم ير اى فرد من العاملين فى المشروع . احيانا يطول الصمت ، وتدور عيون الرجال الصغيرة ، المكتحلة بالصبر والحرمان فى محاجرهم التى بلا رموش . ويحدقون داخل الدكان وسط العشة ، فى أجولة العدس والارز والفول ، وصناديق الصابون وعلب الشاى والسكر . نظراتهم تستقر على المعلم يعقوب وهو يتحرك بين البضائع ، رغم الزحام ، وامتلاء الدكان عن آخره ، فثمة طريق يسلكه المعلم يعقوب ، يعرفه جيدا ، حتى وهو مغمض العينين ، نظرات الرجال تستريح عليه ، يعتقدون فى انه رجل ناجح ، وانه يملك الكثير ، ويدرك الرجال انهم يحسدونه

الحسد حرام ، انهم يتوبون ، ويستغفرون ، ولا يبقى فى الاذهان سوى صورة ملامح وجهه المجهدة ، ابتسامته الدائمة ، سرعة حركته ، ضعف بصره ، النظارة لسميكة التى يرتديها بالنهار فقط . انهم يعجبون به ، ويتساءل كل منهم : لحظة تركه الدكان : لماذا لم يكن من حظه ان يفتح دكانا ، العمل قليل والربح كثير. الرجال يقرون ان الدنيا حظوظ ، يقولون لانفسهم : شاعر البلد لا يسليها . الدكان لو كان لاحد من أهل البلد ، لما نجح ومهما فكر الرجال فسيظل النجاح والفشل ، الفقر والغنى ، اسرار لايفهمها أحد . الرجال عقب تفكيرهم فى هذه الامور ، يرفعون عيونهم نحو السماء ، تتبع عيونهم مئذنة سيدى الغريب ، ترتفع النظرات على قوالب الطوب فيها ، وتصعد معها حتى الهلال الفضى ، وهو اعلى مكان فيها ، منه تنسحب النظرات الى الخيمة الزرقاء وعند هذا الحد ، فانهم يكفون عن التفكير . العبد فى التفكير والرب فى التدبير ، وفى هذا الكفاية .

ذات صباح ، حضر الى السوالم رجل غريب ، استأجر دارا خالية ، سكن فيها . كان رجلا وحيدا ، يخرج فى الصباح ، يدور فى حوارى البلد ، حارة ، حارة ، يجلس على شاطىء ترعة ساحل مرقص ، او افريز الجسر القديم (لم يكن الجسر قد بنى بعد) . يرمى قطع الطوب الصغيرة فى الماء ، يتسلى برؤية تموجات المياه بعد رمى الطوب ، وهى تبدأ كنقطة صغيرة ، ثم تتسع مع تموجات المياه ، وتتسع ، حتى تصل الى شاطىء الترعة الآخر . فى المساء كان يعود الى داره ، يتذكر الناس ، انه كان دائما بمفرده .

« الساعة الخامسة ، لقد حان الموعد . القاهرة ، والساعة بها الآن الخامسة ، الآن تبدأ برامج السهرة ، أيها السادة : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، القاهرة تحييكم وتقدم لكم نشرة الاخبار الثالثة » . ينصت الرجال ، الكلمات الغريبة ، تسقط على الآذان والقلوب فتحدث فيها آثارا جديدة . فترة قصيرة ، ملؤها هدوء مؤثر ، تستأنف بعدها المناقشات الحامية . وقد يطلب رجل مامن الباقين ، ان يصمتوا لدى سماعه خبرا يعتقد انه هام . يعاودون الصمت ، ولا تطول فترته ، اذ سرعان ما يكتشف الرجال ان الخبر لا يعنى شيئا ، وبصوت منخفض ، يخدش أحدهم ستار الصمت . كلمة صغيرة ، ويبدأ الحوار . ان ما يشغل وردانى ، هو الاسماء التى يسمعها ، بلدان ورجال وأحداث ،

اجزاء بعيدة من العالم ، يقول ورداني : انه كان يعرف ، منذ ان ولد ، ان آخر الدنيا من الناحية البحرية هي الاسكندرية ، وبعدها البحر المالح ، الذى يقول عنه الرجال انه بحر بلا شاطىء آخر ، وان آخر الدنيا من الناحية القبلية ، هى مصر ، أم الدنيا فوقها الصعيد البرانى والجوانى . اما هذه البلاد ، التى لا أول لها ولا آخر . البلاد تزداد عددا يوما بعد يوم ، وتزداد اسماؤها غرابة ، مع كل نشرة أخبار جديدة .

ــ همه بيجيبوا البلاد دى منين يا اولاد ؟

ــ دى حاجه تحير والله . .

ــ « شوف ياسيدى ــ قال ابوالسعود ــ فى العالم مائة دولة ، كل دولة منهم قد مصر أربع مرات . أمريكا لوحدها فيها خمسين دولة ، روسيا كمان خمسين دولة ، والا الصين والهند والسند واليابان ، الناس هناك زى النمل ، تقول يا رحمن يا رحيم » .

عيون الرجال تتسع دهشة ، وانفاسهم المبهورة تملأ الصدور. شىء ما ، مدهش وغير عادى ، يثقل الصدور ، الرجال يدركون ان ما يسمعونه فى نشرات الاخبار ، كل وقت ، اسماء لها معناها. العالم كبير ، وواسع الارجاء . قال المعلم يعقوب ، من خلف البنك وهو يعطى البضاعة لاحد الزبائن : ان الحياة فى كل هذه البلاد ليست سهلة بالمرة . ادرك وردانى انه حتى آخر أيام العمر ، ثمة اشياء كثيرة لا يعرفها الانسان . وصمم بينه وبين نفسه ، أن يعلم ابنه ، ولو وصل به الامر ان يبيع نصف الفدان الذى لايملك سواه

فى بعض الاحيان ، يخلو الدكان من الزبائن ، يقف المعلم يعقوب منكئا على البنك ، يبدو متعبا ، وعيناه تدوران فى محتويات محله وقد ينقل شيئا ما من مكانه الى مكان آخر ، يفرغ من عمله ، يقف فى احدى زوايا الدكان ، يثنى جسمه ، يعاود النظر فى محتويات دكانه . يتجه ناحية الرجال ، يفتح فمه ، يتهيأ للكلام : الرجال ينصتون له ، يقول نصائح غالية للرجال . أهل السوالم كلهم أمامه رجال صغار بلا تجارب ، وهو مسئول عن اسداء النصح لهم . ومن المؤكد ، ان أحدا منهم لا يناقشه فيما يقوله . الرجال يهزون رءوسهم ، مصدقين كل ما يقوله لهم . وفى كل مرة ، يكتشفون ان الرجل عاش حياته كلها ، كل لحظة وكل ثانية ، رجل واع وعقر ، لف بر مصر من اوله الى آخره . المعلم يعقوب يسترسل فى سرد ذكرياته ، مغامرات ، سفريات . خرج من بلده

وجيبه خال الا من الهواء ، لف ودار . الرجال يكتشفون ، انهم ينفصلون عن الحياة ، أغلقوا العمر عليهم ، على المكاسب الصماء ، واصبحوا معزولين ، ومع مرور الايام ، ضمرت مشاعرهم ، وضاع من ماء وجوههم سر التجدد الابدي ، جذورهم قطعت ، واصبحت الارض التى ينبتون فيها بلا ماء . والعزاء ، انه فى الاعماق منهم ، بقية من حياة ، موجودة فى قاع وجودهم ، يحسون بومضاتها فى بعض الانفعالات النادرة .

ختـــاما لهذه النشرة ، نعيد على حضراتكم موجزها . انعقاد الاجتماع الاول للمؤتمر الثانى لرؤساء دول عدم الانحياز بالقاهرة ، ٤٨ دولة تشارك فى الاجتماع ، ١٠ دول تشترك كمراقبين .

يذكر اهالى السوالم ، ان مصباح حجرة سيدى الغريب ، كان آخر ضوء ينطفىء فى البلد ، وقبـــل أن ينطفىء ، كان الرجل يجلس ، امامه طبلية صغيرة ، عليها كتاب كبير ، جلده أســود متين . يقرأ بصوت مرتفع . شبـــاب البلد تسمع ما يقرؤه بتأثر عميق ، وبصوت بطىء .

« فى الليل ، على فراشي ، طلبت من تحبه نفسى ، فما وجدته ، انى أقوم وأطوف فى المدينة ، فى الاسواق ، وفى الشوارع ، أطلب من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته ، وجدنى الحرس الطائف فى المدينة ، فقلت أرايتم من تحبه نفسى ، فما جاوزتهم قليلا ، حتى وجدت من تحبه نفسى » .

قال الرجال : الغريب به مس ، خلفه حكاية ، يطول شرحها ، وقال الصبية الذين خانتهم عيونهم ، وسرقت نظرة أو نظرتين من داخل البيت الذى يعيش فيه ، لايوجد فى البيت سوى حصيرة ومخدة من القش وصندوق خشبى قديم ، وطبلية ، وكتاب أسود ، وصليب معلق على الحائط .

السوالم مهتمة بالرجل الغريب ، اسمه يعقوب ، مسيحى طيب وهو هارب من بلده البعيد فى الصعيد الجوانى ، من ظلم وقع عليه ، وقيل أن الحال هناك لا تسر ، له عائلة وزوجة وأولاد ، وقد يحضرهم الى البلد ، ان استقر به الحال .

ــ الرئيس عبد الناصر يقدم فى خطابه فى افتتاح المؤتمر الثانى ، لدول عدم الانحياز بالقاهرة ، مشروعا باعلان بيـــان عن تحقيـــق السلام بالتعاون الدولى .

شبـاب البلد يحادثون يعقوب ، وهو أثنـــاء ســـيره فى حوارى

السوالم ، يلقي التحايا على الرجال ، يقول لهم بصوت رفيع . « سعيدة » ولا يرد على السلام الا بعبارة « سعيدة مبارك » . يعقوب يعبر حوارى السوالم الآن ببطء ، وخطواته المتسرعة ، المتعجلة تغيرت ، وعيونه التى كانت تنظر الى الارض ، اصبحت تحدقان فى كل شيء ، وانحناءة ظهره اعتدلت ، والرجال يتحدثون عنه بحب . والنساء فى السوالم . يتألمن لمعيشته بمفرده فى دار واسعة عليه . ويتحول بيت يعقوب الى مكان يسهر فيه الشبان . أهل السوالم يعرفون شرب الخمر ولعب الورق ، زجاجاته صغيرة . رقيقة الصنع ، مرسوم عليها صورة حاوة . فى البداية ، لعب الشبان الورق . للتسلية وقضاء الوقت . والليل يحتار بلا نهاية . الليل متاهات الرجال . والرجال فى السوالم ، يصنعون مراكب من ورق الاحلام ، يبحرون بها فى الليل ، على أمل ألا يعودوا بعد ذلك أبدا ، سفرة طويلة المدى . ولحظة سقوط الليل، هى لحظة طرح التساؤلات المرة . يبدأ الحوار من طرف واحد ، مع النفس والظلام والبيوت . ان المتزوجين يخافون من العودة الى الفراش . والشبان . تمثل لهم لحظة المساء ، ضيقا ، فيخرجون من البيوت الى أى مكان . يقترح يعقوب ذات مساء ، أن يلعبوا بالنقود ، نقود قليلة ، يشترون بها اكلا وشربا لزوم السهرة . كان يعقوب يعزم على الرجال بالشرب . تمنع الرجال ، وكانوا راغبين . لم يدم التمنع . كويت حلوقهم ، تحشأوا . أحسوا بلذة الاكتشاف . تذوقوا شرابا فى طعم المر . انبعثت فى أبدانهم نشوة رائعة ، تحرروا ، تقطع الشيء الذى يربط اقدامهم بأرض السوالم ، فأحسوا انهم يطيرون ، يشربون الليل ، ويضاجعون النجوم . فقد الواقع اشكاله المألوفة ، وتحطمت قواعد الحياة الرتيبة ، دارت الرءوس .

— خمسينه والنبى ياسى يعقوب .
— عشرة صاغ لو سمحت .
— ع الحساب ، بكره تفرج .
— شكك لا . ومافيش زعل .

تتحول الحجرة الصغيرة ، الى ساحة حرب ، المكسب والخسارة المهارة فى اللعب ، حركة الايادى فى خفة ، العيون المتعبة من متابعة الورق والنقود وحسابات اللعب والضوء الشاحب . يقول الرجال يعقوب يخسر كثيرا ، لا يغضب من الخسارة ، تسأل وقت . وفى

آخر الليل ، ينصرف الرجال . يعقوب يوصلهم حتى باب منزله . يصافحهم ، يأتى الى اسماعهم . نباح الكلاب ، منتشرا خلال وشوشات النخيل الليلية . يعقوب يقول لهم ، بصوت منخفض فى رحابة الليل : « الرب اعطى ، الرب اخذ ، فليبارك اسم الرب فى العالمين » .

تطورت الامور ، الرجال يتراهنون على أموال كثيرة ، ويربح يعقوب كل ما مع الرجال . يعقوب يجمع بهدوء حديدى من فوق الطبلية كل النقود ، يضعها فى حجر جلبابه . عقله مركز وثابت فى الورق ، ويده التى تجمع النقود ، وتزحزحها حتى حافة الطبلية وتدفعها دفعة بسيطة ، فتسقط فى حجر جلبابه . محدثة رنينا غريبا ، انه يدرك ، ان كل العيون المحيطة به ، تجلده بنظرات الطمع والدهشة والاستغراب ، يعقوب يرفع عينيه ناحية الرجال ، تمسح نظراته غضبهم ، ونوقف كلا عند حده . وتساءل الموم ، مقاول الانفار ، وكان احد ضحايا اللعب مع يعقوب : الا يخاف يعقوب اهالى البلد ؛ وحاول أن يلمح له بذلك ، يعقوب طمأنه ؛ الرجال هنا طيبون ، وقد يثور فى النفوس شىء ما ، ولكنه لايصل الى ضرره او ايقاع الاذى به . فى آخر الليل ، نظرات الرجال ، تتحول حوله الى ينبوع حزن ؛ والكلمات مذبوحة على الشفاه.
— تلعب يا الموم .

لايرد الموم . يخرج الورق من جيبه . يضعه على الطبلية ، ويعقوب جالس كما هو . لايبدى فرحا او حزنا . ولا يستطيع أحد من الرجال ؛ ان يقرا انفعالاته ، يجلس امامهم . وجه بليد ، لا يظهر عليه تعبير . ويشعر الرجال ، رغم الصمت الموحش ، انهم متفاهمون . فى النهار . يتفقون على ان وجود يعقوب ، خطر عليهم . البيوت اقتربت من الخراب ، نقود الموم التى اتت من لا شىء ؛ ها هى تضيع : ان ضياع جزء من نقود المعلم فى اللعب . يدفع الرجال أن يتطلعوا الى السماء ، وعيونهم مغسولة بالشكر . تعلم حب الدين من المعلم يعقوب اشياء كثيرة ؛ اهمها ان يبيع أرضه ، لا يلعب الورق كثيرا ، غير انه ينفق النقود فى أوجه اخرى . لاول مرة ؛ يقف رجل فى السوالم ، كى يقول عن الارض انها لا تترك للناس سوى الخراب ، وانها سر الضيق والمصائب وكل البلاء ، حب الدين ، تكلم بلسان غير لسانه ، كلمات يعقوب يقولها حب الدين دون خجل ؛ وسط الناس . الرجال يحلقون

الايمان ، بأنهم لن يذهبوا الى منزل يعقوب أبدا ، وبعد العشاء ، بعد ان تستقر مربعات الظلام فى قيعان الحارات ، فان الرجال يرتدون ملابسهم ، يقولون لاولادهم : انهم ذاهبون الى الجامع للصلاة ، وهم يعلمون انهم يكذبون ، وبمجرد أن يسلموا انفسهم للحارة ، فانهم يتجهون الى منزل يعقوب .

ـ يامرحب بالبلديات .

حبهم لمنزل يعقوب كالقدر ، لا فكاك لهم منه ، يكرهونه ، غير انهم يذهبون اليه كل مساء ، الناس تقف ضده ، كلهم ضده ، احد منهم لم يستطع مواجهته ، تواعد النـــــاس على حرق منزله ، نسوا الوعد . الموم ، حلفت عليه امه الا يذهب الى منزل يعقوب ، حدثته عن المستقبل والنقود وتحويشة العمر ، اغلقت عليه الباب وجلست خلفه ، قالت له : ان كان يريد الذهاب ، فليقتلها ، فهى لا تحب أن ترى أيام زمان ، وخير لها أن تموت . الموم يجلس فى المندرة بالقميص والصديرى يدخن ، يعمل الشاى لنفسه ، يشرب الجوزة ، يحدق فى حائط منزله ، يعد اكواب شاى فى سواد ومرارة أيامه ، ينظف اسنانه بعود كبريت ، ينتفض فجأة :

ـ يعقوب بينادينى يا أمه ..

يلبس جلبابه ، يركب مداسه ، يأخذ عصاه فى يده ، يخرج ، لا يكون هناك يعقوب ولا غيره ، وحتى امه لا تعرف السر فى تركه يخرج . يقسم ان يكون اللعب هذه المرة للتسلية . فى حمى اللعب ينسى . نفدت نقود حب الدين والموم ، وكان يعقوب يعد نقوده فى هدوء .

ـ العب يا يعقوب .

ـ علق .

صمت حب الدين ، هرش شعر راسه .

ـ العب على نص قيراط ارض .

ـ لا ياحبيبى ، فلوس وبس .

ينهـــار حب الدين ، يقول لهم يعقوب : انه لا يلعب الا على النقود ، يضحك ، يضع الورق على الحصيرة ، يمر بيده على وجهه المجهد من اثر السهر كل ليلة ، يريح ظهره على الحائط ، ويســـتأذن الرجال فى ادب ان يمد قدميه على آخرهما . يقول للرجال حوله ، انه حدث مرة ، أن راهن عامل فى محطة السكة

الحديد ، بعد منتصف الليل ، أثناء اللعب ، لم يكن هناك سوى انوار البلوك فى المنطقة ، ثم الظلام والصمت . كان الرهان ، ان يحلق المهزوم نصف شاربه بموسى على الفور ، لم يكن معه نقود ، أحضر الموسىٰ ، وقطعة من الصابون وقليلا من الميـاه ، ايادى لرجال ترتفع الى شواربهم الـكثة فجأة ، يتحسسونها ، يتأكدون من وجودها .

ــ وبعدين ، حصل ايه ؟

ــ حلقت نص شنبى .

من الامور المـألوفة الآن ، أن يشاهد الشيخ محمود ، اثنـاء ذهابه الى الجامع ، لصلاة الفجر ، منزل يعقوب مضاء ، من ينظر من النافذة ، تطالعه ، وجوه مسهدة ، وعيون ذبلت من السهر. لقد تعود الخفراء ، اثناء سهرهم فى الليل ، أن يشاهدوا يعقوب ، يسير بعد منتصف الليل ، مع أحد الرجال ، يذهب معه الى منزله ، يعودان بعد قليل ، يسيران متلازمين ، يفهم الرحال ، ان الرجل نفدت نقوده ، فطلب تأجيل اللعب حتى الصباح ، يعقوب يأمره أن يذهب الى منزله ، كى يحضر نقودا ، ان كانت هنـاك نقود ، وعند ما يدعى الرجل الـكسل ، فانه يقوم معه على الفور

ــ حصل منك حاجات كثيرة يا يعقوب .

ــ غير صحيح ياعمدة .

ــ تسببت فى بيع أرض حب الدين سرحان .

ــ دا راجل ومسئول عن نفسه .

ــ الرجاله بتشرب الخمره عندك .

ــ اللى يعمل غلط يتحاسب عليه .

ــ بتفتح بيتك لغاية الصبح .

ــ طول عمرى متعود على السهر ، انا باحب الليـل اكثر من النهار ياحضرة العمدة .

ــ بتقرى الولد حب الدين فى كتابكم طول الليل .

ــ هوه اللى بيقرا .

ــ يا يعقوب امش كويس ، احسن لك .

ــ شوف يا عمدة ، أنا عمرى مارحت لحد بيته ، ولا عمرى مابعت لحد فيهم علشان ييجى عندى .

ــ مويس تشومبى يصل الى القاهرة فجأة ، فى محاولة لحضور

المؤتمر الثانى لدول عدم الانحياز ، المؤتمر يتخذ قرارا بعدم حضور تشومبى الى المؤتمر .

يسأل الرجال عن تشومبى ، يتحدث فتحى سالم . كلمات قليلة هى التى فهموا معناها ، باقى كلمات فتحى سالم سماء ، لايفهمها احد ، تصل الى الآذان ، ولكنها لا تعنى أى شيء بالنسبة لهم . يقول فتحى سالم ، تشومبى هو الذى تسبب فى قتل الزعيم الافريقى باتريس لومومبا ، وانه يعادى الثورة . من المفروض أن يذبح فى القاهرة ، بعد أن يدوروا به فى الشوارع امام الناس . يقول ابو السعود : انه يتكلم بألف لسان ، انجليزى . فرنساوى . وشكله اسود فطيس ، وانفه مثل قرن الفلفل الكبير الافطس .

ان يعقوب يتذكر انه بعد ان حضر الى السوالم ، سأل عن المسيحيين فى البلد ، وذهب اليهم ، اكثرهم علما ، سأله من أى طائفة هو ؟ أجابه يعقوب مازحا ، انه من الانجيليين ، عرف باقى المسيحيين ذلك ، تجنبوه ، وخافوا منه ، رفعوا أياديهم الى صدورهم وجباههم ، راسمة علامة الصليب . حاول يعقوب أن ينفى ذلك ، لم يصدقوه . قرروا أن يبلغوا قسيس كنيسة الضهرية ، خبر وصول يعقوب الى السوالم ، أهالى السوالم لم يفهموا السبب فى الخلاف ، يعقوب وحده ، وباقى المسيحيين ، كانوا يفهمون . وبعد ذلك ، فان يعقوب ، الذى لم يعرف الغضب ابدا ، كان يسأل عنهم .

ـ الجمهورية العربية المتحدة ، تحدد اقامة مويس تشومبى ، فى قصر العروبة .

ذات مساء ، حرق بيت يعقوب ، شب فيه حريق ، اندلعت ألسنة النيران كعيدان الغضب فى قلب الليل . قالوا ان أحد الرجال الذين كويت قلوبهم من خسائر كل ليلة ، حرقه . احضر الرجل ، ولا أحد يعرف من هو ، جوربا قديما ، حشاه بقطع قماش ، نقعه فى الجاز يومين ، اشعل فيه النار ورماه على سطح المنزل ، ظن الناس ان يعقوب تحول الى فحمة سوداء ، اكتشفوا بعد اطفاء النار ، ان يعقوب غير موجود فى المنزل . فى الصباح ، عرفوا الامر ، سافر يعقوب بالامس ، ساعة الفجر الرمادية الموحشة ، بعد اللعب وحسابات الربح والخسارة الى بلاده . عاد بعد عشرة ايام معه زوجته وأولاده ، لم يسهر من بعدها ، لم تعتب قدم غريبة باب منزله . بنى لنفسه منزلا ، وفتح دكانه ،

وملاه بالبضاعة من النقود التى كسبها من اللعب ، أما هو فيقول انها ثمن قطعة أرض ، كان يمتلكها فى البلد ، باعها ، ثم احضر اولاده .

لاحظ الرجال ، ان جسم يعقوب ، اصبح اكثر امتلاء ، وملابسه اصبحت نظيفة على الدوام ، الرجال ينادونه بالمعلم يعقوب . وفى صباح الاحد ، لم يكن يفتح دكانه ، كان يرتدى أفخر ملابسه ، يخرج من الصباح الباكر هو وزوجته واولاده يذهبون الى الضهرية . لحضور الصلاة . لم يكن فى السوالم قبلى أو بحرى شليمه أو ششت لانعام أو دميسنا كنيسة . الكنيسة الوحيدة فى المنطقة كلها ، هى كنيسة الضهرية .

المعلم يعقوب من احب اهالى السوالم . وتربطه بباقى المسيحيين علاقات ود ، يلتقون أمام دكانه مساء السبت ، يتحدثون عن المسيح والصليب ، الابن والاب والروح القدس . العذراء مريم ، تهيم النفوس مع كلماته ، تملأ المآقى بالدموع ، وتشهق الصدور ، ويهيم الرجال مع الكلمات ، ان العواطف تشتعل من بعضها مع الكلمات . والمعلم يعقوب ابن نكتة ، حتى الذين كرهوه ، لم يملكوا الا أن يعجبوا به .

الصمت يرين على الرجال ، والليل احتواهم بداخله . العيون والقلوب والايادى غمست فى سواده وصمته ورهبته . استمعوا الى نشرة الاخبار ، وتحدثوا حتى تعبوا ، شربوا الشاى . انهم فى جلستهم لا يبدو منهم سوى انصافهم . ومستطيل الضوء الخارج من دكان المعلم يعقوب ، يفضح المارين فى الشارع ، والمارون يسرعون بمجرد دخولهم فى منطقة الضوء ، وفى نفوسهم الحسد ، حسد الجالسين على الدكك والمصاطب ، فالجالسون فى الظلام . يرون المارين ، المغسولين بالضوء . المعلم يعقوب يقف خلف البنك ، يرفع يده الى جبهته ، حاجبا النور عن عينيه ، حتى يستطيع ان يرى الرجال .

ــ ايه أخبار البئر والمهندس والبترول ياسى حب ..

تتجه انظار الرجال الى حب الدين ، بلمع فى العيون ، رغم الظلام ، بريق أبيض . حب الدين كان يريد أن يتكلم منذ أن حضر ، لماذا هو سبب حضوره . بعد أن سأله المعلم يعقوب احتار ماذا سيقول ، وجاش فى وجدانه احساس بأن الامور ستكون على ما يرام ، وبعد ان يتدفق البترول . ذلك اصبح قريبا منهم . انه

على وشـــك الحدوث . فمح حب الدين فمه على آخره . بدا للرجال ، قاع الفم والاسـنان واللسان وحمرة الفم . لم تخرج الـكلمات ، فوجيء حب الدين . بأن كل شيء مختلط بداخله ، وبانه سعيد ، وان الرجال يجب ان يغنوا للبير والبترول والمهندس

ـ ما تتكلم ياسى حب .

ـ ما تقولشى الواد ملك البسيطة .

ـ حاقول ايه يا رجاله ، الحكايه عال والحمد لله .

ـ تستاهل ـ قال اكتر من واحد ـ الحمد ياسيدى ..

بدا الحديث ، وكانه يحدث نفسه ، الرجال سكارى بكلمات حب الدين وظلام الليــل الريفى الدافىء المعطر . بدا لهم البئر وعصمت والبترول ، مكافأة بسعادة اتت بعد صبر طويل . ايصال محدد ، حصلوا عليه منذ ان ولدوا ، بأيام هنيئة ، قد يعيشـونها ارتفعت الايادى ، وكان حب الدين يتكلم . صمت . حاول الرجال أن يكملوا الحديث . وفى مثل هذه اللحظات ، عندما ينظر الرجل بداخل نفسـه ، فيجد سديما كاملا ، عالما ضبابيا مهوشا من الحزن والغبطة والفرح والحبور والجنون ، الـكلمات تخون الرجال .

ضحك المعلم يعقوب .

ـ يعنى خلاص . ايام الفقر ولت .

الرجال يملأون صـدوررهم بحديث حب الدين . ويغمسـون عيونهم فى الامانى والاحلام . قال كل منهم لنفسـه : خلاص . وتنحنح فتحى سالم ، وضع ساقا على ساق ، قال موجها كلامه الى حب الدين . ان العائد من المشروع ، يجب ان يكون لمصلحة البـلد . الارض أرض وردانى ، حب الدين له دور فى خطوات المشروع . رد عليه حب الدين ، كان قد أفاق من سكر حديثه عباراته الموشاة برائحة الاصيل المعطرة بماء الكافور الملونة بزرقة لحظـة ولادة الفجـر على صـفحة السـماء ، قال ان الموضـو سيدرسه المهندس ، سى عصمت . قال حب : المهنـدس نـكلم معه وعلى الرجال ان يطمئنوا . قال المعلم يعقوب ، بعد نجاح المشروع ، وتدفق البترول ، قد يأخذ احد الرجال أكثر من غيره لابد وان يكون هناك مظلومون ، وبعدد المظلومين ، فهنـاك ظالمون فى نفس الوقت ، تلك طبيعة الحياة ، المعلم يعقوب ، يعتقد ان اقل نصيب ، سيكون خيرا من الحال الآن .

ـ الحال سيىء يا جماعه ، حد عارف الدنيا ماشيه ازاى

قال حب الدين : ان المهندس أدهم ان الشركة ستتولى كل شيء : الضرائب ، المبانى وكافة الانشاءات المطلوبة لتحويل السوالم الى مدينة تسبح فى النور بالليل ، لابد من تحسين حال الناس ، وبناء المستشفيات و المدارس والمصحات والمرافق العامة بكافة أنواعها . ودور العبادة واللهو وقضاء الوقت والحدائق والمكتبات . كل هذا خير للبلد . فتحى سالم يقاطع حب الدين ، يطلب من المتحدثين السكوت .

ــ أنا باعترض ، على جملة امور فى الكلام .

يصف كلام حب الدين بالخيانة لمصلحة البلد ، مسألة ظالم والمظلوم لايمكن أن تقبل ، العدل بكل صوره ، حق مبدئى لكل الناس .

انا احذر ــ قال فتحى سالم ــ باسم الناس ، الاتحاد الاشتراكى حايصفى المشروع ، لو حصل فيه اى انحراف ، استطيع نى أبلغ كلامى د كويس ، فاهم ياسى حب ، ولازم تفهم المهندس بتاعك الكلام ده .

لم يرد حب الدين ، قال المعلم يعقوب . ان فتحى سالم متهور وعنده ظروف خاصة مؤلمة ، وغير واقعى فى تفكيره ، العدل والظلم والانحرافات مسألة وجهات نظر .

شوف يا فتحى ، ياسى فتحى ، ياسيد فتحى ، يا أستاذ فتحى ، يا فتحى بيه ، ياجناب العضو المحترم ــ حب الدين هو المتحدث ــ اللى عنده اكثر من خمسين فدان ، معناه وجود تسعة واربعين غيره محرومين من شبر أرض ، ودا حقهم ، اللى معاه اكثر من عشرين جنيه فى محفظته ، معناه حرمان أكثر من واحد من وجود مليم فى محفظته .

ــ لازم أبلغ عنك ، انت علشان سقطت فى الانتخابات اللى فاتت الناس عارفاك .

لم يعلق المعلم يعقوب على كلام فتحى سالم ، الرجال ينصتون بدهشة ، وحب الدين لايرد على فتحى سالم الذى يشعر بشىء يهدر فى داخله ، انه الفراغ المتوتر بعد أن قال كل ما عنده وعاد الى جلسته ، قال فى ترفع ، وبصوت عال تعمد أن يسمعه الجميع

ــ عموما ياجماعة ، أنا ملتزم بتعليمات اللجنة ، والا كنت قلت كل حاجه ، أنا مش حا اعلن عن الاجراءات اللى حا اتخذها . انما الميه تكذب الغطاس .

اكمل حديثه :

ـ ثم ان ياسى حب ، كلامك دا معناه ايه ، الناس تهجم على بعضها ، هجوم الكل على الكل . الغنى غنى والفقير فقير . اتولدنا كدا ، دى حكمة ربنا ، عايز تغير الكون ، تعيد تنظيم الدنيا ، انا نجحت فى الانتخابات وانت سقطت . فيه فى السما رب ، وفى مصر حكام ، اولو الامر . اللى الدولة شايفاه بتعمله . الواحد منا ينام ويحط فى بطنه بطيخة صيفى ، اللى يعملوه فى مصر صح ، لازم يكون صح ، هوه كدا صح من غير مناقشة ، واحنا نفهم ايه ، وانت تفهم ايه . اللى هناك حكام ودا شغلهم . وعموما الكلام اللى قلته دا مش كلامك ، وانا حا اربى اصحابه واربيك .

صمت الرجال مشحون ، مليء بالتوتر ، وفى نفوسهم تثور الاحلام المحنطة والامانى المؤجلة .

ـ اختلفوا ، واتعاركوا ، واتناقشوا ، المهم كل دا حا يحصل امتى ، احنا بنتفرج لغاية النهاردة .

الكلمات تخرج من فم ابو السعود ، منحوتة من حبة القلب ، هل سيجد الرجال ما يطلبونه ، ومتى سيأتى اليوم . قال حب الدين ، انهم رغم كل ما يحدث ، فان تدفق البترول فى ارض وردانى ، سيفعل لهم ما هو اكثر من اى تصور . وطار فى العيون طائر الاحلام حاملا معه كل شيء فى حياتهم ، وسقط فى منتصف الطريق ، ولكن الرجال ، ندبوا حظهم ، تباكوا احوال العالم ، ونسوا ، انه كان طائرا مكسور الجناح .

حياة الرجال ، بكل ما فيها ، بلدهم واولادهم ، ارضهم ، احلامهم الخريفية المعتمة ، حرمانهم ، تقف الآن ، وتتحول الحياه بكل ما مضى ، بكل ما هو آت ، الى هذه اللحظة . فتحى سالم يحاسب نفسه ، ويقدر انه لابد من ابلاغ المسئولين ، حتى يقف حب الدين عند حده . لقد ارتاح الى انه لم يسكت ، وتكلم بكل شرف ونزاهة ، وكان ملتزما بالتعليمات . وتوعد الناس ، قال انهم كلاب يميلون الى حب الدين ، وتمنى ان يأتى يوم يخنق فيه كل الناس ، ويكون كل شيء بيده ، الاكل والشرب والتدخين وحتى التنفس ، وعندئذ سيعرف الناس ، من هو فتحى سالم ، ويعملون له ألف حساب وسيكون الكلام فى حضوره بحساب ، ولا بد وان يعرف الرجل ما سيقوله قبل النطق به .

صمت الرجال ، يتحول الى صمت هادىء ، هدوء ناتج عن احساس بالرضا عن كل ما فى السوالم ، وقد لا يدوم هذا الرضا مساحة الليل فقط ، غير انهم سعداء بلحظات الرضا الصغيرة . على امتداد العمر الطويل .

احس الرجال ، ان الجلسة اوشكت على الانتهاء ، لم يعد ما يقال ، قاموا من اماكنهم ، قالوا كل ما كتموه فى نفوسهم . ضحكوا ضحكات موشاة بالحبور . بالطيران فوق الارض والناس والاشياء ومشاكل الحياة اليومية . قالوا النكات ، سألوا عن اثمان الحبوب واخبار الجمعية التعاونية ، واسعار المواشي فى السوق ، تحسسوا أجسامهم ، مدوا اقدامهم على آخرها ، رفعوا أياديهم فى الهواء . قالوا ان الجلوس يضر بالجسم . ضحك ابو السعود ، قال ان ابناء السوالم اهل ضيق ، ولا ينفع فى الناس سوى الشغل الحماري ، من أول النهار الى آخره وان الراحة لها ناسها فى البنادر . أهل السوالم يموتون من الشغل ، والناس فى البنادر تموت من الراحة ، فتعجب من حال مصر .

ــ واهى دى احدى العجائب السبع .

ضحك الرجال من كلام ابوالسعود ، اخذوا من دكان المعلم يعقوب ما تحتاجه المنازل ، شاى وسكر وجاز ودخان وورق بفره . وتناثرت الكلمات بين الرجال ، وعادت الضحكات الى الشفاه ، واضحى الليل أمام عيونهم موشى بكثير من المسرات ، يفترق الرجال ، سار كل منهم الى منزله ، ذهب بعضهم الي الجامع ، أو عشة سلسبيلة أو الى دوار العمدة . قام حب الدين ، نفض ملابسه من التراب ، سلم على الرجال الباقين ، قال له المعلم يعقوب ، وهو يحتوى يده بين كفيه ، ويهزها ضاحكا :

ــ الرب معين لنا جميعا .

تعليق على ما يحدث في السوالم

عشة سلسبيلة مرة اخرى ، الرجال يجلسون . الوقت بعد العشاء ، حب الدين لا يملك القدرة على مواجهتهم ، على أن تلتقى العيون فى صمت مبلل بالاسى ، ما يشغل حب الدين ، أن يبلغ هؤلاء الناس ، الرجال الجالسين حوله ، ما قاله المهندس . حب الدين لايتصور ان تصل الامور الى هذه الدرجة . انه صامت ، تنسال أمام عينيه الاحلام ، وبين شفتيه ينام عقب سيجارة . كان ذلك أمرا محتوما . انطوى النهـــــار ، وملامح الرجال هادئة ، السوالم تبعث لهم بروائح المساء ، روث البهائم ، الارض الجافة ، الزيت المحروق ، التوابل والدهن والدخان ، احتـراق الخشب والحطب ، والقوالح ، الميـاه المرشوشـة على الارض فى الحارات والشارع الرئيسى .

قال حب الدين للرجال : ان المهندس صمت ، سيحضر الى العشة بعد قليل ، لم يقل له السبب . حب الدين يخمن الامر . قد يرحل المهندس عن البلد ، بعد يوم ، أو يومين على الاكثر .

ــ وكأننا يا بدر .

ــ لا رحنا ولا جينا .

لا يصدق الرجال . وتدرك سلسبيله خلف النصبة ، وهى تعد الشــاى وترص المعسل . ان كل شيء قد يؤجـل العمر كله . الرجال صامتون ، يدركون ، ان الارض ، تلك الرفيقة القديمة ، قدم العمر نفسه ، ليست شيئا عاديا ، وانه فى تلك المســاحة الصغيرة ، التى يملـكها ورداني ، يكمن سر الاسرار . بعد ايام . تعود الارض الى ورداني ، وتردم البئر ، يرمون بداخلها الامانى . وكل ما كانوا يطلبونه ، يرمون بها فى قاعها المعتم ، ثم يردمون عليها بالطين . وعندما يشق سن المحراث باطن الارض ، وتبـذر البذور فى رحمهـا ، وتأتى الشـمس والهواء والمـاء ، وتتعاقب الايام والليالى ، فانه يحدث ذلك الشيء الهائل ، الدائم الحدوث ، ينبت زرع أخضر لامع الخضرة من وسط حبـات الطين ، ويتحرك مع هبات النسيم . السر سيظل فى باطن الارض . الايام تمر ، يولد

الاطفال ، يكبر الصبية ، تنمو لهم شوارب كثة ، يحبون ، يهيمون لحظة الغروب فى الحقول ، يتزوجون ، يموت الرجال ، يدفنون والسر فى باطن الارض . وقد يكون البوح ذات يوم ، او يمضى العمر كله ، وسر الاسرار ، فى مكان ما ، تحت الارض السابعة .

ــ الموضوع فيه ملعوب .

يقول لهم : ان حامد ابو الليل ، من اهالى الضهرية ، كان يتكلم بالامس عن المشروع ، وقال ان نتائج المشروع لن تعود على السوائم فقط ، ستتعداها الى البلاد المجاورة ، يقول أبو السعود : انه سمع فى البلد ، المسالة مسالة علم ، وما دامت الشركة قد قامت بكل هذه المجهود ، فان وجود البترول حتمى وبكميات كبيرة . أبو السعود يتكلم ، لايرد عليه احد . الصمت مرة اخرى . فى المساء ، ذهب الرجال الى الحقل ، وقفوا حول الحفر القديم ، جلسوا على التراب الاسمر الداكن ، هبت عليهم نســـمة هواء خريفية باردة ، نظروا الى السماء ، فاستقرت فى نفوسهم زرقتها الداكنة . أمسكوا بقطع الطوب الصغيرة ، نظروا ، تمعنوا فى الحلم القديم . أحسوا بالعجز . الارض واجهتهم بأمر لايمكن لاى منهم ان يفهمه . لن يقتنع أى رجل ، بما يقال له . الرجال يفكرون فى الامر ، ومن الصعب أن توجد فى عقولهم فكرة ، انه لا بترول ولا أرض ولا أحلام ، وهم يدركون انه من المستحيل عليهم العودة الى ما كانوا عليه . أيقظ حضور المهندس أشياء كثيرة ، كانت قد ماتت ، قطعت جذورها ، حجبوا عنها الماء وطراوة الارض ، لدرجة انهم تصوروا ان الامور انتهت ، حضـــــور المهندس الى السوائم ، قلب كل الموازين .

ورداني يجلس بينهم ، وهو يدرك أن ارضه لم تبح بسرها ، انه ســعيد ، ويمنى النفس بالحظ . فجأة تتغير حاله . فى الحلق غصة ، وفوق القلب هم ثقيل . ورداني لم يتأكد من المسألة ، ويسأل نفسه : أين الصالح فى الامرين ؟ يقول ورداني : قد اصل الى السر ذات ليلة ، ثم يعود ويقول : انه لن يكون أكثر من المهندس والعلم والورق والقلم . بخلت الارض بما عندها . ورداني يدرك أن الارض لم تعد ارضه ، ارضه كانت مساحة مستوية من الخضرة والسواد . أما الان ، فالتى هناك شىء آخر .

ــ انما الحكاية مش داخله دماغ حد .

ــ دا زمن الاعاجيب .

ـ لا ولسه ياما نشوف .

ليلة الامس . عاش وردانى ليلته ، كأنه يعيش معركة ضد أعداء كثيرين ، لوثوا ارضه وحياته . بقع زيت ، اماكن دق الاوتاد ، آثار عجل السيارات ، مكان المظلة جراح تملأ ايامه . كان عليه أن يحاربهم ، ابعدوه عن ارضه ، ربطوه الى شجرة فى ارض مجاورة راحوا يخرجون له السنتهم ، ضحكوا عليه . وردانى يكتشف انه غير مربوط ، غير انه لا يستطيع حتى أن يتحرك من مكانه ، وفى الجو ، كانت رءوس الناس مقطوعة ، وعلى الطريق، الايادى والارجل وقطع الاجساد ونقاط الدم .

ـ ايه يا وردانى .

ـ هيه .

يرفع وجهه للرجال ، فى الغد يتسلم ارضه ، يعود اليها مرة اخرى . قال ابو السعود ، وهو يتكلم جادا بلا ضحك : مما دفع الناس الى الانصات له . ليلة الامس تاخرت فى نومى ، سهرت كثيرا . الرجال ينصتون . كان ينام بمفرده ، وكان الناس أكلون لحما نيئا له رائحة ، الايادى يقطر منها الدم ، بين الاسنان لون احمر قان . كان هناك شخص ما يدور على الرجال ، يعطيهم اللحم بغير حساب ، يؤكد لهم ان هذا الشخص، هوالمعلم يعقوب ، يضيف ، ان امر الشخص محير ، مرة المعلم يعقوب ، ومرة فتحى سالم ، ومرة ثالثة العمدة . استيقظ من نومه وهو يستغفر الى الله تعالى ، الا يكون هذا الكلام صحيحا .

ـ فال انله ولا فالك .

قال ابو السعود : اللحم النيىء فى الاحلام فأل سيىء ، السوالم تنتظرها أيام عصيبة . سلسبيلة تجلس خلف النصبة هادئة ، حزينة . تنصت لكلام الرجال ، وتدرك أن هواء العشة الليلة ، غير نقى وانه ملىء بأرواح غريبة لدرجة انها تشعر بالزحام فى العشة

ـ يا ناس فضكوا من دى سيرة .

كل الرجال ، يريدون هذا من قلوبهم ، حديث الامانى ، شىء مختلف عما يقومون به الآن . الحال لن تطاق ، يتعاهدون على الكلام فى موضوع آخر ويحاولون ، يختارون موضوعا بعيدا ، يتحدثون، يسرحون مع الكلمات ، وتثقل الالسنة ، وتلوك الاحرف ، وفى النهاية فانهم يعودون رغما عنهم ، الى الموضوع الرئيسى .

يسمعون نحنحة ، صوت واضح النبرات ، على باب العشة :

ـ يا ساتر .
ـ اتفضل .
ـ مساء الخير يا رجاله .

المهندس ، بمفرده . يدخل العشة ، يسبقه عطر ، يقف :لرجال المرة الاولى التى يدخل فيها للعشة ، وربما كانت الاخيرة . سلم على الرجال . شاب ممتلىء ، يتمتع بصحة جيدة ، ملابسه نظيفة ومكوية ، على وجهه بسمة عريضة . اخيرا يقف عصمت فهمى النجماوى امام سلسبيله على الله ؛ تربط بينهما خيوط من الضوء والرغبة والحزن ، يقترب منها على مهل ، يرفع يده ، تتسع عيناه دهشة ، يفتح فمه ، يرين صمت على العشة ؛ وعلى الرجال .

ـ انت سلسبيلة ، اهلا ، سمعت عنك كثيرا .

يكمل وهو يسلم عليها :

ـ الحقيقة ، كان نفسى اشوفك من زمان .

تنام يدها الصغيرة ، بين كفى المهندس . يذكرها دفء اليدين بأشياء كثيرة دفعة واحـــــدة . يوقظ فى النفس الحزن والالم والذكريات . تستريح نفسها على وســـادة الصوت الحنون . تستقر يدها فى راحة كفه . لا ترد عليه ، تفعم الكلمات نفسها بالرجاء ، يجيش فى وجدانها احساس بالغربة ، وتتصور ، وهى تنظر اليه ، شوارع القاهرة ، موجات المياه المرتفعة فوق ســور الكورنيش فى الاسكندرية ، اعلانات الامبسادير التى تنطفىء وتضىء ، رائحة الشواء والدخان الخارج من أبواب المحلات بالليل؛ الاصواء ، السيارات ، العشاق فى شوارع الزمالك المظلمة ؛ السيارات الواقفة على جانبى طريق المعادى بالليل ، الهمسات والتأوهات والملابس الملقاة فوق المقاعد ، مناجاة ابن الجيران ، المقاهى المزدحمة ، شارع عماد الدين لحظة خروج حفلة تسعة من دور السينما . معاكسات الشـــبان ، كلمات الغزل ، ثرثرة السكارى فى البارات .

ـ انا ماكنتش فاكرك حلوه كدا .

حديث المهندس يتحول الى نغمة اشتياق عالية ، ترتعش لها النفس . وفى هذا المكان النائى ، البعيد ، المظلم ، فان سكر ، يتضح لها الآن ، ومع كلمات المهندس ، كل الاكاذيب التى عاشت عليها فى الايام الماضية . ويسبح القلب فى أبخرة الغضب .

ـ تشرب ايه يا باشمهندس ؟

ـ طلبه على حسابى ..
ـ على حسابى انا ..
ـ **عنكو ، أنا اللى عازماه ، احنا الاتنين غرب ..**

سكت الرجال ، وأحست بحنين فى داخلها وهى تتحدث عن الغربة :

ـ اسمعوا يا رجاله ..

يجلس الرجال ، يجلس المهندس ، وسطهم ، ينصتـون له . يبدأ حديثه ، سكر تقول له : انه ضيفها الليلة ، وانها سعيدة به ، الرجال ينظرون اليها ، تقول ان الليلة ، ليلة فرح ، وان القلب ينفس عن نفسه الحزن والصدا . تقوم سلسبيله ، تسوى ملابسها ، وتدرك كم هى رائعة ، وتلعن السوالم وحب الدين ، وايامها التى مضت ، تمسك بيدها صينية صفراء ، عليها كوب شاى وكوب ماء ، تقترب منه :

ـ اتفضل يا زين الرجال ..

فى حديثها بحة الم . يخرج الصوت من عمق الفم ، فيهتز له الجسد ، تدوس على أرض العشة ، تقترب من المهندس ، تشم فيه رائحة رجل ، بقايا العرق ، رائحة التراب ، الملابس التى لم تنظف ، الشعر المبلل بالمياه . تعود سلسبيله ، فى حركة بطيئة ، الى مكانها خلف النصبة ، وهناك تجلس ، تطفىء الوابور ، تمد يدها تسكت الراديو ، تتحول الى عينين تنظران الى المهندس .

ـ احنا بنشوف بعض لآخر مرة الليلة .

اكمل المهندس كلامه ، قال لهم انهم لايجب ان ييأسوا . البترول موجود ، كل الذى حدث ، هو تأجيل المشروع فترة من الوقت ، حتى تكون هناك كمية بترول كافية . ما يهمه هو أن يؤكد للناس وجود البترول ، قد يختلف معهم فى أكثر من شىء ، والاختلاف أمر مشروع ، هناك أمر لاسبيل الى الاختلاف فيه . وهو وجود البترول .

ـ دى حاجه تلخبط ياعم ..
ـ فيه حاجه هنا اتغيرت ..
ـ مستحيل نعيش تانى ..
ـ كنا متأكدين من وجود البترول .

لايستطيع المهندس أن يرد على تساؤلات الرجال ، الكلمات مبللة بالرجاء ، ناطقة بمدى ماوصل اليه الرجال فى الايام الاخيرة ،

أحس المهندس بالذنب . قال الناس لاذنب لهم فيما حدث . قال كلاما كثيرا . كل شيء على ما يرام ، لو شاهدتم حال غيركم ، لادركتم ان حالكم احسن من سواكم . قال ان ابن عمه في البلد ، كان بلا حذاء ، ولسبب ، هو ان اصبعا من قدمه اليمنى كانت مقطوعة . كان ابن العم يبكي ، يملأ أيامه ولياليه بالدموع . واشمعنى آني يعني ، هوه أنا كنت عملت ايه . ظل الشاب يبكي، يعيش حياته بمرارة وألم . يقول المهندس ظل ابن العم هكذا . حتى ذهب الى مستشفى المركز . وعلى باب المستشفى ، شاهدا معا ، أمام باب مستشفى المركز ، شابا آخر ، بلا قدمين . ان اهله يحملونه الى المستشفى . يقول المهندس ، ابن عمه عاد الى البلد على الفور ، قال لاهله : انه شاهد ، من هو اسوأ منه . وعند هذا الحد ، ادرك ان حالته لا تستحق حتى البكاء .

الحال هنا قال المهندس : احسن من بلاد أخرى ، ياجماعة أنا من الفلاحين . فلاح ابن فلاح . حالتكم دى أحسن ، أنا باحسدكم . البترول مهم دا صحيح ، انما دا اللى حصل .

يقول لهم : انه سيعود لهم ذات يوم ، الرجال يجب أن يذهبوا الى حقولهم ، من الصباح الباكر ، لننس ما حدث .

— بس ازاى يا باشمهندس ؟

— مش ممكن .

قال لهم : لنعتبر ما حدث كان كابوسا ، أو حلما . ضحك المهندس ؛ فلتكن حكاية مثل حكايات أبو السعود ، التى يحكيها في الليالى الطوال . الرجال يشعرون بكراهية نحو المهندس . ما طلبه من المستحيل تنفيذه . يقول المهندس : انه يحب السوالم ويعتبر نفسه جزءا منها ، خاصة وان البلد فيها رجال ، مثل حب الدين والملوم وأبو السعود والمعلم يعقوب وفتحى افندى سالم. نسى أن يقول لهم والعمدة وشيخ الخفر . قال لهم : ان عشة الست سلسبيلة عزاء لكل الناس ، وهو يتحسر على الايام التى مرت ، لانه لم يعرف طريقه الى العشة الا الليلة .

يا شماتة أهل البلد والبلاد الثانية فينا .

سلسبيله تجلس في مواجهة المهندس ، تحدق فيه ، تشرب كلماته . انها تصحو الليلة من حلم طويل ، من نومة عمرها مائة الف يوم . الناس تنظر وعلى وجهها يستريح احساس مريح ، انها تحرك عينيها الواسعتين ؛ وتمر على الرجال . وكل رجل

يؤكد لنفسه ، بطريقة ما ، ان بين هذه المرأة ، وبين المهندس شيء ما ، همس راجف ، قشعريرة ليلية ، وعود غامضة ، رغبات راعشة .

ابما الباشمهندس منين ؟

يجسدها الرجال على جزاتها ، يلتفت الباشمهندس ، ترسم ظلال يده على أرض العشة ، خطوطا بالطول والعرض ، لحقول حرثت وخططت وزرعت غير انها أصابها البوار .

— مواود فى الصعيد الجوانى ، وشغلى فى مصر ، وتعليمى كان فى الاسكندرية .

— ياه .

وقالت لنفسها ، مرحى يا زمن النزوح ، الدنيا واسعة ، وانها هنا ميتة تنتظر يوم الدفن ، والدفن ككل ما فى الحياة بالدور ، وكل شيء محسوب ، ان ما فى الصدور كثير بلا حدود .

— والله حاتوحشونا يا رجاله .

يقول لهم عنوانه ، عنوان العمل والسكن ، يطلب منهم ان راسلوه . أما الذين سيذهبون الى مصر ، لسبب أو لآخر ، فهذا هو رقم تليفونه ، فى العمل فقط ، فالتليفون فى المنزل ، امتياز خاص بالاغنياء فقط . يتساءل الرجال ، ان كان فى مصر ام الدنيا اغنياء وفقراء ، وتعجبوا من حال الدنيا . المهندس يحلف الناس ، بمقام سيدنا الغريب ، يطالب منهم أن يمروا عليه ، وسيكون تحت أمرهم ، ولن يغفر لاى فرد منهم أن ينزل مصر ولا يمر عليه .

— بكره حاتكون فى مصر يا باشمهندس .

تسأله سلسبيله ، الامر حقيقى ، قالوا لها ساعة الغروب ، ان الامر مزاح ، وسيتم ايضاح الموضوع فى الليل عند حضور المهندس ، يبدو ان الامر صحيح . قام أبو السعود ، خرج دون أن يسلم على أحد . انه يتجه الى منزل المعلم يعقوب ، يسير ببطء ، يفكر فى الامر . قال لنفسه : ان المهندس سيأخذ مرتبه فى أول الشهر ، مهما حدث للبلد ، السوالم والناس ، والامر لا يهمه . المصيبة لم تقع الا على رءوس الناس فى البلد . كانت البلدة نائمة ، غارقة فى الظلام ، مغموسة فى الصمت . قال لنفسه : انه لن يفعل أى شيء ، الا بعد ان يسمع رأى المعلم يعقوب .

يطلب المهندس من الرجال فى العشة ، ان يعاهدوه ، على ما تم الاتفاق عليه ، الرجال لايدرون ما يفعلونه ، بل انهم لا يدركون ان

كان المهندس ، يتكلم جادا فيما يقوله . كان الموضـوع كابوسـا غريبا . طلبوا من الله ان ينجيهم شر الايام . قالوا ان ايام الاباء والاجداد كانت خيرا من هذه الايام ، وان الايام القادمة ، ستكون أسوأ من ايامهم . قال الرجال لانفسهم : ان الامور كانت تسير حسنة او سيئة ، المهم انها تسير بأى شكل ، حتى اتى المهندس وها هو ذا ، يريد أن يترك البلد . ليته ما حضر .

سـلسبيله لا تسمع حديث الرجال ، انها ثملة ، اسكرها الحزن ، تنظر الى الرجال ، تدرك انهم متفاهمون دونما كلمات . الايام ثقيلة ، ثقل الحديد . وحكاية البئر والبتـرول والحيـاة الجديدة ، ستتحول مع الايام القادمة الى حلم قديم صـدىء . يقول لهم : انه يعلم ، بوحى من داخـله ، انه لابـد وأن يتم اللقاء ذات يوم .

ــ ومسير الحى يتلاقى .

يقف المهندس : يتواعدون على اللقـاء صبـاح الغد . وعلى الجسر ، سيكون الوداع .

ــ ما لسه بدرى .

ــ المهم تسلم على مصر يا باشمهندس .

يستريح فى العيون توق ورغبـة ، يمد لها يده ، تحضن كفه بيديها الاثنين، ينام الصمت على صدر العشة ويخرج الرجال معه.

ــ الا الباشمهندس اسمه ايه ؟.

تقف سلسبيله ، تنادى عليه ، تسأله عن اسمه . يقول لها ، وكان قد ابتعد عنها : عصمت فهمى النجماوى . تقترب منه ، بدون قد أصبح على الجسر . السجائر فى الايادى ، ترتفع ، تدور فى نصف دائرة ، تقترب من الافواه ، تشتعل نارها ، ان السجائر تبدو كالنجوم الليلية البراقة .

ــ انت اسمك عصمت بصحيح .

المهنـدس لم يسمعها ، تراه من الخلف ، تحاول أن تميزه ، تجرى . تراه عن قرب ، كتفاه متهدلتان الى اسفل ، يداه تطوحان فى الهواء ، ورأسه مدلى ، والقدم تصطدم بأرض الجسر .

ــ انت اسمك عصمت بصحيح ..

لم يرد عليها . فى العشة جلست سلسبيله تبكى ، لم يكن هناك أحد .

الحديث عن البئر والبترول والمهندس مساحات فى القلب . وحكايته معلقة فى أماقى العيون. والرجال لاحدث لهم الا عنه . شعروا ان الموضوع كله أكبر من فهمهم . فحاولوا أن يفهموه . تعبت منهم العقول والقلوب ، الحال يختلف الان . فى كل مساء ، يجلس حب الدين وسط الرجال فى العشة ، يشرب الشاى ، يأخذ نفسا من الجوزة ، يتراهن مع الرجال ، على أن يشعل النار من الجوزة ، ينظر فى الوجوه ، يتفرس فى الرجال . يقسم لهم ان الايام القادمة ، ستحمل لهم حكاوى كثيرة . كلمات لا حصر لها ، وعند سماعنا لها ، لن نصدق الاذان ، سنكذب كل ما يصل الينا خلالها ، انه يختم حديثه فى كل ليلة ، بأنه مازال صغيرا فى السن ، ولا يزال هناك متسع من الوقت ، سننتظر ما تأتى به الايام القادمة . يصفق بيديه بعد ذلك « هيه دنيا » ويرين على الرجال صمت ، يقول بعده حب الدين للجالس بجواره :

ــ دا ملك منظمه سيدك .

حب الدين صامت الليلة . الوقت هو أول الليل . وحب الدين يجلس فى ركنه الصغير . قال له الرجال أكثر من مرة : مالك ؟ لم يرد عليهم . غمغم ، ما فيش حاجه والله . كان يتساءل : هل يخبرهم بأنه يتصور ان الامر كله خدعة ، اكذوبة من الاكاذيب . أعمته الحيرة والتساؤلات ، قرأ الفاتحة لمشايخ البلد ، قال انه ليس هناك أى شىء صحيح بالمرة ، حاول أن ينعم بالوهم طول النهار .

ذهب الى منزله ، وكان قد صحا مبكرا على غير العادة ، كانت سلسبيله نائمة بالداخل ، لم يشأ ان يوقظها . قال لنفسه : النوم رحمة ، ولكن أين هو ؟. فى الرأس صداع ، وفى الصدر ألم ، ولكن أين النوم ، نام على ظهره ، راح يتحسس الحصير بيديه ، سرحت عيناه فى السقف الواطىء . المخاوف تتحقق كلها مرة واحدة . ادرك ان شتاء هذا العام ، لن يكون قاسيا كان

يتصور ان النقود والبترول والمهندس ، ستذيب برد الشتاء . كان يقول : ان عدم وجود النقود ، هو سبب البرد . قال له المهندس ، وكانا يسيران معا على شاطىء ترعة ساحل مرقص ، بمفردهما : ان المشى مريح جدا للصحة ، خاصة من أجل القدمين. كانت تلك هى أسعد لحظاتهما . أصبحت عادة ثابتة ومحببة ، لم يكن أحدهما يتصور ان يأتى يوم ما ، لايخرجان فيه معا ساعة العصارى . يتمشيان ببطء وبغير نظام ، لمجرد الرغبة فى المشى . الناس تحسد حب الدين ، على هذه اللحظة كل يوم ، والحسد قد يصل احيانا الى درجة الكراهية العمياء .

قال له المهندس : انه قد ثبت بالفعل ، وجود بترول فى المنطقة ، الشركة لم توافق على الحفر ، لانه بترول غير اقتصادى. للحظة ، لم يفهم حب الدين ، بدت أيامه التى مضت ، كلحظات ممطوطة ، غارقة فى الوهم والضباب ، وقال لنفسه : ما أحلى العلم ، وشعر بالاسف لأنه لم يتعلم فى الايام التى مضت من عمره . قال المهندس ، مكملا حديثه : انه سيصفى كافة اعماله منذ صباح الغد . قد يرحل عن السوالم بعد ثلاثة أيام ، فمجرد وجودهم ، يحمل الشركة نفقات ، وانه لا يستطيع أن يتحمل المسئولية ، ما دامت قد صدرت له التعليمات بنهو المشروع ، على اساس ان المشروع مؤجل . قال المهندس : انه لن ينسى البلد ، لن ينسى حب الدين بالذات .

— انت شاب عظيم ياحب الدين .

— الله يخليك يا باشمهندس .

— انا مش باجاملك ابدا .

يسيران ببطء ، حب الدين يسبح فى بحار الدهشة ، يسيطر عليه نوع ما من عدم الفهم . وحب الدين بطبيعته بطىء فى فهم المواقف الجديدة ، وهو عادة يستغرق وقتا ، حتى تصل الامور اليه . عصمت بالنسبة اليه ، لم يصبح مجرد مهندس وبئر ومستقبل ، بل انه صديق من لحم ودم .

— دا معناه ايه يا باشمهندس .

— ولا حاجة .

— أنا محتار .

— انا اكثر حيرة منك .

اخاديد المرارة ، تتسال خلال بسمة المهندس . انه يشرح ،

يقول كلمات مرة ، وتتحول كلمات المهندس الى أسئلة ، ومن حلفهما ، كانت السوالم ، تبدو لهما يتيمة ، تتألم بصوت خافت ، تطلب الامان من الليل المقبل ، وان كانت تعلم انه امان مؤقت .

— انما يا باشمهندس ، دا مستحيل

— وايه الفرق بين الممكن والمستحيل ياحب الدين ؟

يتكلم حب الدين بلسان غير لسانه ، يدور اللسان فى الفم دون أن يدرى ، يلوك الكلمات فى فمه ويطحنها تحت الاضراس قبل أن ينطق بها . وبعد الحديث ، بعد الكلمات المتناثرة والانصات للآخرين ، تبقى فى الذهن معان عالقة ، لم يعبر عنها ، تاهت فى زحمة الكلام . حب الدين يتذكر انه لم يقل للمهندس ، ان أهل البلد ، خاصموا العمدة وشيخ البلد وشيخ الخفر والخفراء ، خاصموا الحقول والسواقى والارض والبيوت والمياه . انهم لم يذهبوا الى الحقول منذ أيام . قضوا هذه الايام ، على الجسر ، فى انتظار البئر والبترول والمهندس . من الصعب على الناس ان يعودوا الى ما كانوا عليه . كانت الليالى طويلة ، وفيها حلموا بأشياء كثيرة ، والسبب هو المهندس .

حب الدين يريد أن يقول للمهندس ، انه اكتشف الآن ، وبعد العمر الطويل ، ان كل ما يحدث حوله . يتجه الى اسفل ، وانه يهيم فى الحياة بلا هدف ، وان طعم المرارة فى فمه قد زاد عن حده . لقد طبع اللسان والاسنان والفم كله بلون قاتم . نسى ان يؤكد له ، ان الالفة التى تربطه بالبلد والناس قد انقطعت .

— انما الحكاية دى حصلت من قبل .

— حكاية ايه ؟ .

— ان الحفر بتم ، وبعد كدا يقف .

— طبعا حصلت ..

— بذمتك يا باشمهندس ، قول الحق ...

لايرد المهندس ، يقول له : الرجال بدءوا يضيقون بحياتهم . الفوها طوال سنوات العمر ، الحال تغيرت فى الاسبوع الاخير . ابدى بعضهم ضيقه بسبب الظلام الليلي الدسم . وقال آخر : الى متى نعيش فى البيوت الطينية ، وقال ثالث : الحياة اكوام من التراب ، تراب فى البيت ، وتراب فى الحارة والشارع والحقل ، وتساءل ابو السعود : كيف عاشوا السنوات التى مضت من العمر حتى الآن ؟

الكلمات تتدفق من فم حب الدين فى سرعة . والمهندس توقف ، وهو لا يتكلم . يكتفى بالانصات ، ينظر الى حب الدين وبسمة رضا تنير وجهه ، ويقول لنفسه : ان كل انسان كنز فى حد ذاته ، ويقول انه كان ساذجا . لم يكن يتصور ان تصل حكاية البئر الى هذه الدرجة ، وان يقول حب الدين كل هذا الكلام . ان تتدفق العبارات من فمه . عبارات جميله ، وان كانت مرة المذاق .

يعودان الى البلد ، والشمس قد تحولت فى الافق الغربى ، الى قرص فى لون الدم . وقد اقترب من الارض . الظلال طالت ، وأشعة الشمس اللينة تداعب الاشياء . لحظة الغروب . والمهندس يقول لحب الدين : انه أكثر حزنا من أهل البلد . بسبب ماحدث. المشروع كان أول أعماله بعد التخرج ، وكان يتمنى أن ينجح فيه . ماحدث فأل سيىء بالنسبة لمستقبله. نجاحه فى المشروع ، كان يعنى حياته ومستقبله . لا يستطيع ان يقول مع الناس ، الموضوع كان «قسمة ونصيب» ، بل ان هناك ظروفا . هى التى حالت دون أن يتم المشروع فى البلد . ساروا معا . كانت الناس تجلس على افريز الجسر صامتين يردون السلام والتحايا ثم لا يتكلمون . الشارع الرئيسى ، الحوارى الضيقة . ارض الوقف ، الخيام ، السوالم بحرى . الخيام والبيوت والناس . المهندس يقف أمام الخيام ، يتحدث مع حب الدين . يرفع يده . يسلم عليه ، يسير حب الدين بظهره . يرفع يده . لا يكون ليده ظلال على الارض ، فيدرك انه المساء . يقف حب الدين ، يستدير ، يسير ناحية البلد .

حب الدين يجلس بالقرب من الرجال ، وهو يفكر فى حياته وحياة الناس ، بعد رحيل المهندس ، وطعم الحياة فى السوالم ، عندما يحاولون العودة الى ما كانت عليه ، السأم ، الضجر اليومى المتجدد . الرجال جالسون . يتحدثون . لقد كانوا يتحدثون عن المناصب والوظائف والحياة الجديدة . تناقشوا ، تعاركوا ، تركت الايام والليالى ندوبا فى القلوب والنفوس والصدور ،كرهوا بعضهم لحد الموت .

بعد أيام ثلاثة يرحل المهندس . وتعود الحياة الى ما كانت عليه ان يوجد بترول ولا مهندس ، يقترب الرجال من حب الدين ، يجدون انه يبتسم ، يتكلم بعبارات غير مسموعة :

ــ انما الموضوع صحيح ياحب الدين ..

ــ ماهو مش لازم النكد فى أول الليل ..

ـ ايه رايك يا سلسبيله ، ما تتكلمى .

يصمت الرجال ، يستنشقون روائح ايامهم الجافة : أيام متوجة بالنوجس والصلوات ، موشاة بالطمأنينة الـكاذبة . انهم ينظرون الى الليل ، وفى الظلام تسبح المخاوف على اجنحة الظلام . حب الدين يجلس منكمشا على نفســه ، وعبر عروقه يتمدد الوجع والاسى ، ويصمت الرجال ، وتحمل لهم الرياح ، من الشـاطىء الآخر ، صوت رجل يتغنى بجمال الليل ، الصوت أحلى من صوت اى رجل آخر ، الـكلمات تدعو الحبيب ، أينما كان ، تطلب منه الحضور ، كى يتمتعا معا بجمال الليل . وكنسمة هواء رطبة . يرتفع الصوت ، هادئا واضحا ، يتحول الى نغمة حزن واشتياق، ثم يهمد الصوت الى جزء صغير من كتلة الاصوات الليلية المبهمة.

ـ الحكاية كانت حلم ، احنا كنا مغفلين ، كنا مساكين ، انتو عارفين ياجماعة ، كل واحد فينا كان عامل زى الغرقان . زى ليه ، كان غرقان بالفعل . لقينا قشة ، قشاية صغيرة . قطعناها بايدينا واسناننا ، كل واحد فينا خد حته صغيرة ، وقال لنفسه خلاص الاشيا بقت معدن ، وسبحنا ، كنا عارفين ان الواحد منا لو طال التانى حا يغرقه . انتو طبعا عارفين ايه اللى حصل بعد كدا . اكتشفنا فجأة ، ان اللى فى ايدينا مش قشة ولا حاجة . كل اللى حصل ، اننا قعدنا بعد كدا ، ومافيش حد فينا مصدق. نسينا ان احنا غرقانين ، نضحك ونبكى ، وبعد كدا قعدنا ننتظر معجزة تحصل لنا . قلنا يا خلق هوه ، زعقنا ، رفعنا رءوسـنـا فى الهوا ، ما كانش فيه حد خالص علشان يسمعنا او يشوفنا . الودان انسدت ، والعيون عميت . جت موجة عالية ، عالية . وكان لازم نفرق ، كان لازم نفرق . انهى حب الـدين كلامه ، وصمتوا ، كان الظلام مفروشا فوق صدر الليل ، وانزلقت الامانى والاحلام الى أسفل ، تاركة الرجال يصـعدون فى بخار الغضب والحزن ، كانت السوالم كلها صامتة ، مغموسـة فى الدهشـة والحنين ، وكانت نظرات الرجال مذبوحة ، وفى الصدور شىء ما ، كالانين الموجع . الرجال ينظرون الى بعضهم البعض ، وكل منهم نتحسس أخاديد المرارة فى أعماق القلوب

رفعت سلسبيله عينيها من فوق النعسبة ، نظرت اليهم ، دارت نظراتها فوق الجالسين فى العشة ، همست بصوت ناعس :

ـ وحدوه

متناثرت العبارات من أفواههم .
ــ لا اله الا الله .
ضحكت سلسبيله .
ــ كمان وحدوه .
ــ لا اله الا الله .

تحدث أحد الرجال ، وجه حديثه الى حب الدين . رجاه أن يخبرهم بالامر كله ، فى الحكاية نقطة لا تفهمها عقولهم . لم تم الحفر ما دام المشروع لن يتم ؟. هذه النقطة تعذب الرجال . لم يرد حب الدين عليه . قال لهم : عليهم ان يصبروا ، ذات يوم سيعرفون الامر ، ارتفع صوت يغنى فى الحنول . قد اصبح الليل الآن أكثر هدوءا ، والكلمات تسقط على القلوب فتوجع الرجال
ــ زرعت لو كان .
ــ سفيته ياريت .
ــ طرحت ما يجيش منه .

ينظر الرجال ، يكتشفون ان ورداني ليس بينهم ، لم يحضر الليلة الى لعشة . تخيل الرجال ارض ورداني والبئر وخيام الغرباء . أكد الرجال أن فى الامر سرا ما ، قالوا : فلنذهب الى المهندس ، نعيد عليه الكلام ، المزاح فى هذه الامور ، غير مريح . قرروا الذهاب الى المهندس ، غير انهم تكاسلوا ، قالوا فلنؤجل الموضوع حتى الغد . طلبوا الشاى ، دخنوا الجوزة ، تحدثوا فى كل الامور ، تمنوا أن يكون الامر حلما . الرجال يدركون ان السرور الذى نعموا به فى الايام الماضية ، كان سرورا كاذبا ، مسروقا . لم يكن من حقهم ، الكلمات تتراخى ، وتصبح أصواتهم مثللة بالنعاس ، ويتمعن الرجال فى أحلام الايام المهجورة ، وتبقى منها فى مآقى العيون أشياء عارية معلقة ، الاحلام والبترول والمهندس والحياة الجديدة .
ــ ولا يهمكم يا أهل السوالم ..
تضحك سلسبيلة ، تخدش ضحكتها الصمت ، ينظر الرجال ناحيتها :
ــ خبر أيه ، هوه أنا كفرت .
تبلع ابتسامتها ، يبقى لهم الصمت ، أفق شاحب من السكون واليقظة ، يمسكون به بين أياديهم . وفى نهاية السهرة ، يقسم أحد الرجال ، ان الارض فيها بترول ، وانهم سيتغلبون على

المصاعب . ويطلب منهم ارجاء الموضوع الى الغد .

الرجال يعودون الى منازلهم المتناثرة فى فيعان الحارات الملتوية . وفى القاعات الضيقة ، المزدحمة بالظلام والصمت . المبطنة بالقهر والحرمان ، يجترون حكاية البئر . ينفضون عن القلوب غبار الايام ، ويعودون من رحلتهم ، يقولون لانفسهم ، فى الليل الناعس . ان السبب فى يقظتهم الحارقة ، انهم عادوا منذ قليل من رحلتهم الطويلة ، من بلاد واق الو ق . وانهم لم يجدوا كنوز الملك سليمان . ولم يكن هناك ملك بهذا الاسم . يقول الرجال : انهم عند وصولهم الى بلاد واق الواق ، مرفا الوصـــــول وبر الامان . حطموا مراكبهم ، أشعلوا خشبها ، وعلى النيران ، أذابوا الخوف الجليدى النائم على الاعماق . وفى طريق عودتهم ، كانوا يتذوقون على مهل . الاحساس الطارىء بخيبة الامل . لم يجدوا ما يعودون به . صنعوا من ورق الاشجار مراكب . ومن بقايا ملابسهم الممزقة . أشرعة تعب الهواء ، ومن شعورهم المهوشه حبال . وعادو ، ذلك انه لابد من العودة فى نهاية الامر . وقال أحد الرجال لنفسه : ان الامور فى هذا الزمان عجيبة . وانه محتار .

ذهب أحد الرجال الى منزل وردنى ، كان يريد أن يخبره ان أرضه ستعود اليه ، وان المهندس سيترك البلد . وبعد أن خبط على الباب ، وأيقظ النائمين ، قالت له زوجة وردانى ، من خلف الباب : انها لا تستـــــطيع أن تفتح . ووردانى جاءته الازمة . لايستطيع حتى أن يأخذ نفسه . وان وردنى والاولاد وهى جالسون جميعا ، ينظرون الى السقف الواطىء ، فى انتظار أن تأتى الرحمة من عند الله .

ــ أرض ايه بس .

قالت زوجة وردانى ، واسكى لنفسها :

• خبر •

يتسلم ورداني ارضه ، صباح اليوم ، من المهندس ، بعد نقل معدات الحفر . ويقال ان البئر المحفورة فى وسطها لم تردم بعد ، فظلت كالجرح فى قلب الارض ، وتبدو كميات الطين الخارجة من رحم الارض ، للعيون وقد جفت ، بفعل الشمس والهواء والغبار ونظرات الناس ، ويقال ان ورداني لن يرد للشركة شيئا من ايجار الارض . يقول ورداني لنفسه : ان الارض والبئر وما فيها ، ستعود اليه ، ورداني لايعرف ، هل يفرح أو يحزن ، ورداني يعود الى منزله ، متمشيا على مهله فى الحوارى الصغيرة الملتوية . يصل الى حارته. يقف فى اولها ، امامه تصعد الحارة الى اعلى . البيوت الواطئة ، مساحات من التراب على الارض والجدران والنوافذ ، الابواب المنكفئة على صدر الحارة الرجال العجائز ، الاطفال الصغار ، فى الايادى بقايا طعام جاف ، العيون الذابلة . المحاجر التى أكلها الصبر والسهاد والمرض ، العتمة التى تطل من جوف البيوت ، بلادة الارض ، آخر أشعة الشمس المنكسرة على اسطح البيوت. الحارة من جديد، تزحم انفه رائحة التراب . ويتنفس الهواء مثقلا برائحة البيوت ، ويسمع ثرثرة الناس، كلمات قيلت من قبل . فى حقله لم يشم رائحة الخصوبة . معالم الحقل تغيرت . اياد جهنمية عبثت بها. بعد منتصف الليل، الظلام، الصمت، النجوم اللامعة تبدو كثقوب فى رداء الليل . الظمأ شقق الحلوق، السر ما زال بعيدا . السوالم تعود الى ما كانت عليه . فى الغد ، سيذهب ورداني الى حقله ، سيعالج الامر ، يستر العورة التى رآها كل الناس دونما رحمة . وعندما يهب هواء الصباح الطرى . المشبع بالندى ، قد يغسل عن الارض عارها .

ورداني يصعد فى الحارة ، يتوقف فى المنتصف ، من تحته تنزل الحارة حتى الشارع الرئيسي ، الذى يقسم السوالم الى

نصفين . فى الشارع أطفال صغار ، رجال عائدون من الحقول . ومن الشـــارع ، صعدت نسمة هواء خريفية . على البعد ، تنعكس آخر اشــعة الشمس ، فوق أعالى الاشجار والنخيل واسطح البيوت . ورداني يدرك انه لابد وأن يواجه الارض بمفرده.
ورداني يستدير ، يصعد فى الحارة ، فى وجدانه تنسال كلمات موال حزين ، وعلى الجدران البليدة رسومات . كلمات من ايام الانتخابات التى مضت ، وفوق البيوت عيدان حطب ، غسيل منشور ، غرف صغيرة ، مخزن معاش ، لا شىء تغير فى السوالم وحتى عودة الارض اليه ، واستلامها ، لا قيمة لها عند الناس .

● اشاعة ●

ارض ورداني ، أرض مسكونة ، يسكنها أهل الجان ، جعل الله حديثنا خفيفا على قلوبهم وأسماعهم . وعندما تم الحصر من قبل ، لم يستأذنهم أحد من أبناء السبيل . لهذا غضبوا من أهل البلد. والمطلوب ، عمل «ختمة» لهم ، حتى تنفك العقدة ، ويمنحوا الارض الامان ، ويظهر المختفى فى باطنها ، على أن تكون الختمه ليلة الجمعة ، وأن يذبح فيها ثور أسود غطيس ، ولا يوجد فى جسمه شارة بيضاء ، يشترى من بلد ، يقع بحرى السوالم وليس قبليها . ويستحم فى مياه النيل ، قبل الذبح بيومين ، عندئذ ستجود الارض بسرها العظيم . ورداني يشعر ، بحنين دافىء يهب عليه ، انه يتمنى أن يرى زوجته عارية ، أن تنكسر نظراته على جسدها الابيض. تذكر فى هذه اللحظة ، انه لم ير جسدها عاريا من قبل ، وتذكر ان أصابعه الخشنة قد تمر على النعومة الحريرية لجسدها. الحجرة تكون مظلمة ، وصوت تنفس الاطفال النيام حولهما يزحم الليل.

ورداني يضع قدمه على عتبة داره ، ثمة وقت للزوجة والاولاد وسط عناء العمل . واجهة منزله تطالعه ، باب صغير منخفض . من خشب تاه لونه الاصلى ، عليه آثار دماء متجمدة ، حال لونها الاحمر. يقول ورداني : ان الدماء هى دماء خروف ذبحه ، بعد ان أعاد بناءها ، وانه صبغ الباب بدمائها ، بناء على طلب الجزار ، ويحتفظ بفروته ينام عليها فى ليالى الشتاء الباردة . فى منتصف اطار الباب العلوى ، حدوة حمار صدئة ، مثبتة بمسامير من الخشب ، فوق الخشب ، تصـــطدم نظراته ببلادة الجدران الطينية . من الباب يبدو وسط داره ، يهب عليه من داخله ظلام

رطب . من داخل وسط الدار، تتحرك زوجته وأولاده ، ورائحة الدخان تزحم المكان .

ورداني .

ــ نعم يا باشمهندس .

ــ دلوقت انا باسلمك ارضك ، وطبعا انت استلمت كافة مستحقاتك المادية عن استغلال الارض فى المدة اللى فاتت .

ــ حصل .

ــ أرجوك ، وقع لى هنا ، باستلام الارض .

ــ حاضر .

ــ وقع لى هنا ، بأنك استلمت كافة مستحقاتك .

ــ حاضر .

ــ احنا ظلمناك فى حاجه يا ورداني .

ــ ما حصلش .

يمسك وردانى القلم من يد المهندس ، يشير له حب الدين بأصبعه الى المكان الذى يجب أن يوقع فيه . وردانى لايعرف القراءة . تعلم فى القسم الليلى كيف يكتب اسمه فقط . ينظر وردانى الى حب الدين ، تسأل عيناه عما فى الورقة . وردانى يعرف ان القلم والاوراق تخون اجدع الرجال . الحكاية مرة كالعلقم . وردانى يتذكر ، انه ما من مرة ، أمسك بالقلم ، ونظر الى ورق ابيض امامه ؛ كى يوقع فيه بامضائه - حتى يخاف من المحضر والمحكمة والحجز والمركز . والضرب على القفا والمصاريف ودفع الريال للشاويش فى التوفيقية والوقوف بلا سند امام الحكومة . وردانى يقرب عينيه من الورقة . بدت له الورقة كشيء لايمكن فهمه ؛ ان تشابك الحروف كالمتاهة ، كسكة الثعبان عندما تعبر الطريق الزراعى وقت الظهيرة ، يعاود وردانى النظر الى حب الدين :

ــ يا راجل امض عيب .

يحرك وردانى يديه ، يكتب اسمه ، ويعطى القلم للمهندس .

ــ شوف ارضك وحدودك .

يتحرك وردانى ، يشعر بخجل ، العيون تغرس نظراتها فى جسمه ، يدور حول حقله من الجهات الاربع ، يجلس ، يتحسس الحديد ، يدرك انه فى نفس مكانه ، وان جيرانه كما هم . قديما ، قبل أن يموت والده ــ رحمه الله ــ نصحه بأن يعلم حدود حقله بعلامات لا يعرفها احد سواه ، ابناء الحرام ، لم يتركوا لابناء

الحلال شيئا ، في هذه الايام ، اى شيء ، هذا زمن أيام السوء ، وقد ينقلون الحديد بالليل ، فتقل مساحة أرضه وهو لايدرى . من يومها ، وهناك علامات صغيرة ، بجوار الحديد ، طوبتين من الطوب الاحمر ، عود نجيل مربوط عليه فتلة دوبارة من المنتصف وفى آخر اندوبارة عقدة لايستطيع احد أن يعقدها . دار ورداني حول أرضه ، تأكد من الحديد فى الجهات الاربع ، تحسس الارض بيديه ، ثم سار ناحية المهندس :

ـ خلاص يا باشمهندس ، الارض زى ماهى ..

يقف المهندس ، تعبث نسمات الخريف بملابسه ، يلف الاوراق، يضع القلم فى جيب قميصه . يمد يده لورداني ، يبدو اتساع الحقول ، كأنه يسبح فى نفوس الرجال ، ورداني ينظر ناحية الشرق تلتقى زرقة السماء الغامضة بسواد الارض ، وعلى خط الافق ، شراع سفينة ، تسبح فى النيل ، وغراب يطير فى السماء ، وخط أشجار يمتد على طول الطريق الزراعى .

ـ ورداني .

ـ ايوه يا باشمهندس .

ـ فى الحقيقة ، انا مش عارف اهنيك بأرضك ، والا اعزى اهل البلد .

مرت فترة صمت ، لم يتكلم احد . احس ورداني انه من الواجب عليه أن يقول اى شيء ، الكلمات تاهت منه ، تذكر ان هذا الرجل ضيف عندهم ، وان سكوته قلة ذوق ، بحث فى ذهنه عما يقوله ، حرك شفتيه ، رفع يديه فى عجز وتسليم .

ـ الحكاية ان احنا زعلانين عشانك ، كنا عرفناك واللى تعرفه احسن من اللى ما تعرفوش ، أهل زمان قالوا لنا كدا .. اصل.

لم يستطع أن يكمل حديثه ، حرك يديه ، هز المهندس يده بترحاب فى وجهه :

ـ أهلا بيك يا ورداني .

سار الرجال خلف المهندس ، استدار ورداني الى ارضه. قال لنفسه : هذه الارض ليست ارضه ، لقد ورثها عن ابيه ، انها أمانة لابد أن يسلمها لابنائه من بعده . ارضه هى ما يشتريه بنفسه ، من حر ماله وعرق جبينه . اما هذه القطعة من الارض. فما عليه الا ان يسلمها لابنه الاكبر . تصور ورداني ، وهو يقف على رأس حقله ؛ انه بتسليمه الارض للمهندس ، قد خان العائلة

وأن عظام ابيه قلقة فى قبره ، كان يجب أن يدافع عنها ، حتى ولو ذهب الى السجن . قال ورداني لنفسه : انه كان جبانا ، اليوم الذى يأتى لايمكن ان يأتى يوم آخر مثله . رجال هذا الزمان ليسوا رجالا . قال له والده : من يفرط فى أرضه ، فقد فرط فى عرضه . الايام ليست سهلة ، سأل نفسه : اين هم الرجال الذين كانوا سيقفون معه فى وجه المهندس . لقد نسى خيانة السوالم له ، تركوه بمفرده امام الحكومة ، مما اضطره الى التسليم . والعزاء الآن . نه فى باطن الارض ، يوجد السر الذى سيكون له وحده . استشهد بنجوم السماء ، كان الهواء ممتدا على البساط دائريا حول حواشي الافق .

ورداني يقف وسط داره ، وزوجته تحادثه ، وهى فى آخر وسط الدار :

— مالك يا ورداني ، لازم صدرك تعبك ..

امامه حجرة صغيرة ، ينام فيها بالليل مع الاولاد يستقبل فيها الضيوف ، ويجلس فيها ايام الاعياد والمواسم ، تفرش الحصر الجديدة ، تسند الى الجدران ، مساند جديدة فى وسط الدار ، باب صغير ، يفتح على الزريبة وحجرة المعاش . بجوار الباب سلم خشبى يفضى الى سطح داره . وفوق السطح غرفتان : غرفة يضع فيها خزين الحبوب ، وأخرى تربى فيها زوجته أرانب كثيرة ، تباع يوم السوق ، ولا يأكل منها الا نادرا .

يجلس ورداني وسط داره ، كل ما حوله يؤكد ان الليل احتوى البلد بداخله . ومع قدوم الليل ، يخاف ورداني ، يدرك انه يموت ، وقد لايرى الغد . وستبقى لحظة انتصاف الليل ، هى لحظة مجىء الازمة . ان ورداني يشعر بضيق مفاجىء . يقوم ، يخرج .

— ما تستنى لما تعشى العيال ..

يستدير ، وهو على الباب . ينظر الى زوجته وأولاده ، لايرد عليها . السوالم تستسلم لعالم الظلام ببطء ، والشمس واهية الحياة والنور ، اختفت . ورداني يسير مسرعا ، وفى انفه رائحة اختمار الارض الشراقى بعد الرى ، وفى اذنه انين الرياح فى الليالى الشتوية . وفى الصدر احساس مبتل بالحزن .

قال ورداني : فى صباح الغد ، سيذهب الى الحقل . هناك سيواجه أرضه بمفرده ، الارض اصبحت غريبة عليه ، وفى القلب والعين ، ينمو احساس مر بالخيانة .

السوالم ـ بحيرة

١٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٤ .

فى صباى ، كنت أحلم ، بان أقضى العمر فى المدن الكبيرة ؛ اعيش حياتى بالطول والعرض والعمق والارتفاع ، فى ساحات القتال الواسعة ، أماكن يسيل لها اللعاب ، بلاد الثلج والضباب فى شمال اوربا ، مساحات النباتات فى المناطق الاستوائية ، فوق ظهر باخرة ، تذهب حتى القطب الجنوبى ، وهناك نمزق أستار المجهول . حلمت بالسفر الى بلاد بعيدة ، المدن النحاسية ، البلاد المغسولة برائحة الكافور ، التمنى بأحلام لن تتحقق ابدا ، الرغبة فى عناق العالم بساقين من الحب والرغبة . أسمع الاغنيات العذبة على ضفاف الدنوب . أشرب الفودكا فى قرى سيبريا الخالية . اتناول الخراف المشوية فى خيمة مفروشة فى وسط صحراء مترامية الاطراف ، مرتديا ملابس أمير عربى . أدور فى بلاد لا اعرف من لغة أهلها حرفا واحدا . أصيح بصوت عال : ليس لحماقة قلوب البشر من حدود . حظى شاء لى ان أواجه مصيرى بمفردى . فى تلك البقعة الموحشة من العالم . كانت معركتى الاولى . وذلك هو ختامها .

قد يثبت من كافة التحليلات ، احيانا ، ومن خلال البئر الاختبارية وجود بترول بالفعل ، قد يكون بترولا غير اقتصادى . بمعنى أن العائد من البترول المستخرج لا يغطى نفقات الحفر والاستخراج والتكرير ، ويكون التصرف فى مثل هذه الحالة أن يؤجل المشروع فترة من الوقت ، فترة طويلة ، قد تصل الى مئات السنين تتحول البئر خلالها الى بئر اقتصادية ، وقد تبقى كما هى .

فى أيامى الاولى ، كان عندى يقين انه يوجد هنا بترول ، وان المشروع سيتم على الوجه الاكمل ، وبدات خطوات المشروع ، الدراسات النظرية ، حفر البئر الاختبارية ، ومن خلال هذه الخطوات ، أمكن التوصل الى جملة أمور هامة . تتخذ ابعاد

المصيدة البترولية ، غور البئر ومساحتها ، سمك الطبقات الرسوبية ، بيانات جيولوجية واقتصادية . تقييم للامكانات البترولية فى اجزاء المنطقة ، توصيات عن مناطق اخرى ، تستحق دراسات تفصيلية . ومن خلال الدراسات ، توصلت ادارة الشركة الى ان البئر الموجودة فى السوالم ، بئر غير اقتصادية ، وبالتالى توقف المشروع . قلت لهم : هنا بترول ، شممت رائحته واحسست بوجوده ، وقرأت عنه فى عيون الرجال ، قالوا انه بترول غير اقتصادى ، فلم انطق حرفا واحدا بعدها .

أمامى هنا ايام قلائل ، كى انهى المشروع ، أسلم الارض الى صاحبها ، اخلع الخيام ، ارسل المعدات الى الشركة ، اشكر الذين عاونونى . ما يهمنى هم الناس . كانت الناس قد تركت العمل فى الحقول ، وراحت تنتظر البئر . اتساءل : كيف سيذهبون ذات صباح الى حقولهم ، يزرعون ويقلعون ويعيشون حياتهم اليومية المألوفة ، ذلك صعب عليهم ، بدأ بعض معاونى فى السفر ، احسست بالضيق ، قلت لمعاونى اننى لا اريد ان اقابل اى فرد :

- حتى ولو كان حب الدين ؟

تذكرت اننى نسيته ، لم ارد عليه ، دخلت خيمتى ، كنت افكر فى امر حب الدين ، اهم الناس . رجل بسيط ، لم يتعلم كثيرا ، ولا يزاول مهنة يعيش منها . فى داخله شىء ما يميزه عن باقى الناس . احببته ، أستريح له . تصورت اننى سبق أن قابلت حب الدين من قبل فى مكان غير السوالم . انه شاب لطيف وضع فى مكان غير مكانه . قلت لنفسى : أصعب الامور أن يفهم الناس ما حدث ، وقد أتكلم مع الناس ، يهزون رءوسهم علامة الفهم والموافقة ، البدلة التى ارتديها تقيم مسافة بينى وبين الناس . بعد أن اتكلم ، احدهم يقول شيئا ، لايعترض ولا يناقش وانما يمط حبل الحديث . اننا لا نتعلم شيئا ، ذلك اننا لا نجد متسعا من الوقت كى نتعلم ما نجهله ، الايام تدفعنا الى الملعب ، يشرح لنا شخص ما قواعد اللعبة ، بسرعة وبعبارات خاطفة وبلغة أخرى غير لغتنا . وفى أثناء اللعب ، عندما نرتكب الخطأ الاول ، ولو كان ذلك بحسن نية ودونما قصد ، فنحن نغتال بلا سبب .

- المشروع حايؤجل ، بصفة نهائية ياعصمت .

- حاضر يا افندم .

رفعت عينى اليه .

ـ بس يا افندم .
ـ فيه ايه يا عصمت .
ـ لا ولا حاجه .

كنت أريد أن اقول ، ما ذنب الناس فى السوالم ، كنت أريد أن احـــدثه عن حب الدين ووردانى وأبو السعود وللوم والمعلم يعقوب والعمدة والارض والحقول والجسر . سلم على ، ودعنى ، ركب سيارته ، تركنى وحدى . وأمامى فى السوالم كان الفشل ، أجلس فى خيمتى ، أمامى خطوات المشروع ، الرسومات ، الخرائط كلمات مدونة بالحبر ، عبارات بالقلم الاحمر ، توقيعات ، للعرض على ، تصدق ، يعاد النظر فى الموضوع . مررت بأصـابعى على المشروع وقلت لنفسى : الاحلام هنا فى الحروف الصغيرة ، على الاوراق . وخارج الخيمة ، فى السـوالم كلهـا ، لم يكن هنـاك شخص يعرف الخبر ، قررت أن اخبرهم غدا ، فى ســـاعة العصارى ، على أن أخبر حب الدين اولا ، فى سيرنا اليومى .

ـ النتيجة دى زعلتك ياعصمت .
ـ هيه ، لا يا افندم .

قالها وهو يقف بجوار سيارته ، تعثرت الـكلمات على لسانى ، قلت لنفسى : ان الصمت الزاخر بالمرارة ، خير من اى كلام . احضرت ورقة صغيرة ، سأسطر فيها رسالة الى أهلى ، أقول لهم فيها ، فشلت فى مشروعى ، قد احصـــل على اجازة طويلة ، أقضيها هناك بينهم فى قريتنا التى تنام فى حضن الجبل والنيل . سأقول لهم : ان سفرتى الاولى ، لم تصل الى نقطة ما ، والسوالم يا والدى ، كانت مرفأ الامان وساحل الهلاك فى نفس الوقت .

ان ما يهمنى ، أهل السوالم . البئر والبترول والمهنـــدس والحياة الجديدة ، يتحولون فى حياتهم الى كذبة كبيرة . وحتى لو قلت ان كل السعداء على الارض ، لايملـكون آبار بترول ، ولا حياة جديدة ، فما استمعوا الى كلمة واحدة منى . اقول ، واريد ان يسمعنى كل رجل فى السـوالم ، أقول بصوت عال : ان هذا البلد فى حاجة الى نبى ، رسول جديد ، يوقظ الموتى ، ويغســـل الالم ويمســـح الجراح . كل ما فى الســـوالم يوحى بالقدم . ان الزراعة والرى وحياة الناس من ميلاد ونمو وحب وزواج : كل ذلك يجرى ، كما كان يحدث منذ الوف السنين . الرجال يزرعون لأنه ليس هناك عمل آخر يمكن القيام به ، أتساءل : هل لهؤلاء

الناس رأى فيما يحدث . وعندما استمع الى اخبار العالم من الراديو فى آخر الليل . القاهرة تحييكم . اعفاء نكيتا خروشوف من جميع مناصبه . انهيار الحكم العسكرى الرجعى فى السودان. الصين تفجر قنبلتها الذرية الاولى . قرض من الاتحاد السوفييتى قدره ٢٨٠ مليون جنيه وذلك لاستصلاح ٢٨ ألف فدان . سقوط حزب المحافظين فى الانتخابات البريطانيـة وتأليف حزب العمـال للحكومة الجديدة . أدرك لحظة سماعى لهـذه الاخبـار ، ان ذلك يحدث فى عالم آخر ، كوكب شقيق لنا . الناس معزولون عن كل ما يحدث . وان سمع أحدهم ما يحدث ، وعرفه بالصدفة ، فانه يفتح عينيه اللتين بلا رموش ، ويتوقف فى مكانه ، يفتح فمه ، نقول : ياه ، بقى كل ده بيحصل فى الدنيا ، يا أخى دى الدنيـا واسعة . ثم يمضى فى طريقه ، كأن الامر لايعنيه . أقول : الناس موتى ، يدفنون كل فى ميعاده ، وكل ما يطلبه النـاس فى الفترة التى تسبق الدفن ، فترة الانتظار والتى يسمونها العمر، ان يكون الاكل والشرب والزوجة ، مضمونة حتى آخر أيام العمر .

اتذكر كل ما حدث . كأنه كابوس ، مقابلتى للعمدة ، رئيس قربة ششت الانعام ، معاون نقطة البوليس ، مفتش الصحة ، رئيس مجلس مدينة ايتاى البارود . العمدة رجل غريب الاطوار، كيف كنت سأتعـامل معه . رجل بليـد الحس ، رجل اعمـال متخلف . لقـــد كنت اريد ان تمتلىء العيون والقلوب والعقول بأشياء أكثر انسانية . انتهت حكايتنا ، وغدا أو بعد غد ، يجلس معهم حب الدين على الجسر او فى العشـة ، ويحكى لهم حكاية البئر كلها وعندما يخدش شكل الحياة حادث جديد ، فان الرجال يعجزون عن فهم الحادث مهما تكن بساطته . السوالم كلها ، تلك الكتلة الصماء من النـاس والارض والبيوت والحوارى ، قادرة على فهم الاحداث بطريقة بالغة الغرابة .

فى لقائى الاخير معهم ، شعرت ان التفاهم قد تم دون كلمات ، كان اللقاء نوعا من الصلاة ، صلاة جديدة . صـلاة صامتة . كنا نصلى معا : للأرض ومـيـاه الترعة وزرقة السماء وتراب الحوارى وجدران البيوت ، ولم يكن أحد يدرى ساعتها ان ذلك اللقاء ، هو اللقاء الاخير .

الناس هنا أمام اختيارين : وفى هذا العالم الصغير المحدود ، القائم على قيم معمرة ، وشكل واحد ، ممل ورتيب الحيـاة ،

يصبح السؤال شاقا وعسيرا ، ويصبح الجواب عليه فى رهبة الموت . عليكم يا أهالى لسوالم أن تختاروا ، وأنا أشفق عليكم . عندما أخبرت الرجال بالأمر ، نظرت اليهم ، وجوههم قاسية ، يتلامح فوق جلودها النحاسية عناد الريف الصامت ، وادركت ان الصبر الايوبى المترسب فى نفوسهم ، يستيقظ الآن ، وقلت ان هؤلاء الرجال ، لن يتنازلوا ، لن يتراجعوا بعد ذلك أبدا .

كان الليل قد استقر فى الخارج ، وكانت السوالم كلها نائمة : خرجت ، أمام الخيام ، وقفت بمفردى .

ــ من هناك ؟

كنت اود ان اصعد فوق مئذنة سيدى الغريب ، ومن فوقها انادى بصوت عال ، اصيح : يا اهل السوالم ، قبلى وبحرى ، يا ايها الجوابون التعساء فى رحم الليل ، حينما يحمر الفجر ، وينشر شفقه الاحمر على صفحة السماء ، لن تبصروا اثرا لطريق العودة ، من سفر كل ليلة ، ولكن لم العودة الى السوالم .

الظلام ووشوشات الاشجار واصوات الليل تحمل الدهشة والحنين . بدا لى الناس فى هذه الساعة ، يغزلون من ظلام الليل أحلامهم ، ويتمدد الليل فى أعماق الرجال . حاولت أن اقرا الظلام . قال لى الخبير اننى بدات تجربتى الاولى ، ولكنها جرت بشكل غير سليم ، الحياة ما زلت ممتدة أمامى ، وانه ما زال هناك متسع من الوقت ، كى افعل ما اريده .

القاهرة من جديد ، الذهاب الى المنزل بعد الظهر ، تناول طعام الغداء فى المطاعم المتوسطة ، الجلوس فى صدر المقهى فى السابعة مساء . حل الكلمات المتقاطعة ، قراءة صحف المساء ، الاستماع الى فضائح مدينتنا النحاسية ، الشاى والقهوة ، لعب الطاولة والدمينو ، قزقزة اللب ، تلميع الحذاء ، التثاؤب ، الاحساس بفراغ عذب ، القيام ، التسكع فى الشوارع ، العودة الى المنزل ، وفى الحجرات الصغيرة ، نجتر الاحزان ، ونتأمل ما فى هذا العالم من شجن ومرارة واخفاق .

وهنا ، فى السوالم ، سيقضى الرجال ، أيام العمر ولياليه ، فى انتظار ان تتحقق المعجزة فى حياتهم ، ويمتلك البسطاء الارض والماء والغذاء . وقد يبذر الرجال فى رحم الارض احلامهم ، وينتظرون ، حتى يتحقق لهم كبرياؤهم الخاص . وعندئذ قد يمتلك الناس الارض والحياة . قد يشعرون بأنفسهم ، وينامون

على الاسرة ، ويستحمون مرة فى الاسبوع ، ويقضون حاجاتهم داخل مراحيض نظيفة ، ويشربون مياه نقية . قد تمتلىء المحافظ بالنقود ويتعلم الصبية ، قد يمسك الرجال بالجرائد اليومية معدولة ، ويفهمون الاحرف السوداء عليها . وحتى يحدث هذا ، سأنطلق ، أنا عصمت فهمى النجعاوى ، اجوب البلاد ، مزهوا بانكسارى ، وقبل ان ارحل ، أن اسافر بعيدا ، يجب ان اقول لاهل السوالم ، ماذا أقول لهم ؟ اوصيهم بالصبر الى ان يأتى الخير . اننا نهزم وبعد الهزيمة ، لا نجد الوقت الكافى كى نعاود الكرة ، فالموت يجىء سريعا .

جمعت أوراقى ، وضعتها على المنضدة ، أعددت فراشى ، وجلست . انصت للصمت الليلى . وقبل أن أرحل ، قبل أن أختم السفرة الاولى ، سأدور فى حوارى البلد ، وسأذهب لاول واخر مرة الى عشة سلسبيله ، وارمى على الناس والبلد السلام الاخير . فى الليالى التى مضت ، كان الرجال يذهبون كل مساء ، الى عشة سلسبيله ، عشة صغيرة على شاطىء الترعة ، وفى الليل ، اشرطة الضوء تبدو من خلال ثقوب العشة . امام العشة تلمع رصاصية الماء ، ووسط الليل الصامت الهادىء ، تبدو العشة كتلة من الحياة الصاخبة ، مدفونة تحت صمت السوالم ، وفى المنتصف طبلية قديمة . فى آخر العشة من الداخل قفصان قديمان كفئا على الارض ، فرشت فوقهما جرائد قديمة ، وفوق أوراق الجرائد ، أكواب ، صينية شاى صفراء ، أحجار جوزه فارغة ، ماشه . والرجال يكونون دائرة حول الطبلية .

. لن انسى ذلك أبدا .

عندما ذهبت اليهم ، افسحوا لى مكانا وسطهم . جلست . تناولت من يد سلسبيلة كوب شاى صغيرا ، عبارة عن سائل لزج غامق السواد ، مرارته مركزة ، يترك اثرا دسما على اللسان، يوجد الرديو على مكان مرتفع بجوار سلسبيله صوته عال ولا أحد ينصت اليه . نسيت أن أقول ان سلسبيله رائعة . جميلة ، تساءلت لحظة مشاهدتى لها : كيف كانت تعيش هنا . جلس الرجال فى مواجهتى ، ابتعدوا عنى ، لم يكن يجلس بجوارى أحد منهم ، ذكرتهم بالحاكم والمحكوم ، والحكومة ، كما قال لى حب الدين من قبل ، لا احد من رجال الحكومة يجلس الرجال بجواره النظرات متبادلة بيننا ، الصمت يزحم المكان ، اقترب حب الدين

منى . فى يده الجوزة . الرجال تنظر اليه بدهشة . قدم الى الجوزة . لم اشا ان أردها . دسست غابتها بين شفتى . سحبت نفسا .. شيء حاد ساخن يسرى فى النفس ، يختلط بمرارة ودسامة الشاى . يشيع فى النفس سرورا مفاجئا : تصعد سخونة هادئة من الصدر الى الراس . ان لكل مجموعة من الناس مسراتهم الخاصة . ومهما تكن الحياة جهمة شائهة . فان الناس قادرون على خلق مسرات صغيرة . يستسلم الراس . تدور الغابة بين الرجال ، تنعقد سحابات الدخان الازرق فى جو العشة . لا يبدو من الرجال سوى انصافهم . تهيم النفس ويغيب العقل . وتبدو سلسبيله كأحلى نساء العالم . وقلت لنفسى . من لى بجلباب واسع وطاقية من الصوف وقدم تشققت من أثر مياه الرى ، وصدر مغطى بالشعر وشارب كث وذقن غير حليق ، وعند هذا الحد . ستبدو سلسبيلة غاية المنى . تتحرك الالسنة . وأهمس فى بطء وتثاقل ان جسد سلسبيله وعد بلذة دائمة . وانها أحلى من نساء القاهرة . أين كانت فى الايام الماضية . ويصيبنى هم مفاجىء . دائما نكتشف أحلى الاشياء بعد فوات الاوان ، نحب بعد تساقط شعيرات الراس . نتزوج بعد أن تصيبنا الكهولة .

— ضمنى وانا اضمك ، ليل الشقا طويل .

شمس العصارى غابت . ياللى بلادك بعيدة .

كانت سلسبيله تغنى . انسالت الكلمات فى خاطرى . وفى الاعماق . كانت الدموع الدافئة تسح . نظرت حولى ، كنت نصف نائم . وفى جو العشة ، كان الصخب والضجيج .

يــوم الــوداع .

٢١ ديسمبر سنة ١٩٦٤

خيام الغربا

قال عصمت لنفسه ، على غير موعد سيكون الرحيل . بدأ العمال فى فك الخيام ، حمل كل منهم أشياءه الخاصة . ورغم شكواهم الدائمة من الحياة فى السوالم ، واستعجال الرحيل ، والتباكى من ظلم العالم الذى رماهم هنا ، فان الرجال هذا الصباح ، يشعرون بحب للسوالم .

ـ والله الدنيا دي عجيبة

ـ حد كان يصدق

وفى مكان الخيام ، تبدو آثار الحياة . حفر مكان الاوتاد ، اماكن نظيفة من الارض ، بيضاء لامعة ، أماكن أسرة ومكاتب ، أعقاب سجائر ، فضلات مياه مداوقة ، أوراق ممزقة ، علب سردين فارغة ، ومن الجهات الاربع ، كان أهالى السوالم ، يقفون فى صفوف . عصمت يقف فى مكان مرتفع ، ينظر الى الناحية البحرية ، حيث الارض والبئر المؤجلة الى موعد غير معلوم قال لنفسه : انه أحب السوالم بكل ما فيها ، وان سلسبيله على الله ، قد تركت فى العين والقلب والصدر ، ما يكوى النفس ، احساس لاذع ومر ومؤلم . وسأل نفسه : هل سيراها قبل الرحيل .

عصمت فهمى يسير بخطوات بطيئة راسما دائرة ، حول الرجال القائمين بحمل المكاتب والحقائب والخيام واوانى الطعام والكراسي والاسرة ، ناظرا الى اسفل ، ان عينيه تنظران الى نفس الاماكن التى يدوس فيها بقدميه . عصمت يضع يده اليمنى فى جيب بنطلونه الايمن ، ويده اليسرى فى جيب بنطلونه الأيسر ، انه يفكر .

ان الصغار من أطفال السوالم قبلى ، والذين كانوا ذاهبين فى هذه الساعة الى مدارسهم ، حاملين كتبهم ، ونافخين فى الهواء ،

محاولين طرد شتاء اتى قبل الاوان ، ما زالوا يذكرون المهندس : فى سيره البطىء ، شباب قمحى اللون ، يرتدى بنطلونا ازرق ، وقميصا سماويا مفتوح الصدر ، شاب طويل ، يقال عن مثله من ابناء السوالم ، انه ولد فى أيام الرخاء ، وأنه من بيت عز . من فتحة القميص يطل شعر غزير أسود ، وفى محجريه تدور عينان عسليتان ببطء وشاعرية ، تمسحان البلد والحقول . ويومها ، سأل الصغار انفسهم ، وهم فى الطريق الى مدارسهم ، عن السبب فيما يحدث ، فك الخيام ، الناس المتجمعون ، ما يحزن المهندس فهو يبدو مهموما ، والمهندس فى نظرهم شاب أكمل تعليمه تخرج ، وتوظف ، واستراح من المذاكرة وضرب المدرس وسؤال الاب عن سير الدراسة ، واستجداء القروش القليلة من الاب والاخوة الكبار . ان صبية السوالم يسمعون دائما عن ايام زمان، يقال لهم : كانت اياما عظيمة ، أما هذا الزمان ، فأيامه بخيلة فى النقود والصحة والحال ، ولا يدركون السبب . ان جميع الاطفال ، قد اقسموا لانفسهم جميعا هذا الصباح ، بانهم لابد وان يصبحوا مهندسين .

ـ مالك يا باشمهندس ؟

ترتفع عيناه سائلتين ، هو احد معاونيه ، لا يجيب عليه بكلمات واضحة ، يستمر فى سيره . بعد الغد ، يجلس فى مكتبه ، فى الدور العاشر من احدى عمارات القاهرة ، يشرب القهوة ، ينظر من نافذته ، يشاهد اسطح العمارات العالية ، الميادين المزدحمة الشوارع الطويلة الصاعدة فوق صدر القاهرة ، هذا كل ماهنالك.

ـ المهم أن الحكاية انتهت ..

ـ حكاية ايه ؟

ـ سواء بالخير ، أو بالشر ، انتهت .

لا يكمل المهندس حديثه ، يستأذن ، يحاول أن يتمشى ، يكتشف ان صمت الناس والحقول والبيوت يضجره ، وعندما ينظر الناس اليه باحترام ، يقول ان الاحترام سيقتله . عصمت يجد نفسه مجبرا على أن يرد التحايا ، ويبتسم ، وينحنى ، ويقول للناس : انه رغم ما حدث ، فان كل شىء هنا ، على خير ما يرام .

● الرجال على الجسر ●

لقد تألموا كثيرا ، وتحملوا وبقوا يبتسمون .

قال لهم أبو السعود ، ان غيط وردانى ، كان من قبل منذ

مئات السنين ، قبر شيخ عظيم .
ـ قبر سيدنا الشيخ رضوان ، رحمه الله
في منتصف الحقل ، دائرة صغيرة ، كانت دائما بائرة ، نباتاتها صفراء ، تنمو ، تذبل ، ثم تموت ، وتبدو من خلال النباتات ، سمرة الارض الغامقة . يقول أبو السعود : ان سن المحراث ، او حديد الفأس ، لم يكن يسوخ في هذه القطعة من الارض ، لم يكن من الممكن اصلاحها ، لا بالسماد ولا بالكيماوى ولا بالمياه .

ابو السعود يرفع صوته . سيدنا الشيخ رضوان زاره في المنام ، ليلة الامس ، كان حزينا ، شكى له أهالى البلد ، شكى الايام التي انعدم فيها الخير . اقترح عليهم أبو السعود ان تقوم البلد ببناء مقام صغير لسيدنا الشيخ رضوان ، في نفس المكان الذي دفن فيه ، وهو منتصف أرض ورداني ، وبعدها قد يفرجها الله .
انهى ابو السعود حديثه . لم يعلق احد على كلامه ، لكن الرجال يدركون بالفطرة أنه حدثت لهم خديعة ، خيانة . والخيانة مرة الطعم في الحلوق ، كاوية لحبات القلوب . الخيانة حدثت بشكل او بآخر ، سرقة . مؤامرة . أتى اناس في الليل ، والليل ليس له صاحب أو حبيب . وكله اعداء . آذان تسمع . عيون ترى . سرقوا في الظلام ما في أرض ورداني .

السماء صافية ، صفاء خريفي كاذب . بعد قليل ، يسافر المهندس . تاركا البلد ، ويعود الرجال الى بيوتهم . يغمسون لقيماتهم بالاتهامات . ويرسو الذبول فوق العيون والوجوه ، بدا لهم الصباح متعب الجبين . وطار في السماء ، طائر اسود اللون مهاجرا نحو الجنوب . وراح يطعن الفراغ ، بجناحيه في خفة وسرعة . وتعلقت به انظار الرجال . تابعوه ، حتى وصل الى حافة الافق . حيث تلتقى السماء والارض . وعادت عيونهم مرة واحدة ، نظر كل منهم الى الواقف امامه . وكأنما قد عجزوا عن ان تلتقى العيون ، فراح كل منهم يعبث بيده .
ـ ما توحدوه .
ـ لا اله الا الله .
ادركوا انهم جميعا موتى . الايام التى مضت . يقول الرجال ، لم يكن لها صاحب ، وأيامهم القادمة ، ستكون مليئة بالجراح . الرجال يقفون على الجسر في انتظار المهندس ، في العيون نظرات حالمة ، النظرات تشتعل بوميض حار ملتهب . ومن تحتهم . كانت

مياه الترعة ، تسير هادئة ، نحو دميسنا وكفر عوانه ، غير مبالية بما يحدث فوق الجسر ، ليلة الامس ، ذهب الرجال الى حقل ورداني ، جلسوا حول الحفرة الكبيرة ، وكانت قطع الطوب الناتجة من الحفر متناثرة ، وراحوا يتمعنون فى حلمهم القديم ، اقتربوا من الحفرة ، كاد بعضهم يسقط فيها . كانت هناك ـ مكان الحفر ـ مياه نشع تنز من جدران البئر ، وآثار اقدام ، فى طريق عودتهم ، قالوا كلاما كثيرا ، ضحكوا ، القوا النكات ، ضرب بعضهم بعضا ، وكان الاتساع الليلى يعجن الاصوت والحركات والاحزان .

وقف المهندس بينهم ، اتجهت اليه العيون والايادى والقلوب . اتفقوا جميعا ، ان الصمت هو خير ما يفعلونه ، حب الدين اتى مع المهندس ، كان يبدو عجوزا ، راح ينظر الى مياه الترعة الهادئة ، وهو يقضم أظافره بهدوء ، سأله المهندس عما يشغله :

ــ مافيش حاجه .

المهندس يبتسم ، لم يقتنع احد من الواقفين بأن حب الدين ليس عنده ما يحزنه . تحركت شفتا حب الدين دونما ارادة منه ، سأله المهندس : هل معه نقود ؟ فقال : انه معه الكفاية ، سأله عن سلسبيلة ، فأخبره بأنها قامت مبكرة هذا الصباح، على غير العادة وحضرت الى العشة ، كى تراه قبل سفره . شعر حب الدين عقب حديثه بخجل ، الستر يكتسب معنى خاصا . قد يعيش المرء حياته بشكل ما ، وعندما يتعرى أمام عيون الآخرين ، فانه يشعر بالغضب ، يحاول أن يخفى بعض الامور . سأله المهندس : ان كان العمدة قد أغضبه ، أو هل هو مريض .

ــ والله العظيم ما فى حاجة .

ــ امال فيه أيه ؟

طلب منه المهندس أن يحكى لهم كيف قضى يومه ، منذ أن صحا من نومه ، حتى الآن . قال كلاما كثيرا ، ان دماء حمراء تصعد الى وجهه ، ولم يدر ماذا يقول :

ــ لازم شفت حاجة فى المنام .

ــ لا .

ــ افتكرت الارض والمدارس وليالى البنادر .

ــ لا .

ضرب المهندس كفا بكف ، ركب السيارة ، وهو يحاول أن

يضحك ، اعتدل في جلسته . نظر في ساعة يده . كانت زرقة السماء تنعكس على مياه الترعة . راحت عيناه تدوران في بطء على البيوت والاشجار ومئذنة الجامع ودوار العمدة والجسر والترعة .

ـ سوق يا اسطى .

رفع يده للرجال ، لوحوا له بايديهم ، سارت السيارة ببطء . وصلت الى آخر الجسر ، استدارت . اعتدلت على الطريق الزراعى . خيوط النظرات تربط عيون الرجال بالسيارة المبتعدة. السيارة تسرع في سيرها متجهة ناحية الضهرية . واتسعت المسافة ، فطالت خيوط النظرات حتى تمزقت . واسرع الجسر والاشجار مرتمين الى الخلف ، وارتمى الطريق خلف السيارة دائخا ، متحولا الى شريط صغير من التراب الرصاصى ، على جانبيه الاشجار والحلفاء ، وفوق آخر نقطة في الطريق ، تبدو السماء زرقاء . السيارة تسرع ، الطريق الى مصر ، دائما السفر . وفى السماء المغسولة بالشهد ، كانت الطيور تطير مهاجرة نحو الجنوب معلنة اقتراب الشتاء ، وكانت شمس الخريف اللينة الصفراء تسكب أشعتها على السكون .

المهندس يفكر في حب الدين . بالتحديد فيما يضايقه . اعمل فكره ، قال لنفسه : انه لا شىء يضايق حب الدين . استدار نظر الى السوالم ، كانت البيوت تدور في بطء ، وكانت السوالم كلها تتباعد ، وتصغر وتنخفض عن مستوى النظر .

● عشة سلسبيله على الله ●

قال لها عصمت :

ـ ياتيجى معايا أوضتى . يا اشوه وشك بمية النار ..

كانت تسير في حاره باب الوداع ، قال ان حجرته بالقرب من القلعة ، في آخر شارع محمد على . ليس له جيران . الايام صعبة ومن الخير لها أن تطاوعه ، كانت في يده زجاجة صغيرة . وكان الليل فوق صدر المدينة . سلسبيله تعرف انه لن يفعل شيئا . وقفت في مكانها ، واستراحت الملاءة السوداء على ثنيات الجسد الطرى ، وراحت تمضغ اللبانه ببطء ، رفعت يدها فوق حاجبها واهتز الجسد :

ـ لا ياواد ، خفت منك ، تعال خش في عبى .

ضغط عصمت بأسنانه على شفتيه ، حتى كاد يدميها ، ثار في داخله احساس دافىء .

ـ ما كانش يتعز ياسى عصمت .
ـ يا سكر .
ـ فوت بكره .

لم يكن من عادتها ان تصحو من النوم مبكرة . قالت لنفسها ، بعد أن حضرت الى السوالم : ان أيام القحط . فائدتها النوم . كانت تنـام حتى أذان العصر ، وكانت تدرك ان ما تفعله شبيه بالمرض . لم يكن نوما ، كان نوعا من الاستلقـاء على الظهر ، فى انتظار ما يحدث . فى هذا الصباح ، صحت من النوم مبكرة ، حضرت الى العشة ، كنستها ، رشت أرضها بالمياه ، منذ ليلتين عرفت ان اسم المهندس عصمت ، لم تصدق ، سألته بصوت عال : ان كان اسمه عصمت ، امتص الظلام صوتها ، وتاه النداء بين جنبات الصمت .

سلسبيله تجلس فى العشـة ، فى انتظـار ان تراه ، أن تقف امامه . وتقول العيون ما يقال . تلتقى الايادى ، تحتك الانامل ، وتملأ الانف من رائحة جلده ، وتحمله السلام الى مصر الغالية ، تريد أن تقول له : انها هنا ، ترتدى العرى ، تحيط نجسـدها نظرات الرجال ، تغطيه بالرغبات .

بعد أن صحت من النوم ، وقفت أمام المرآة ، مشطت شعرها ، اخرجت من صندوقها القديم ما زينت به وجهها .

ـ والله زمان يا سكر .

بحثت فى صنـدوق ملابسها ، أخرجت فستانا زاهى اللون ، ارتدته على مهل ، رفعته قليلا بيـديها ، راحت تخطو على أطراف اصابعها فى الحجرة ، أدركت انها ما زالت جميلة .

ـ ياخسارة يابت يا سوسو .

ترنمت بمقطع من أغنية قديمة ، كلمات مبللة بالفراق واللوعة شكت سوء الحال ، قالت لنفسـهـا : الحياة لم تعد تطاق تعجبت كيف قضت الايام والليالى والشهور التى مضت . النوم والاكل والشرب ، النوم والصحو ، النوم والرغبات فى العيون ، غيرة حب الدين . الانتظار ، الوعد بالزواج ، الحلم بحيـــاة مستقرة ، السفر الى المدن الكبيرة . تساءلت وهى تدلق ميـاه الغسيل . وتخرج الشعيرات بأصابعها من بين أسنان المشط ، بعد ان اكملت زينتها ، الم يأت زمن النزوح بعد ، وهمست لنفسها : متى تستريح اليـد فى اليـد وتنسج الشفاه كلمات غير مسموعة

وتتحول النظرات الى حبال للمودة .

سلسبيله تسير متجهة الى العشة : المياه تملأ الترعة : أوشكت ايام الجفاف على الانتهاء ، المياه تجرى ، دموع الاحزان الجنوبية ذكرى عصمت وحارة باب الوداع والدفء المفقود ، السماء المغسولة الصامتة ، الحقول الممتدة . سلسبيله ما زالت تسير فى حوارى البلد ، وسلسبيله فى سيرها تشاهد البلد وقت الصباح ، تشعر كأنها تشاهد البلد لاول مرة . سلسبيله تفكر فى نساء البلد ، لا تذكر انها خاطبت احداهن من قبل ، تعاملها مقصور على الرجال وما أن تأتى سيرة سلسبيله ، حتى تهتف النسوة :

ـ الشر بره وبعيد .

ربما يرنين لها فى سرهن . وقد تعجب احداهن بها ، وهى جميلة ، هذا الاعجاب لا يعلن أمام الاخريات ، وقد تتمنى احداهن أن تنجب فتاة صغيرة فى حلاوة سكر ، وتظل هذه الامنية سرها الذى لا تبوح به لاحد ، حتى ولا لزوجها ، وقد يختلفن فى جميع الأمور ، الا انه من المتفق عليه ، ان سلسبيله حلوه .

ـ تقول للقمر قوم وانا اقعد مكانك .

ما ترتديه من ملابس ، يدهش الجميع . سكر تعرف هذا ، وهى منذ أن حضرت الى البلد ، لم تحاول ان تكلم احدى النساء فى كل يوم ، تسير فى الحوارى الضيقة ، وجزء من الشارع الرئيسى ، واثناء سيرها ، تنحدر الابواب والبيوت والنوافذ الى الخلف ، وهى تعرف انها مبطنة بمحاجر صغيرة ، تدور فيها عيون بلا رموش ، تشاهدها ، يتحدثون عن حكايتها مع حب الدين . النساء تقول : سلسبيلة امراة ماشية «على حل شعرها» ، وقد تتمنى احداهن أن تكون مثلها ، وان تفعل ما تفعله ، وتظل هذه الامنيات نجوى صامتة ، ورؤى ضبابية فى الصدور ، وسلسبيله تسمع كل ما يقال عنها ، حتى ما تنبس به مناقير ابو قردان الأرض العطشى وقت الرى ، وشوشات ورق التوت ساعة هبوب الرياح . الرجال فى السوالم ، فى ساعات العراك والغضب مع نسائهم ، يعايرونهن بسلسبيلة ، وعلى الفور يقال كل شىء ، وتبقى حكاية سكر معلقة فى اماقى العيون ، كالبراءة المفقودة ، او العفاف الذى انتهك وولت أيامه . وقد تتذكر النساء ، عند مرور سلسبيلة عليهن ، ذكريات مدفونة فى قاع العقل ، الحلال والحرام ، رائحة زوجها مقترنة برائحة رجل اشتهته . وقد تتذكر بعض النساء ،

انها تذوقت الحرام فى ساعة راعشة ، فى الحقول الواسعة ، وتتذكر ن الستر كان آخر ما تتمناه . تقول النساء : سكن مسكينة وغلبانة .

ـ دى وليه .

ـ والوليه مكسورة الخاطر .

ويطلبن لها من الله الستر والغفران .

فى العشة ، كانت سلسبيله على الله تنتظر .

● منزل فتحى سالم ●

فتحى سالم يقف خلف نافذة حجرته ، تهيم نظراته فى فضاء الحقول المتسع ، تمر عيناه ببطء على ما يراه . استيقظ من نومه متأخرا ، وفى ليلة الامس ، رقد فى فراشه ، لم ينم ، فكر وفكر ، تقلب على جنبيه ، ضغط على رأسه الملتهب بيديه وطلب من الله الرحمة .

ان سحابة من الغبار تتحرك على الطريق الزراعى ببطء الآن ، ثم تسرع متجهة ناحية الشمال ، فى الاتجاه المعاكس لسير الريح ومياه الترعة وطيران الطيور المهاجرة نحو الجنوب . فتحى سالم يدرك انها سيارة المهندس ، وهو مسافر . قال فتحى سالم عند حضور المهندس : ان حضوره خطر عليه ، يشعر بفراغ لسبب سفره .

ـ خلاص .

بدت له البيوت والناس والترعة والرجال على الجسر ، كصورة معلقة على جدار الذاكرة ، يستعيدها الانسان كل صباح ، أتى سفر المهندس عليه وعلى أعدائه ، وهو لهذا ليس حزينا ، فى المركز ، منوه بوظيفة ، بالليل يكتب الاوراق سرا ، وفى الصباح ، يذهب الى المركز . طلبوا منه الا يخبر أحدا بذلك ، ولا حتى حبيبة القلب ، اقسم انه لا يعرف أحدا ، وان عزلته ليست احساسا نابعا من الداخل ، بل هى سور قديم بنته الظروف حوله ، قال انه يحادث نفسه كثيرا ، عندما لا يجد من يتكلم معه ، تعود الناس أن يشاهدوا نور حجرة فتحى سالم مضاء . انه آخر الاضواء فى ليل السوالم الساهر . والرجال الساهرون على الجسر ، يشاهدون ظله يروح ويجيء فى الحجرة الصغيرة . منزل فتحى سالم فى آخر البلد من الناحية القبلية ، مبنى على مكان مرتفع . ويقول الناس : ان المكان المرتفع فوق كوم كان مسكونا بالجن والعفاريت من قبل .

وفى الصباح ، كانوا يشاهدون فتحى سالم ، وقد استيقظ مبكرا ، رغم سهره . انه يترك منزله ، وقد ارتدى بدلة قديمة ، مخططة ، لايملك سواها ، يمسك بيده شمسية ، يلف حول رقبته منديلا ابيض . انه ذاهب الى ايتاى البارود ، يحرص فى سفره على الا يقترب من احد بالكلام او الانصات أو السؤال ، دائما بمفرده .

فى ايتاى البارود ، يقول الرجال : انه يسلم على الحكمة ، ويقول هو لأمه بعد عودته ، انه قابل فلانا وفلانا وعلانا ، وشرب الساخن والبارد ، وجلس على المقاعد الوثيرة ، ورأى سماء ايتاى البارود المغسولة بالشهد والحنين من خلال نافذة مغطاة بالستائر الوردية الناعمة .

فتحى سالم يدرك ، ان موضوع الوظيفة المحترمة ، والمرتب الثابت أول كل شهر ، والجاه والمنصب ، قد طال تأجيله . الامور فى منزله قد اصبحت أسوأ من اى وقت مضى ، وكبرياؤه فى البلد اصبحت مهددة . وفى كل مرة يجلس هناك ، يبتسم ، يجفف حبات العرق ، تتحرك شفتاه فى حركة تشى بالتنازل .

ـ باقول لك ياسعادة البيه .

يقول كلاما كثيرا ، البسمة الذبيحة تسبق الكلمات ، والاحرف المتآكلة تزخم هواء المكتب .

ـ أنا بس بافكر سيادتك .

فى البداية ، قرر فتحى سالم ان يصفى حسابه مع البلد . صفحات مكتوبة مدون عليها بالحبر الاحمر « سرى للغاية » .

طلبوا منه أن يراعى الدقة ، وأن يراجع نفسه . ذهب يسأل عن السبب فى تحولهم عنه وسوء معاملتهم له . لم يعطه احد وجها . استأذنوا منه ، فالوقت كله ليس مخصصا لمقابلات الناس.

فتحى سالم يعود من ايتاى البارود ذات مساء مريضا ، يسير ببطء ، ينظر ناحية البلد والناس ، كأنه يودعهم . فى حجرته ، جلس ، هذى ، قال كلاما كأنه الهلوسة . قال ان الاعداء من امامه ومن خلفه . من امامه اهل السوالم ، ومن خلفه ايتاى البارود. قال انه يجب أن يضرب فى كل الاتجاهات والله المستعان. صاح ، بكى ، ارتعش جسمه ، نام فى سريره ، أمضى أياما مبللة بالسهاد والمرض ، خاطب اناسا فى الخيال . وفى احلامه ، تشفى وتوعد . وقال : موعدنا الغد ، وليس الغد ببعيد . بعد أن شفى يخرج

الى البلد مرة اخرى . قال النـاس : فتحى سالم تغير ، المعلم يعقوب همس للرجال ، بعد ان اعطاهم فتحى سالم ظهره ، عائدا الى منزله :

ـ دى صحوة الموت .

فتحى سالم يقول لنفسه : انه كان ينتظر الخير على يدى المهندس ـ زى كل المرات السابقة ، الواحد يصحى من نومه ، يتصور ان الموضوع فيه حاجه ، يقوم ، يفرح ، يلبس ، يشتم ، تكرهه الناس ، وتخلص الحكاية ، وافضل هنا لوحدى ، وورايا حاجات كثيرة ، كراهية وخلافات وجراح ، اما قدامى : بركة ساكنة ، عليها ناموس وهاموش . آدى الحكاية .

فتحى سالم يستدير ، يعطى ظهره للنافذة ، يطالعه المنزل من الداخل ، وفى داخل المنزل ، امه واخوته . يسير فى حجرته ، امامه مكتبه القديم المتآكل ، على المكتب قلم ودواة حبر وورق ابيض . هنا يكتب للناس شكاواهم . هـذه المرة سيجلس ، لن يكتب شكاوى . سيكتب عن حالته ، تسع شكاوى ، لن تنقص او تزيد واحدة . يرسلها الى جهات كثيرة . ويجلس هنا منتظرا .

فى الخارج ، الرجال يتمددون فى استرخاء ، وفى حوارى البلد ؛ يستمع الى صوت واه يستجدى . انه شحاذ يتجول ، يطلب من الناس ما يفيض عن حاجتهم . فتحى سالم يجلس على مكتبه ، ينظف قلمه ، يغمسه فى الدواة ، وعلى نافذة حجـرته ، هبت نسمة هواء جافة .

● حب الدين سرحان ●

مناجاة : انصت يا قلبى ، مددت يدى القصيرة ، امسكت به بجلبابه الطاهر . توقف ، نظر الى ، وكانت تطل من وجهه نورانية . سألته ، قلت له : لم حرقت السفينة ، وغرقت حتى القاع . قال لى : السفينة لم تحترق ، انني اتكلم ، فهل تسمع الى ، ما العمل ياسيدى . خانتنا الريح ، وفرغت القلاع وجفت المياه ، وجنحت السفينة . نامت على احد جنبيها . جلسنا على سطح الماء . انغرست نظراتنا فى سماء الله العالية . انتظرنا ان يطلع علينا طائر ، يحدد لنا مكان اليابسة . انقضى العمر ، ومات البعض ، الطائر لم يطلع علينا . لم يرد على ، ادار وجهه ، وكان عليه هم عظيم ، سار ، طار فى الهواء . وقلت لنفسى : فلتمـلأ القـلاع بما فى الصـدور ونسد الخرق بقطع من القلوب ، وعلى

حبات الدموع الدافئة ، ستسير السفينة .

بعد قليل ، يستأذن حب الدين سرحان من الرجال ، ويعود الى بيته ، تاركا سلسبيله فى العشة بمفردها . فهو يريد ان يحلو لنفسه . سينام ، يوما او يومين ، نوما عميقا وقد ينام العمر كله . حب الدين سرحان يدرك هذا الصباح ، انه تعب بما فيه الكفاية . هيكله مريض ، وعظامه تفككت ، ولا يطلب سوى النوم

المهندس ، الباشمهندس ، مهندس البترول ، عصمت افندى ، عصمت بيه ، الباشمهندس عصمت ، سعادة البيه ، حضر المهندس ، ذهب المهندس ، اتى المهندس ، قام المهندس بعمل كذا . قال المهندس . مكتب الشركة الفرعى بالسوالم بحيرة فى سكرتيرية مهندس المشروع . قال المهندس لفلان كذا ، المهندس يعلم كل شيء . قلت للرجال فى العشة ، ذات مساء اننا ما زلنا صغارا ، واننا سنسمع مع الايام القادمة حكاوى ، لن تصدقها الاذان لحظة سماعها ، العمر ما زال طويلا امامنا . علم المهندس لا تحده حدود . يا اهالى البلد ، الحاضر يعلن الغايب ، وارتفعت رءوس الرجال كسنابل عجفاء تحدق فى السماء ، تسمع المنادى ، تقال كلمات ، تذبل على الشفاه ، وسيولد الاطفال وينسون حكاية البئر والبترول واحلام الآباء ، وتحدق الكلمات فى بطولة الايام المفقودة . حضر المهندس ، لف ودار ، سافر وحضر من جديد ، ثار على كل ما فى البلد ، قرر ان يضع شيئا يبلغ حد الروعة ، غير ان واقع السوالم ، شكل حياته ، كسره ، وعندما استعصى على الكسر قتله . وبعد الحكايات ، الكلمات المبللة بالشوق ، الايام المخضبة بالذكريات . تعود الحياة الى ما كانت عليه والحمد لله . فى الليالى الطوال ، غمسوا خبزهم فى ماء العين ، مضغوا اللحم حتى التخمة . وفى الصباح ، تسلل شعاع صغير من نقب الباب . كنت انام على ظهرى ، فاتحا عينى عن آخرهما . كانت الاشياء تبدو فى شريط الضوء واضحة ، غبار ، ذبابة ، ناموسة . تظهر فى شريط الضوء ، تعبره فى سرعة. تختفى اختفى الشعاع . عرفت ان الشمس قد اصطدمت بمنزل الجيران اثناء صعودها فوق صدر السماء ، افتح لهم الباب ، آخذهم بالاحضان ، تمسك اصابعهم الخشنة بالقلب ، تدوس اقدامهم فى الصدر ، تضحك ضحكات مسلوخة . وتتحول الاصوات الى ضربات على طبلة الاذن . اللى حا يحصل فى السوالم معجزة ، وانا

اصر على كلامى ، انا احذرك ياحب الدين انت والمهندس ، الإتحاد حايصفى المشروع كله ، تتجوزنى ياواد ياحب . اقول متى تاتى النهاية يا أصدقاء كل ليلة . اسمعونى . بعد ايام تحدث المعجزة ، يتدفق البترول وسعد . صدقونى . ليس هذا كلام المهندس ، او رؤيا شاهدتها فى المنام . بل ان هذا ما عرفته بنفسى. ستصبح لحظة المساء هى القنطرة ، بين الرجال ، وبين الليالى الدافئة ، يا رفقة السهر .

ـ يقابلك صاحب الملك الصبح .

ـ اشمعنى .

ـ يطالبك بأجرة الجلابيه اللى لابسها .

ـ ها . ها . ها .

يضحك الرجال ، يضربون أكفهم على حوائط العشة ، يستلقون على الارض ، تسيل من أشداقهم ضحكات باهتة ..

ـ محفظتك تقول للمعلم يعقوب ساعة مايطالبك باللى عليك :

ـ اشمعنى .

ـ وانا مالى يابويا وانا مالى .

ـ ها . ها . ها .

تمتلىء العيون بدموع مفاجئة ، وينتعش فى الاعماق حزن راكد .

استمعوا ، ساحكى لكم حكاية ، من جدب الايام تغزل الحكايا. بالحكايا نبذر فى رحم الارض احلامنا . ونجلس ، ننتظر ايام الحصاد ، وفى أيام الانتظار ، نعوم فى بحار الكلمات .

ـ يحكى ، والله أعلم ، انه حدث فى قديم الزمان، وسالف العصر والاوان ، ان كان فى بر مصر ، جماعة من الرجال ، ضاقت بهم الحال . وافزعهم سوء المآل . قالوا لانفسهم ، لنترك الديار ونسافر ، لنرى ، هل حدث لغيرنا ، فى اى مكان آخر ، ما يحدث لنا . ثم انهم سافروا ، ركبوا الريح ، وخاضوا الماء المتاجج ، وداسوا مساحات اليابسة ، غير انهم بعد ان وصلوا الى البلاد البعيدة ، حدث ان ..

القاهرة — الضهرية ــ بحيرة ١٩٧٢

تمت

هذه الرّواية



يوسف القعيد

فى خريف ٦٤ ، وصلت الى قرية السوالم بعثة للبحث عن البترول، ومع اول قطرة من مطر ذلك العام ، رحلت البعثة. طمأن المهندس الناس. البترول موجود ولكنه غير اقتصادى . العائدمنه لا يغطى التكاليف ، سيؤجل المشروع سنوات قد تطول . تنتهى الحكاية على ارض الواقع ، لتبدأ الرواية .احداثها تبدو كالتالى : انبتت كلمات واحلام المهندس اجنحة ، طار بها سكان البلد. رحلوا ، سافروا فى الزمان . كون كل منهم لنفسه يوتوبيا خاصة به. أصوات المهندس تصبح شروخا وشقوقا تصيب وجودهم . يرحل المهندس . الجوابون التعساء فى رحم الليل ، يلوب تحت اقدامهم طريق العودة . حب الدين سرحان ، سلسبيله على الله ، ابو السعود ، المعلم يعقوب ، العمدة ، مللوم ، وردانى . وجوه تطل علينا من خلال اسطر الرواية. تصرخ ملامحهم فينا كل منهم يصحو على واقع يعيشه ، تتمدد بداخله رغبة دافئة فى الدخول مع الواقع فى علاقة انسانية . تبدا وتعيش وتموت مكتسبة لون ورائحة المأساة

المكان الذى يعرفه الروائى ، هو البلد الذى يعيش فى قلبه . البيات الشتوى . تمنح ابطالها ، الفقراء الشرفاء وعيا بالعظمة التى يجهلونها فى انفسهم . الرواية ترفض الحكاية التقليدية، ولغة القواميس ، والتصوير الفوتوغرافى ، بخلق عالم خاص بها . له زمانه ولغته ومكانه وشخوصه . واقعية تبدا من جزئيات الواقع ونثر الحياةاليومية ، واقعيةاسطورية شعرية لا تعد بديلا للواقع الحقيقى ولا الغاء له . ولكنها تقدم رؤية فكرية لواقع القرية المصرية الآن .